اللآلئ الحسان
في علوم القرآن

تأليف

د.موسى شاهين لاشين

دار الشروق

اللآلئ الحسان
في علوم القرآن

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية - مدينة نصر - ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: ٢). ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ (الكهف: ١). ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١).

والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي الذي تكفل له ربه بحماية القرآن بقوله جل شأنه: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة: ١٦ ـ ١٩). وضمن له حفظه وصيانته بقوله جل شأنه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩). صلى اللّه عليه وسلم وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

«أما بعد»، فهذه قطرة من بحر علوم القرآن ومعارفه وأسراره، أقدمها لطلبة العلم، وخدمة كتاب اللّه، راجيًا من اللّه المثوبة والتوفيق.

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ (طه: ٢٥ ـ ٢٨).

﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٠).

صَدَقَ اللَّهُ العَظِيم

مقدمة

علوم القرآن ـ بوصفها فنا مدونا ـ مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية: نزوله، وترتيبه، وجمعه، وكتابته، وقراءاته، وتفسيره، وإعجازه، وناسخه ومنسوخه، ورفع الشبه عنه، ونحو ذلك. وموضوعه: القرآن الكريم من النواحي المذكورة.

وسمي هذا العلم «علوم القرآن» بلفظ الجمع؛ لأنه خلاصة علوم متنوعة، بعضها مرتبط بالعلوم الدينية، وبعضها مرتبط بالعلوم العربية، حتى إننا لنجد كل مبحث منه جديراً بأن يُعَدّ من مباحث علم من تلك العلوم.

أطوارها وظهورها فنًا، وأشهر المؤلفات فيها:

روى مسلم في صحيحه، عن أبي سعيد الخدري، قول رسول الله ﷺ: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني فلا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

من أجل هذا التحذير النبوي الكريم خشية التباس القرآن بغيره، لم يدون أحد من الصحابة شيئا مما كان يعرف عن القرآن وعلومه، مع بذلهم كل جهد في نشر القرآن وعلومه مشافهة لا كتابة. ومضى الأمر على ذلك عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. فلما كتب عثمان مصاحفه وحرق ما عداها، وضع بذلك أساس علم رسم القرآن. فلما أمر زياد أبا الأسود الدؤلي أن يضع قواعد الشكل، صح عَدُّ ذلك أساسًا لعلم إعراب القرآن. فلما قام الصحابة والتابعون في عهد بني أمية بتفسير القرآن الكريم كتابة ـ كما سيتبين ذلك في بحث «التفسير والمفسرون» ـ أمكن أن يقال إنهم بذلك وضعوا أساس علم أسباب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم غريب القرآن، إلى غير ذلك.

وفي القرن الثالث الهجري، ظهرت بحوث متفرقة في علوم القرآن. فألف على ابن المديني شيخ البخاري في أسباب النزول، وألف أبو عبيد القاسم بن سلام في الناسخ والمنسوخ.

وفي القرن الرابع، ألف أبو بكر السجستاني في غريب القرآن. وفي القرن الخامس، ألف علي بن سعيد الحوفي في إعراب القرآن. وفي القرن السادس، ألف أبو القاسم السهيلي في مبهمات القرآن. وفي القرن السابع، ألف ابن عبد السلام في مجاز القرآن، وألف علم الدين السخاوي في القراءات. وفي القرن الثامن، ألف بدر الدين الزركشي كتابه المشهور: «البرهان في علوم القرآن».

وفي القرن التاسع، ألف السيوطي كتابا أسماه: «التبحير في علوم التفسير». ثم وسع بحوثه، وأضاف إليها الكثير في كتابه القيم: «الإتقان في علوم القرآن»، وهو مرجع الباحثين في هذا الفن، منذ عصر السيوطي إلى اليوم، ذكر فيه ثمانين نوعا من أنواع علوم القرآن. وبعد السيوطي، فترت الهمم، وتوقفت النهضة في هذا العلم، حتى جاء هذا العصر، وتقررت دراسة علوم القرآن بوصفها فنا مستقلا في كليات الأزهر وتخصصاته العليا، فقام أساتذتنا الأفذاذ بتدريس هذه المادة، وتفننوا وتبحروا، وحددوا وجددوا، وألفوا وأسهبوا. وكان لهم فضل كبير في تطور هذا الفن وصياغته في أسلوب عصري رصين. نذكر منهم بالإعجاب والتقدير: الشيخ طاهر الجزائري وكتابه المسمى «التبيان في علوم القرآن»، والشيخ محمود أبو دقيقة ومذكرته في علوم القرآن لطلبة تخصص الدعوة والإرشاد، والشيخ محمد على سلامة وكتابه «منهج الفرقان في علوم القرآن»، والشيخ محمد عبد الله دراز وكتابه «النبأ العظيم عن القرآن الكريم»، والدكتور محمد محمد أبو شهبة وكتابه «المدخل لدراسة القرآن»، والشيخ عبد الوهاب غزلان وكتابه «البيان في مباحث من علوم القرآن».

وأوفى هذه الكتب الحديثه وأدقها علمًا وأوسعها باعا، كتاب: «مناهل العرفان في علوم القرآن» للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني. رحمه اللّه تعالى وأجزل له الثواب.

هذا، ولما أسند إليَّ تدريس مادة علوم القرآن في كلية أصول الدين، وطلب مني

كتاب يناسب مدارك الطلاب والزمن المقرر لدراسته، قمت بهذا المجهود المتواضع، ونصب عيني هدف واحد، هو: الإلمام في هذا الكتاب بلب هذا الفن وجوهره ودقائق مباحثه ومسائله، في عبارات مبسطة مركزة بعيدة عن الحشو والتطويل.

وسميته «اللآلئ الحسان في علوم القرآن». والله أسأل أن يجعله خالصًا لوجهه، وأن ينفع به، إنه سميع مجيب.

المؤلف

تـعريــف القــرآن

القرآن: كلام الله المعجز، المنزل على محمد ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته.

بهذا عرفه العلماء. وتوضيحه: أن الكلام البشري نفسي ولفظي. فالنفسي هو المعاني التي تجول بالفؤاد قبل أن تخرج بها الأصوات، واللفظي هو قالب تلك المعاني، وهي التي نسمعها من الأصوات.

فقولنا «القرآن كلام الله» قد يراد به الكلام النفسي، وقد يراد به الكلام اللفظي، ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم. فالمتكلمون يطلقون «كلام الله» على الكلام النفسي فقط، ويقررون أنه كلام قديم غير مخلوق، فيجب تنزهه عن الحوادث وأعراض الحوادث، وتجرده عن الحروف اللفظية المتعاقبة المستلزمة لتجدد الزمان والحدوث. والأصوليون والفقهاء اهتموا بإطلاق القرآن على الكلام اللفظي؛ لأن غرضهم الاستدلال على الأحكام، وهو لا يكون إلا بالألفاظ. وكذلك علماء اللغة العربية، يهتمون بالكلام اللفظي؛ لأن عنايتهم بالإعجاز، وطريقة الألفاظ.

وقد جمع في هذا التعريف المقاصد الكبرى التي امتاز بها القرآن، لكنه ليس تعريفا بالمعنى الاصطلاحي، وإلا لاكتفى ببعض هذه الصفات وكان جامعا مانعًا، لكنهم أطنبوا فيه لغرض زيادة البيان والإيضاح.

الفرق بين القرآن والحديث النبوي والقدسي

ويفرق بين القرآن والحديث النبوي بأن القرآن لفظه ومعناه من عند الله، أما الحديث النبوي فمعناه من عند الله ولفظه من النبي ﷺ على الصحيح. ويفرق بين القرآن والحديث القدسي بأنهما، وإن كان كل منهما لفظه ومعناه من عند الله

على الصحيح، إلا أن الحديث القدسي لم يقصد بلفظه الإعجاز. فقولهم في تعريف القرآن بأنه كلام الله المعجز يخرج الحديث النبوي والحديث القدسي.

ويطلق القرآن على كل المكتوب في المصحف وعلى بعضه. والخلاف هو في كون هذا الإطلاق على سبيل الحقيقة في الكل والمجاز في البعض، أو على سبيل الحقيقة فيهما على أنه مشترك لفظي، وهذا هو الراجح، وهو ما يفهم من كلام الفقهاء عند قولهم: «يحرم على الجنب قراءة القرآن» فإنهم يقصدون حرمة قراءة الكل أو البعض على السواء.

أسماء القرآن

وللقرآن أسماء كثيرة أوصلها بعضهم إلى نيف وتسعين اسما، اعتمادا على إطلاقات وصفات وردت في بعض الآيات كلفظ «كريم» في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (الواقعة: ٧٧)، ولفظ «مبارك» في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ (الأنبياء: ٥٠).

لكن المشهور من أسمائه على الترتيب: القرآن ـ الفرقان ـ الكتاب ـ الذكر ـ التنزيل.

مقاصد القرآن

من المعلوم لنا ما كانت عليه الجاهلية من ضلالات عقائدية وصلت بهم إلى عبادة الصخر وما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئا، وأدت بالكثير منهم إلى نبذ المعاد واليوم الآخر، واعتقدوا بأن الأمر لا يتعدى أرحاما تدفع، وأرضا تبلع، وما يهلكهم إلا الدهر. ومن المعلوم لنا ما كانت عليه الجاهلية من فساد خلقي، وانحراف سلوكي غرق فيه الأفراد والجماعات. فكان القرآن هو المنقذ الوحيد من هذه التهلكة، وهو السراج الوهاج في هذه الظلمات الحالكة.

نقّى القرآن الكريم العقائد من الشرك والوثنية، وغرس فيها الإيمان باليوم الآخر. بل نمت هذه الشجرة، واشتد ساقها، وأصبحت الحياة الآخرة في

عقيدة تلك الأمة هي الحياة، وشغلوا بالعمل لها عن كل عمل، حتى دعاهم القرآن مرة ثانية للعمل للدارين: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص: ٧٧).

كما شرح القرآن الكريم القوانين المختلفة التي تكفل الحياة الكريمة السعيدة للفرد والمجتمع في شتى النواحي. ففي الناحية الاقتصادية، دعا إلى السعي في الأرض وابتغاء الرزق، حيث يقول: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك: ١٥). ثم دعا إلى التوسط في الإنفاق، ونهى عن التقتير والتبذير، حيث يقول: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩). ويقول في صفات عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧).

وفي الناحية الاجتماعية، دعا إلى الترابط بين أفراد الأسرة الواحدة، من بر الوالدين وصلة ذوي القربى وحقوق كل من الزوجين، ثم دعا إلى الترابط بين أفراد المجتمع الواحد، ثم بين طوائف الإنسانية كلها في مجتمعها الكبير مسلمين وغير مسلمين. وضرب المثل الأعلى لهذه الدعوة في قوله جل شأنه: ﴿لاَّ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٨). ووضع الحدود والزواجر الكفيلة بردع أولئك الذين يفككون المجتمعات ويبغون في الأرض بغير الحق ويسعون فيها بالفساد، مع ترغيبه المظلوم في العفو والإحسان.

كما نظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وأرسى قواعد المجتمع الحر السليم.

وجملة القول في أوجز عبارة: فيه نبأ من قبلكم، وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه. وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ (الجن: ١، ٢). من قال به صدق ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم.

تنـزلات القـــرآن

وإذ قد تبين لنا أن القرآن هو دستور الحياة الدنيوية والأخروية، شرعه الحكيم الخبير لصالحها، كان لابد من واسطة تبلغ هذا الدستور وترعاه، حتى يؤتى ثماره؛ إذ من غير المعقول أن يبلغ الله هذا الدستور مباشرة لكل فرد؛ ولهذا كان من الغباء والعته والعناد أن يقول بعض الكافرين لمحمد ﷺ : ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ (الإسراء: ٩٣)، أي تنزل على كل منا كتابا يقرؤه، فيه: من الله إلى فلان بن فلان، أن اعمل كذا وكذا.

وكان من الممكن أن يتلقى الرسول ﷺ القرآن عن ربه مرة واحدة، ودون واسطة، كما تلقى موسى عليه السلام ألواح التوراة. وكان من الممكن أن ينزل القرآن من الله على جبريل لينزل به على محمد دون مراحل لهذا الإنزال.

لكن الثابت أن للقرآن تنزلات ثلاثة:

الأول: إلى اللوح المحفوظ، دليله قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ (البروج: ٢١، ٢٢). ومعنى إنزاله في اللوح المحفوظ مجرد إثباته فيه، من غير نظر إلى علو وسفل. وحكمة هذا النزول ترجع إلى الحكمة من وجود اللوح نفسه؛ فإنه هو السجل الجامع لما كان وما سيكون إلى يوم القيامة. وقد بين الله حكمة وجوده بقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد: ٢٢، ٢٣).

الثاني: النزول من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا. دليله قوله

تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر: ١). ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ (الدخان: ٣). روى ذلك الحاكم والنسائي والبيهقي عن ابن عباس. بل ذكر السيوطي أن القرطبي نقل حكاية الاجتماع على نزول القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا. وحكمة هذا التنزيل تفخيم شأن القرآن، وشأن من أنزل عليه القرآن؛ فإن في تعدد النزول وتعدد السجلات تأكيدا للثقة به، ومبالغة في نفي الشك عنه.

الثالث: إعلام الوحي به النبي ﷺ منجما. دليله قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥). والذي يجب الجزم به أن جبريل نزل بألفاظ القرآن المعجزة من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس. وتلك الألفاظ هي كلام الله وحده، لا دخل لجبريل ولا لمحمد في إنشائها ولا في ترتيبها؛ فالألفاظ التي نقرؤها ونكتبها، هي من عند الله؛ وليس لجبريل عليه السلام في هذا القرآن سوى حكايته للرسول ﷺ، وليس للرسول ﷺ سوى وعيه وحفظه وتبليغه، ثم بيانه وتفسيره، ثم تطبيقه وتنفيذه.

هذا هو الحق. ومن ثم، فإن القول بأن جبريل نزل بالمعاني، وأن النبي ﷺ علم تلك المعاني وعبر عنها بلغة العرب، هو قول بعيد عن الصواب.

وأما كيف أخذ جبريل القرآن؛ وعمن أخذ، فقد قيل: إن جبريل كان يحفظه من اللوح، وينزل به إلى الرسول ﷺ. وقيل إن جبريل تلقى القرآن من الله سماعا، ونزل بما سمع. يؤيد هذا ما أخرجه الطبراني من حديث النواس بن سمعان مرفوعا إلى النبي ﷺ: «إذا تكلم الله بالوحي، أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله؛ فإذا سمع أهل السماء صعقوا وخروا سجداً، فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله بوحيه بما أراد، فينتهي به إلى الملائكة، فكلما مر بسماء سأله أهلها: ماذا قال ربنا؟ قال: الحق، فينتهي به حيث أمر».

وإلى هذا القول أميل، لأن كل نجم من القرآن نزل لمناسبة وحكمة، لا يعلمها جبريل إلا عن الله. حتى لو فرضنا أن الله تعالى قال لجبريل: عند حادثة كذا أو في يوم كذا أنزل على محمد بكذا، وفي مناسبة كذا أنزل على محمد بكذا، فالله هو

الآمر وجبريل سامع لما سينزل به، كما لو سمعه في وقت نزوله مباشرة، وحيث لا مانع من السماع، وهو أوثق، وورد بتأييده حديث كان أولى بالقبول.

ولايقال: ما الحكمة في ثبوت القرآن في السماء الدنيا حينئذ، إذا لم يكن الغرض قراءة جبريل منه؟ إذ قد مر أن في تعدد السجلات زيادة تشريف وتعظيم. على أنه لا مانع من القراءة منه مع السماع، وفي ذلك زيادة توثيق.

وأما كيف أخذ النبي ﷺ القرآن من جبريل، ففيه طريقان:

الأول: أن النبي ﷺ كان ينخلع من صورته البشرية إلى صورة الملكية، فيأخذه.

والثاني: أن جبريل كان ينخلع من صورته الملكية إلى البشرية، حتى يأخذه الرسول منه.

والأول أصعب الحالين. فأحيانا كان الملك يأتي في مثل صلصلة الجرس، فيغط ﷺ ويتغير لونه، ويشتد عرقه حتى ينحدر منه مثل الجمان في اليوم الشديد البرد. وهذه الحالة كانت أشد حالات الوحي على الرسول ﷺ، كما جاء في الصحيح.

وأحيانا، كان الملك يأتيه في صورة الرجل، فيكلمه فيعي ما يقول.

وابتدأ إنزال القرآن على النبي ﷺ بابتداء بعثته في سن الأربعين على الأصح، وانتهى بقرب انتهاء حياته، فتكون المدة التي نزل فيها القرآن على الرسول ﷺ نحو ثلاث وعشرين سنة، ثلاث عشرة منها بمكة وعشر بالمدينة.

تنجيم القرآن

نزل القرآن مفرقا حسب الوقائع والحوادث ومقتضيات الأحوال. ويسمى العلماء القطعة التي نزلت دفعة واحدة نجما، كأنهم ينزهون القرآن عن لفظ التقطيع والتفريق، ويشبهون أجزاءه بالنجوم، من حيث إن كل نجم له استقلاله وإضاءته، في الوقت الذي هو فيه جزء من مجموعة الكواكب.

قال السيوطي: الذي أستقرئ من الأحاديث الصحيحة وغيرها، أن القرآن كان

ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل. وقد صح نزول عشر الآيات في قصة الإفك جملة، وصح نزول ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ (النساء: ٩٥). وحدها وهي بعض آية.

تنجيم الكتب السماوية

والصحيح أن التنجيم خاص بالقرآن من بين سائر الكتب السماوية. قال السيوطي: حتى كاد أن يكون ذلك إجماعا. وساق أدلة على ذلك، منها ما روي عن ابن عباس قال: قالت اليهود يا أبا القاسم لولا أنزل هذا القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى؟ فنزلت الآية: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ (الفرقان: ٣٢). وقد عدل تعالى عن الجواب عليهم إلى بيان حكمة التنجيم. ولو كانت الكتب السماوية السابقة نزلت مفرقة، لكان يكفي في الرد عليهم أن يقول: إن ذلك سنة الله في الكتب التي أنزلها على الرسل السابقة.

ومن الأدلة على ذلك أيضا، قوله تعالى في إنزاله التوراة على موسى يوم الصعقة: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ (الأعراف: ١٤٤). ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ (الأعراف: ١٤٥). ﴿وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ﴾ (الأعراف: ١٥٠). ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ (الأعراف: ١٥٤). فهذه الآيات كلها دالة على إنزال التوراة جملة.

حكمة التنجيم

ولتنجيم القرآن حكم كثيرة، أهمها:

(١) تثبيت فؤاد النبي ﷺ. دليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (الفرقان: ٣٢). فإن في تجدد الموحى به، وتكرر نزول جبريل من الله تعالى، ما يدخل السرور على الرسول ﷺ ويشرح صدره، ويزيل عنه عناء المشركين وصدودهم بما يشعره بأنه في كنف الله وعنايته ورضاه. فكلما اشتد الأذى به ﷺ سلاّه ربه، تارة بقصص

الأنبياء والمرسلين، كما يقول الله تعالى: ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (هود: ١٢٠). وتارة بطلب الصبر ووعد الله له بالتأكيد، كما في قوله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (الطور: ٤٨). وتارة بوعيد الله لأعدائه وإنذاره لهم، كما في قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (القمر: ٤٥). إلى غير ذلك من أساليب التسلية والتثبيت.

(٢) تيسير حفظ القرآن على النبي ﷺ وعلى أمته؛ قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾ (الإسراء: ١٠٦).

ومن المعلوم، أن الأمة العربية كانت لا تقرأ ولا تكتب، وكانت مشغولة بمعاشها وجهادها؛ فكان نزول القرآن مفرقا ميسراً لحفظه وفهمه وتبليغه ونشره.

(٣) التدرج بالأمة في تخليهم عن الرذائل. وتحليهم بالفضائل، والترقي بهم في التشريعات؛ فلو أنهم أمروا بكل الواجبات، ونهوا عن جميع المنكرات دفعة واحدة لشق ذلك عليهم، ولضعفت الهمم الصغيرة عن التجاوب والمسايرة. تماما كالطبيب الذي يعطي المريض دواءه على جرعات، ولو أعطاه له مرة واحدة لتحقق أحد أمرين: إما رفض المريض الدواء والصد عنه، وإما القضاء عليه.

(٤) مسايرة الحوادث، وهي متجددة؛ فكلما جد جديد جاء حكمه، فيرسخ في النفوس وتتجاوب معه. فقد كانت الآيات تنزل أحيانا جوابًا عن سؤال صريح، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً ﴾ (الكهف: ٨٣). ويقول تعالى: ﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ (الفرقان: ٣٣).

وأحيانا، كانت تنزل خاصة بواقعة وحادثة معينة كآيات الإفك، وليس من الحكمة أن تنزل المؤاخذة على الخطإ قبل وقوعه. وأحيانا كانت تصحح الأخطاء وتوجه إلى ما ينبغي أن يكون، كآية أسرى بدر: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ (الأنفال: ٦٧).

وأحيانا، كانت تكشف المنافقين وتهتك أستارهم، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون: ٨).

(٥) الإشارة إلى مصدر القرآن وأنه كلام الله وحده؛ فإن القرآن ـ برغم أنه نزل مفرقا ـ مترابط أقوى ترابط، كأنه عقد تم نظمه بدقة وإحكام يفوقان قوى البشر، فلم يؤثر الانفصال الزماني انفصالا في الأسلوب والمعاني كما هو شأن كلام الناس. يظهر هذا الاتساق والتآلف الخارق، وأسرار الإعجاز لدارس التفسير، المتذوق لطعم البديع والبيان. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١).

(٦) تحقيق النسخ، فقد شاءت حكمة الله تعالى أن ينسخ من كتابه التلاوة أو الحكم أو هما معا، تدرجا من السهل إلى الصعب، للترقي بالأمة في مدارج الكمال، أو انتقالا من الصعب إلى السهل ـ وهو الكثير ـ تخفيفًا عن الأمة وتيسيراً عليها. ولا يتأتى النسخ إلا فيما نزل مفرقا، وتفاوتت بينه الأزمان.

جهات نزول القرآن

نقل السيوطي في الإتقان عن أبي القاسم النيسابوري في كتابه «التنبيه على فضل علوم القرآن» قوله: من أشرف علوم القرآن علم نزوله، وجهاته وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، وما يشبه نزول المكي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكي، وما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، وما نزل ليلا، وما نزل نهارا، وما نزل مشيعًا، وما نزل مفرداً، والآيات المدنيات في السور المكية، والآيات المكيات في السور المدنية، وما حمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة إلى مكة، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة، وما نزل مجملا، ومانزل مفصلا، وما اختلفوا فيه فقال بعضهم مدني وبعضهم مكي. فهذه خمسة وعشرون وجهًا من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى.

من هذه الفقرة يتبين لنا مدى عناية علماء المسلمين بالقرآن الكريم، ومدى ما بذلوا من جهد وما أسهموا به من علم. وتلك صورة مشرفة ورائعة تحوط كتاب الله الكريم من بين سائر الكتب المنزلة بإطار من الثقة فيه، وسياج من أن تحوم حوله شبهة التغيير والتبديل مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩). ورضي الله عن عبد الله بن مسعود حيث يقول: «والله الذي لا إله غيره، ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت، ولو أعلم أن أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه وتكلفت أن آتيه». رواه البخاري.

ويضيق بنا في هذا المقام أن نتناول هذه الوجوه كلها بالشرح والتفصيل ـ وما لا يدرك كله لا يترك كله ـ ولهذا نكتفي بالأهم منها عن المهم. والله ولي التوفيق.

المكي والمدني

طريقة معرفة المكي والمدني وأضرابهما هو النقل الصحيح، ولا مجال للرأي فيه إلا بالترجيح بين الآراء، أو الجمع بين الروايات.

والتمييز الزمني لآيات القرآن يعيننا كثيراً على فهمها. فمعرفة البيئة، ومعرفة المخاطبين، والظروف الملابسة للنزول، كلها مفاتيح للتفسير الصحيح، وبالتالي يعيننا على معرفة الناسخ والمنسوخ، وعلى معرفة تاريخ التشريع الإسلامي وتدرجه بالأمة إلى ما فيه سعادتها. وهذه نفسها هي الفائدة من معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل وأسباب النزول.

وللعلماء في تعريف كل من المكي والمدني اصطلاحات ثلاثة:

أدقها وأشهرها أن الفرق بينهما بالزمن: فالمكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعد الهجرة. وتحدد الهجرة بوصول النبي ﷺ المدينة؛ وعلى ذلك، فما نزل بمكة عام الفتح، أو عام حجة الوداع، أو بسفر من الأسفار بعد الهجرة هو من قبيل المدني.

والاصطلاح الثاني: أن الفرق بينهما بالمكان: فالمكي ما نزل بمكة ولو بعد

الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة. ويدخل في مكة ضواحيها، كمنى وعرفات والحديبية، ويدخل في المدينة ضواحيها كبدر وأحد. ويضعف هذا الاصطلاح لزوم الواسطة؛ إذ يلزم عليه أن ما نزل بسفر من الأسفار بعيداً عن مكة وضواحيها وبعيداً عن المدينة وضواحيها لا يطلق عليه مكي ولا مدني.

والاصطلاح الثالث: أن الفرق بينهما بأسلوب القرآن. فالمكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة. وهذا الاصطلاح تلزمه الواسطة أيضا بصورة أكثر، فالآيات العامة التي ليست خطابا لأهل مكة وحدهم، ولا لأهل المدينة وحدهم لا تحصى.

وقد حاول العلماء أن يميزوا المكي والمدني بمميزات، ويضعوا ضوابط للسور المكية والمدنية تسهل على المشتغل بعلوم القرآن أن يفرق بينهما.

أما المميزات ـ وهي غالبية ـ فقد قالوا:

يمتاز المكي:

(١) بالعناية بإثبات الوحدانية والرسالة والبعث والجزاء.

(٢) ويقص أنباء الرسل وما لحقهم من الأذى، وأنباء أممهم وما نزل بهم من العقاب، تسلية للنبي ﷺ ووعيداً للمكذبين.

(٣) وبمعالجة عادات المشركين القبيحة، كالقتل ووأد البنات واستباحة الأعراض وأكل مال اليتيم.

(٤) وبالإيجاز في الخطاب، وقصر الآيات، وقصر السور.

ويمتاز المدني:

(١) بتفصيل أحكام الشريعة العملية في العبادات والمعاملات والحدود.

(٢) وبكشف حال المنافقين، وهتك أستارهم، وإنذارهم بالعذاب الشديد.

(٣) وبمجادلة أهل الكتاب في عقائدهم الفاسدة، وإرشادهم إلى سماحة الإسلام.

(٤) وبالدعوة إلى الجهاد وبيان أحكامه .

(٥) وبالإطناب ، وطول الآي ، وطول السور .

وأما الضوابط، فقد قالوا عنها:

(١) كل سورة فيها سجدة ، فهي مكية .

(٢) وكل سورة فيها (كلّا) ، فهي مكية . وقد ذكر هذا اللفظ في القرآن ثلاثا وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة كلها في النصف الأخير من القرآن . قال بعضهم : وحكمة ذلك أن نصف القرآن الأخير نزل أكثره بمكة ، وأكثرها جبابرة ، فتكررت فيه على وجه التهديد ، والتعنيف لهم ، والإنكار عليهم . بخلاف النصف الأول ، وما نزل منه في اليهود لم يحتج إلى إيرادها فيه لذلتهم وضعفهم .

(٣) كل سورة في أولها حروف التهجي ، فهي مكية ، سوى البقرة وآل عمران ، فإنهما مدنيتان بالإجماع ، وفي الرعد خلاف .

(٤) كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة ، فهي مكية سوى البقرة .

(٥) كل سورة فيها حدود وفرائض ، فهي مدنية .

(٦) كل سورة فيها إذن بالجهاد وبيان أحكامه ، فهي مدنية .

(٧) كل سورة فيها قصة آدم وإبليس ، فهي مكية سوى البقرة .

(٨) كل سورة فيها ذكر المنافقين ، فهي مدنية سوى العنكبوت .

تلك ضوابط المكي والمدني بالوصف . أما ضوابطه بالاسم ، فأحسن ما قيل فيها ما نقله السيوطي عن أبي الحسن الحصار في كتابه الناسخ والمنسوخ ، حيث قال : المدني باتفاق عشرون سورة ، والمختلف فيها اثنتا عشرة سورة ، وما عدا ذلك مكي باتفاق . ثم نظم :

يا سائلي عن كتاب الله مجتهدا ... وعن ترتيب ما يتلى من السور
ليعلم النسخ والتخصيص مجتهد ... يؤيد الحكم بالتاريخ والنظر
تعارض النقل في أم الكتاب ... وقد تؤولت الحجر تنبيها لمعتبر (١)
أم القرآن وفي أم القرى نزلت ... ما كان للخمس قبل الحمد من أثر (٢)
وبعد هجرة خير الناس قد نزلت ... عشرون من سور القرآن في عشر (٣)
فأربع من طوال السبع أولها ... وخامس الخمس في الأنفال ذي العبر (٤)
وتوبة الله إن عدت فسادسة ... وسورة النور والأحزاب ذي الذكر (٥)
وسورة لنبي الله محكمة ... والفتح والحجرات الغر في غرر (٦)
ثم الحديد ويتلوها مجادلة ... والحشر ثم امتحان الله للبشر (٧)
وسورة فضح الله النفاق بها ... وسورة الجمع تذكارا لمذكر (٨)
وللطلاق وللتحريم حكمهما ... والنصر والفتح تنبيها على العمر (٩)
هذا الذي اتفقت فيه الرواة له ... وقد تعارضت الأخبار في أخر (١٠)

---

(١) اختلف في سورة الفاتحة: أهي مكية، أم مدنية، والجمهور على أنها مكية بدليل قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ (الحجر: ٨٧). وقد فسرها النبي ﷺ بالفاتحة، وهذه الآية مكية مع سورة الحجر المكية كلها. ومن البعيد أن يمتن الله على نبيه بإيتائه السبع المثاني قبل نزولها، فدل ذلك على أن الفاتحة نزلت قبل الحجر فهي مكية. وغير الجمهور يؤول الآية من سورة الحجر ويفسر «آتيناك» بحكمنا بإيتائك، أو التعبير بالماضي بدل المضارع لتحقق الوقوع.

(٢) ويستدل الجمهور على أنها مكية أيضا بأنه لم يحفظ أنه كان في الإسلام صلاة بغير الفاتحة ولا خلاف في أن فرض الصلاة كان بمكة، فالفاتحة نزلت بمكة لأن الصلوات الخمس لم تفرض قبل نزولها.

(٣) أي في عشر سنين والعدد على وجه التقريب والراجح.

(٤) الأربع الأوائل من السبع الطوال، وهي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والخامسة سورة الأنفال.

(٥) يقصد أن التوبة إن عدت سورة مستقلة عن سورة الأنفال فهي السادسة من العشرين المدني.

(٦) وسورة لنبي الله، أي سورة محمد ﷺ.

(٧) ثم امتحان الله للبشر، أي سورة الممتحنة.

(٨) يقصد سورة «المنافقون» وسورة «الجمعة».

(٩) النصر والفتح سورة واحدة هي ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر: ١)، لأنه سبق له عد سورة الفتح في ترتيبها.

(١٠) الحق أن الرواة لم تتفق كلها على ماذكر، فهناك خلاف في سورة «محمد» و«الحديد» و«الجمعة» ولكن ما ذكره هو أرجح الآراء.

فالرعد مختلف فيها متى نزلت ... وأكثر الناس قالوا: الرعد كالقمر[(١)]
ومثلها سورة الرحمن شاهدها ... مما تضمن قول الجن في الخبر[(٢)]
وسورة للحواريين قد علمت ... ثم التغابن والتطفيف ذو النذر[(٣)]
وليلة القدر قد خصت بملتنا ... «ولم يكن» بعدها الزلزال فاعتبر[(٤)]
وقل هو الله من أوصاف خالقنا ... وعوذتان ترد البأس بالقدر
وذا الذي اختلف فيه الرواة له ... وربما استثنيت آي من السور[(٥)]
وما سوى ذاك مكي تنزله ... فلا تكن من خلاف الناس في حصر
فليس كل خلاف جاء معتبرا ... إلا خلاف له حظ من النظر

الشبه الواردة على المكي والمدني

إن خصوم الإسلام يحرصون كل الحرص على التشكيك في القرآن، لأنه قوام الدين وأصله الذي يعتمد عليه. فإذا ما اهتز هذا الأساس ولو هزة خفيفة تمايلت الأغصان وارتجفت، وتداعت الثمار للسقوط. وأعداء الإسلام انتهازيون، يتلقفون قولة واهية من عالم، أو رواية ضعيفة من راو لينفثوا فيها سمومهم.

وأعداء الإسلام كالثعلب ماكرون مخادعون، يلبسون مسوح الانتصاف له، ويتشدقون بعظمته وسموه، حين تضطرهم الآيات أو التشريعات إلى الإذعان والتسليم، وحين تخرس الحجج ألسنتهم الهدامة، وتكتم أنفاسهم السامة، فينخدع القارئ بشهادة المستشرق، و ويظن أنه بعيد عن الأهواء، مستند إلى الحقيقة، معترف بها وإن كانت ضد عقيدته ونحلته. وفي غمار تخدر أعصاب القارئ، ينفذ

---

(١) أي أن الجمهور يرى أنها مكية كسورة القمر.

(٢) يرجح أن سورة الرحمن مكية بما جاء في الحديث عن جابر، قال: لما قرأ رسول الله ﷺ على أصحابه سورة الرحمن حتى فرغ قال: مالي أراكم سكوتا؟ للجن كانوا أحسن منكم ردا. ما قرأت عليهم من مرة ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن: ١٣، ... .إلخ) إلا قالوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد. ومن المعلوم أن قراءته ﷺ على الجن كانت بمكة.

(٣) يقصد بسورة الحواريين سورة الصف.

(٤) في هذا البيت ثلاث سور: سورة «القدر» وسورة «لم يكن» وسورة الزلزلة».

(٥) في القرآن سور كل آياتها مكي كسورة «اقرأ» وسورة «المدثر»، وسور كل آياتها مدني كسورتي البقرة وآل عمران. كما أن فيه المكي الذي بعضه مدني كسورة «الإسراء»، والمدني الذي بعضه مكي كسورة «الأنفال»؛ فهي مدنية إلا قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (الأنفال: ٣٠) على الصحيح.

المستشرق من بين المسام إلى الطعن والفتك بأصل الشريعة، مستخدما أسلوب التشكيك، وإثارة الشبهات، لتتزعزع عقيدة المسلم في دينه، فتضعف روح الإيمان وقوته في قلوب أهله، فيسهل إخضاعهم وإذلالهم.

وسنرى في كثير من مباحث علوم القرآن سيلا من الشبهات، بل من الأكاذيب والافتراءات، وسنعرض لبعضها بالدحض والتشريح، ونمسك عن البعض الآخر لظهور الفرية فيه، ووضوح بعده عن الصواب بمجرد النظر الصحيح.

الشبهة الأولى:

يقولون: إن الفاحص للمكي والمدني يجد القرآن منقسما إلى أسلوبين متغايرين تمام التغاير. فالأسلوب المكي مليء بالشدة والعنف، والقسوة والغضب، والوعيد والتهديد والسب والإقذاع، وبالنزول إلى أسلوب الأوساط البدائية المنحطة. ففيه مثلا: ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (التكاثر: ٣ ـ ٨). وفيه: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ (المسد: ١ ـ ٥). وفيه: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ (المدثر: ١١ ـ ١٧). وفيه: ﴿ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ (القلم: ١٠ ـ ١٦).

وهذا بخلاف القسم المدني، فهو متسم باللين، والموعظة الهادئة، وأسلوب الأوساط المتحضرة. ففيه: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ (آل عمران: ٦٤). وفيه: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ (البقرة: ٤٤). وفيه: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (البقرة: ٢٥٣). إلى غير ذلك من الآيات.

وغرضهم من هذه الشبهة الإيحاء بأن القرآن من أسلوب محمد المتأثر بالبيئة: غلظة في بيئة الغلظة، واستنارة ولينا في بيئة النور والمعرفة. وهذه الشبهة ساقطة من وجوه:

الأول: أن القسم المكي لم ينفرد بالعنف، ففي القسم المدني كثير من الشدة والوعيد كذلك. ففيه: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (البقرة: ٢٧٩). وفيه من التسفيه ما في المكي، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ (البقرة: ٢٧٥).

الثاني: أن القسم المدني لم ينفرد بالسماحة واللين؛ ففي المكي كثير من آيات إرخاء العنان، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ⑥﴾ (الكافرون: ١ ـ ٦). وفيه: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ (فصلت: ٣٨).

الثالث: إذا سلمنا غلبة أسلوب الشدة في المكي، وأسلوب اللين في المدني، فإن هذا الاختلاف غير راجع إلى محمد، وتأثره بالبيئة، وإنما مرجعه الحقيقي وأساسه الذي لا شك فيه، هو اختلاف حال المخاطبين؛ فأهل مكة غلاظ الطبع، قساة القلب، قليلو المعارف، جبلوا على الخشونة، وترعرعوا على الجفوة. وأهل المدينة أهل علوم ومعارف، ورقة وإحساس، وشعور ووجدان؛ فهل من الحكمة أن يتحد الأسلوب مع اختلاف حال المخاطبين؟! وهل من البلاغة عدم مراعاة مقتضى الحال؟ إن الحكيم الذي أنزل القرآن عليم بما يصلح لكل نوع من المخاطبين من أسلوب، وقديما قالوا:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلا   مضر كوضع السيف في موضع الندى

الشبهة الثانية:

قالوا: إن قصر الآيات والسور المكية، وطول الآيات والسور المدنية دليل على أن القرآن تأثر بالبيئة. فلما كان محمد أميا مبتدئا قصرت فقرات الكلام، وانحصرت حدود السور في نطاقها الضيق. ولما خرج إلى دائرة المعرفة اتسع الخيال، وانبسط الكلام وطال النفس.

وغرضهم من هذه الشبهة هو غرضهم في الشبهة السابقة، والجواب عنها كما سبق من وجوه:

الأول: أن القسم المكي لم ينفرد بقصار السور، ولا بقصر الآيات، بل في القسم المدني سور وآيات قصيرة، كقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (النصر: ١ ـ ٣). وهي من أخريات ما نزل من القرآن.

الثاني: أن القسم المدني لم ينفرد بطوال السور ولا بطول الآيات، ففي القسم المكي سور وآيات طوال كسورة الأنعام وآياتها.

الثالث: إذا سلمنا غلبة القصر على المكي والطول على المدني، فإن هذا الاختلاف إنما يرجع إلى حال المخاطبين وما يليق بهم من أساليب الخطاب. فأهل مكة كانوا في ذروة الفصاحة والبلاغة، فناسبهم الإيجاز في العبارة، والاختصار في الأسلوب. وأهل المدينة برغم معارفهم وعلومهم، وحضارتهم ورقيهم، لم يكونوا في درجة القرشيين في ميدان البيان.

الشبهة الثالثة:

قالوا: إن اختلاف الأسلوب إلى مكي ومدني قطع القرآن، وقسمه إلى قسمين متميزين، لا ترابط بينهما، مما يتنافى والوحدة والتناسق المفروض فيه. وهذه الفرية ناشئة عن ضعف الإدراك للخصائص البلاغية، وضعف التذوق البياني. وإذا ضعفت الحواس أخطأ الحكم على المحسوس. فالصفراوي الذي يجد الحلو مرا لا يلتفت إلى حكمه، ولا يؤثر قوله في طعم الحلو وحقيقته. وإننا نقرأ كتاب الله

ونسمعه ليلا ونهارا فنلاحظ آيات مكية منبثة بين آيات مدنية، وآيات مدنية انتشرت بين آيات مكية، ولا يلحظ بليغ وصل أعلى درجات البلاغة تفككا وانفصاما بينها، بل يحس المفسر روعة وجلالا في إحكام الترابط والاتساق.

الشبهة الرابعة:

قالوا: إن خلو القسم المكي من التشريع وشحن القسم المدني بالأحكام دليل على تأثر القرآن بعلوم أهل المدينة ومعارفهم، فلما كان محمد بمكة أميًّا بين أميين ضاق أفق التشريع، ولما صار بين المثقفين وأهل الكتاب بالمدينة كثرت الأحكام والفروع.

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

الأول: أن القسم المكي لم يخل من التشريعات التفصيلية. ففي سورة الأنعام المكية وصايا عشر من أهم أحكام الشريعة الإسلامية. يقول جل شأنه: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣).

الثاني: لا جدال في أن القسم المكي ركز على الأصول، واهتم بتصحيح العقيدة، وأن القسم المدني عني بالتشريعات الفرعية، وهي عملية طبيعية تساير ناموس الحياة؛ فليس من المعقول أن تظهر الأغصان والفروع في وقت واحد مع جذوع الشجر وجذوره، ولا أن تنعكس الآية فتوجد الثمار قبل الأشجار.

الثالث: أن زعمهم تأثر القرآن بثقافة أهل الكتاب بالمدينة فرية باطلة، إذ لو كان لها ظل من حقيقة، أو سهم من صواب، وكانت أحكامه مستمدة من أحكامهم

لسايرت أحكامه أحكامهم، أو لأثرت أحكامهم في أهل المدينة المقيمين معهم منذ زمن بعيد قبل قدوم محمد إليهم، أو لادعى النبوة وشرع الأحكام أحد أحبارهم ورهبانهم، الذين استخلصوها ودرسوها، وتوسعوا فيها. بل لو كان لهذه الفرية شائبة من الواقع، لعايره أهل الكتاب بالأخذ عنهم والسرقة منهم حين سفه أحلامهم، وخطأهم في معتقداتهم.

هذا: ولهم شبهات أخرى لا تستحق الرد لسقوطها قبل معارضتها، وانهيارها قبل تناولها، كقولهم: إن المكي يقسم بالأشياء المحسوسة، كالضحى والليل والتين والزيتون مما يدل على أسلوب متأثر بالبيئة. وقولهم: إن القسم المكي اشتمل على لغو من الكلام، حين يفتتح السور بالحروف المقطعة، مما لا يصدر عن الضليع في القول، القوي في الثقافة والفصاحة والبيان. وقولهم: إن القسم المكي، قليل الحجج والبراهين على الدعاوى التي أوردها بخلاف القسم المدني المملوء بالجدل والأدلة والبراهين.

وهكذا، سيل من الشبهات والتشكيكات مما لا يستغرب انهمارها حيث عرفنا هدفهم الخبيث. وكل ما علينا أن نتسلح بالعلم وبالإيمان لنبدد هذه الأوهام كما يبدد الصبح خيوط الظلام.

وما أجمل قول الشاعر:

أنا لا ألوم المستبد ... إذا تعنت أو تعدى
فسبيله أن يستبد ... وشأننا أن نستعد

أول ما نزل وآخر ما نزل

يحاول المشتغلون بالقرآن أن يحددوا أول ما نزل منه وآخر ما نزل. بل إنهم يحاولون أن يحددوا أول ما نزل وآخر ما نزل في كل حكم من الأحكام الشرعية. بل يحاولون ترتيب نزول القرآن وآياته للغاية نفسها التي عالجوا من أجلها موضوع المكي والمدني. وإذا كثر الخلاف بينهم في أول ما نزل وآخر ما نزل، فإنه يتسع أكثر وأكثر في أول ما نزل وآخر ما نزل في كل حكم من الأحكام، ويتشعب ولا ينضبط عند البحث في ترتيب نزول السور والآيات. وعذر الرواة المختلفين أن القوم كانوا

أميين، وكان بعضهم يحفظ ما لم يحفظ الآخر. ولانشغالهم بالجهاد ونشر الدعوة والسعي وراء الرزق، كانت السورة أو الآية تبلغ بعضهم قبل سابقتها فيرتب نزولها حسبما بلغه.

ولا يترتب على هذا الخلاف كبير ضرر في أمور الدين ومسائله؛ فإن آيات النسخ محدودة، والخلاف فيها محصور، والترجيح بينها ميسور كما سنرى في موضعه إن شاء الله. ومسايرة حكمة التشريع والتدرج بالأمة يفهم من مجموع الأمور ولا يؤثر فيه هذا الخلاف. ولهذا لن نشعب البحث، وإنما سنكتفي بذكر أرجح الآراء في أول ما نزل وآخر ما نزل، لتحصيل فكرة عامة عن الموضوع.

وأصح الآراء في هذا البحث، أن أول ما نزل من القرآن على الإطلاق هو صدر سورة «اقرأ» إلى قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٥). وإنما كان هذا أصح الآراء لما يؤيده من الأحاديث الصحيحة الكثيرة التي من أهمها الحديث:

«أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء. فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء؛ فجاء الملك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني. فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني. فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني. فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ١ ـ ٥).

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ فقال: زملوني. زملوني. فزملوه، حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة ـ وقد أخبرها الخبر ـ لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة. كلا. والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم

خديجة، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت له خديجة: «يا بن عم. اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا بن أخي. ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى؛ فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، ياليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك! فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجيّ هم؟ قال: نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا. ولم يلبث ورقة أن توفى وفتر الوحى». (رواه البخاري ومسلم).

القول الثاني: أن أول ما نزل: ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ (المدثر: ١). دليله ما رواه الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، قال: سألت جابر بن عبد الله: أي القرآن أنزل قبل؟ فقال: ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ (المدثر: ١). فقلت: نبئت أنه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ (العلق: ١). فقال أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ. قال رسول الله ﷺ: «إني جاورت بحراء فلما قضيت جواري، نزلت فاستبطنت الوادي، فنوديت. فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي، ثم نظرت إلى السماء فإذا هو ـ يعني جبريل ـ فأخذتني رجفة. فأتيت خديجة فأمرتهم فدثروني فأنزل الله: ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ (المدثر: ١، ٢)».

لكن هذه الرواية لا تصلح دليلا لهذا الرأي، بل مؤداها أن سورة المدثر أول ما نزل بعد أن فتر الوحي، كما هو الظاهر من رواية أخرى، وفيها: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال ـ وهو يحدث عن فترة الوحي ـ فقال في حديثه: بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت، فقلت: زملوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ (المدثر: ١ ـ ٢). فحمى الوحي.

قال الحافظ بن حجر: دل قوله «عن فترة الوحي»، وقوله «الملك الذي جاءني بحراء» على تأخر نزول سورة المدثر عن «اقرأ». ولما خلت الرواية الأخرى عن أبي

سلمة عن جابر عن هاتين الجملتين أشكل الأمر، فجزم من جزم بأن ﴿ يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ (المدثر: ١) أول ما نزل. لكن هذه الرواية ترفع الإشكال. وجمع بعضهم بين الرأيين بأن المدثر أول سورة نزلت كاملة، وصدر سورة «اقرأ» أول ما نزل من القرآن على الإطلاق.

القول الثالث: أن أول ما نزل سورة الفاتحة. دليله حديث مرسل رواه البيهقي لا يقوى على معارضة المتصل المرفوع المروي في الصحيحين.

وأصح الآراء في آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق، قوله تعالى:

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٨١). فقد روي أن النبي ﷺ عاش بعد نزولها تسع ليال ثم مات.

وقيل إن آخر ما نزل هو قوله تعالى:

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة: ٢٧٨).

وقيل: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

وجمع بين هذه الآراء الثلاثة، بأنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف لأنها في قصة واحدة، فأخبر كل عن بعض ما نزل بأنه آخر ما نزل، والكل صحيح.

وقيل: آخر ما نزل سورة: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (النصر: ١).

وقيل آية الكلالة: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ ﴾ (النساء: ١٧٦).

وقيل قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (التوبة: ١٢٨، ١٢٩). قال القاضي أبو بكر في الانتصار: هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي ﷺ، وكل قاله بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن. ويحتمل أن كلا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي ﷺ، وغيره سمع منه بعد ذلك وإن لم يسمعه هو.

وقال السيوطي في الإتقان: من المشكل على ما تقدم قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (المائدة: ٣). فإنها نزلت بعرفة عام حجة الوداع، وظاهرها إكمال جميع الفرائض والأحكام قبلها. وقد صرح بذلك جماعة، منهم السدى فقال: لم ينزل بعدها حلال ولا حرام، مع أنه ورد في آية الربا والدَّيْن والكلالة أنها نزلت بعد ذلك. وقد استشكل ذلك ابن جرير، وقال: الأولى أن يتأول على أنه أكمل لهم دينهم بإقرارهم بالبلد الحرام، وإجلاء المشركين عنه، حتى حجه المسلمون، لا يخالطهم المشركون فكان ذلك من تمام النعمة. وحاصل كلام السدي وابن جرير أن الآية ليست آخر ما نزل من القرآن، وهو التحقيق خلافا لما يتبادر إلى الذهن، وما جرى عليه بعض العلماء المحدثين. والله أعلم.

سور القرآن

السورة في اللغة تطلق على المنزلة، وعلى ما طال من البناء وحسن، وعلى الشرف، وعلى العلامة. والسورة من القرآن معروفة، وهي طائفة من الآيات القرآنية لها بدء ونهاية.

والكلام في العلاقة بين المعنى اللغوي والشرعي غني عن البيان. فسورة القرآن منزلة رفيعة، بالغة في الشرف كل غاية، تطاول في رفعتها أعلى بناء شامخ، وهي علامة على موضوع أو موضوعات، وعلامة فاصلة بين سابقتها ولاحقتها، وعلامة ناطقة على أنها من لدن حكيم خبير.

حكمة تسوير القرآن

حاول العلماء ـ ويحاولون ـ تلمس الحكم لتسوير القرآن، فقالوا:

(١) إن جعل القرآن سورا ييسر حفظه. فتجزئة العمل باعث على إنجازه، مبين للقدر الذي أنجز والقدر الذي بقي، باعث على المواصلة للإحاطة به واستكماله. وفي كونه سورا طويلة وقصيرة، وترتيبه الترتيب المعروف تيسير آخر لتعليم الأطفال والتدرج بهم من السور القصار إلى ما فوقها.

(٢) وإن جعل القرآن سورا يشوق قارئي القرآن ودارسيه إلى المواصلة، ويبعث فيهم الهمة والنشاط لاستيعابه.

(٣) وإن في جعل القرآن سورا رسوخا لموضوعات السور، ودلالة عن عناصر كل منها، وما تناولته من أحكام. فسورة يوسف تتكلم عن قصة يوسف، وسورة إبراهيم تتحدث عن قصة إبراهيم، وسورة المطففين تتناول تطفيف الكيل والميزان، إلخ.

(٤) وإن جعل القرآن سورا طوالا وقصارا يشير إلى أن الطول ليس شرطا في التحدي والإعجاز، فالسورة معجزة برأسها، وإن بلغت في القصر ثلاث آيات.

(٥) وقال الزمخشري في فوائد تجزئة القرآن: إن الجنس إذا انطوت تحته أنواع وأصناف، كان أحسن وأفخم من أن يكون بابا واحدا.

وعلى هذا النمط، ألف المؤلفون كتبهم، وبوبوا مصنفاتهم أبوابا، صدروا كل باب بعنوان خاص.

(٦) وإن التفصيل لتلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض يساعد على ملاحظة المعاني، وأسرار النظم الكريم.

تسوير الكتب السماوية

ذهب الزركشي إلى أن التسوير خاص بالقرآن من بين الكتب السماوية، فقال في البرهان: فإن قلت: فهلا كانت الكتب السالفة كذلك؟ قلت: لوجهين:

أحدهما: أنها لم تكن معجزات من جهة النظم والترتيب.

والآخر: أنها لم تيسر للحفظ.

وذهب الزمخشري إلى أن الكتب السماوية الأخرى نزلت مسورة كالقرآن، فقال في الكشاف: الفوائد في تفصيل القرآن وتقطيعه سورا كثيرة، وكذلك أنزل الله التوراة والإنجيل والزبور وما أوحاه إلى أنبيائه مسورة. . . إلخ.

قال السيوطي: وما ذكره الزمخشري من تسوير سائر الكتب هو الصحيح أو الصواب، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: كنا نتحدث أن الزبور مائة وخمسون سورة، كلها مواعظ وثناء، ليس فيه حلال ولا حرام، ولا فرائض ولا حدود.

وذكروا أن في الإنجيل سورة تسمى «سورة الأمثال».

أسماء سور القرآن

اختلف العلماء في أسماء سور القرآن: هل كانت بتوقيف من النبي ﷺ ؟ أو كانت باجتهاد مأخوذ من موضوع السورة؟

فذهب السيوطي إلى أن كل سورة سميت باسم بتوقيف من النبي ﷺ ، وقال: وقد ثبتت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار، ولولا خشية الإطالة لبينت ذلك. واستدل بما أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: كان المشركون يقولون: سورة البقرة، وسورة العنكبوت، يستهزئون بها، فنزل: ﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾ (الحجر: ٩٥).

والتحقيق أنه لم يثبت أن جميع الأسامي عن رسول الله ﷺ ، وإنما الثابت بعض الأسامي عنه ﷺ ، وبعضها عن الصحابة أو التابعين ﷺ .

فقد يكون للسورة الواحدة أسماء كثيرة، أوصلها السيوطي إلى نيف وعشرين اسما لسورة الفاتحة؛ ولم تثبت أحاديث لكل هذه التسميات. وقد يكون للسورة اسم واحد، وهو الكثير.

والذي ينبغي التزامه هو المحافظة على الاسم الوارد، وعدم تغييره، فإن في فتح باب جواز التسمية إهدارا لكيان السورة، وما اشتهرت به، وتعمية للجلي الواضح، ووضعه في ثوب من الجهل والخفاء، مما لا يليق وعظمة سور القرآن.

عدد سور القرآن وأقسامها

سور القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة، بإجماع من يعتد بإجماعه. وقيل: مائة وثلاث عشرة سورة بجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة، بشبهة عدم البسملة بينهما؛ لكن هذا الرأي مردود بما ثبت من أن النبي ﷺ سمى كل واحدة منهما.

وقد قسم العلماء سور القرآن إلى أربعة أقسام: الطوال ــ المئين ــ المثاني ــ المفصل.

فالطوال سبع: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف. فهذه ستة، واختلفوا في السابعة أهي الأنفال وبراءة معا، على أنهما سورة واحدة؟ أم هي سورة يونس؟

والمثون: هي السور التي تزيد آياتها على مائة آية أو تقاربها[1].

والمثاني: هي السور التي تلي المثين وتزيد على المفصل، فهي للمثين ثوان، والمثون لها أوائل.

والمفصل: هو أواخر القرآن وأوله «ق» أو الحجرات أو القتال، أو الجاثية، أو الصافات أو الصف إلى غير ذلك من الخلاف الذي بلغ اثني عشر قولا.

وقسموا المفصل إلى ثلاثة أقسام: طوال المفصل من أول «ق» إلى سورة البروج، وقيل إلى «عم». وأوساط المفصل إلى سورة «لم يكن» وقيل إلى «الضحى». وقصار المفصل إلى آخر القرآن.

ترتيب سور القرآن

للعلماء في كون ترتيب سور القران توقيفيا أو غير توقيفي، ثلاثة أقوال:

الأول: أن ترتيب جميع السور على ما هو عليه الآن، لم يكن بتوقيف من النبي ﷺ، وإنما كان باجتهاد من الصحابة. وينسب هذا القول إلى الإمام مالك، وجمهور العلماء. واستدلوا لهذا الرأي بالأدلة الآتية:

(١) أن مصاحف الصحابة كانت مختلفة في ترتيب سورها، ولو كان الترتيب توقيفيا، ما ساغ لهم أن يرتبوا على غير الوارد.

فمصحف ابن مسعود كان مبدوءا بالبقرة ثم النساء ثم آل عمران، وهكذا على اختلاف واسع بينه وبين الترتيب الذي في المصحف اليوم.

ومصحف أبي بن كعب كان مبدوءا بالفاتحة ثم البقرة ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام... إلخ، مع خلاف كبير.

ومصحف علي ـ كرم الله وجهه ـ كان مرتبا على حسب النزول، فأوله سورة «اقرأ» ثم «المدثر»، ثم «ن والقلم» ثم «المزمل»، ثم «تبت» ثم «التكوير»، وهكذا إلى آخر السور المكية، ثم السور المدنية.

---

(١) وهي براءة والنحل وهود ويوسف والكهف وبني إسرائيل والأنبياء وطه والمؤمنون والشعراء والصافات.

(٢) أخرج ابن أشتة في المصاحف عن أبي محمد القرشي، قال: أمرهم عثمان أن يتابعوا الطوال، فجعلت سورة الأنفال وسورة التوبة في السبع، ولم يفصل بينهما «بسم الله الرحمن الرحيم».

(٣) روى أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس، قال: قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال، وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر «بسم الله الرحمن الرحيم» ووضعتموهما في السبع الطوال؟

فقال عثمان ﷺ كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا أنزل عليه شيء دعا بعض من يكتب، فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها، فقبض رسول الله ﷺ، ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب سطر «بسم الله الرحمن الرحيم» ووضعتهما في السبع الطوال.

فهذا الحديث يدل على اجتهاد الصحابة في ترتيب سور القرآن.

(٤) ثبت في الحديث أن النبي ﷺ قرأ سورا ولاء على غير ترتيبها التي هي عليه الآن، فقرأ سورة النساء قبل سورة آل عمران.

ويعبر عن هذا الرأي ابن فارس في كتابه المسائل الخمس، فيقول:

جمع القرآن على ضربين. أحدهما تأليف، كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين، فهذا الذي تولته الصحابة ﷺ. وأما الجمع الآخر، وهو جمع الآيات في السور، فذلك شيء تولاه النبي ﷺ كما أخبر به جبريل عن أمر ربه عز وجل أ. هـ.

القول الثاني: أن ترتيب جميع السور كان بتوقيف من النبي ﷺ كترتيب الآيات. ويعبر عن هذا الرأي الكرماني في البرهان، فيقول: ترتيب السور هكذا

هو عند الله في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب. وعليه كان ﷺ يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه وعرضه عليه في السنة التي توفى فيها مرتين. أ. هـ.

ويقول الطيبي: أنزل القرآن أولا جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقا على حسب المصالح، ثم أثبت في المصاحف على التأليف والنظم المثبت في اللوح المحفوظ. أ. هـ.

ويقول أبو بكر الأنباري: أنزل الله القرآن إلى سماء الدنيا، ثم فرقه في بضع وعشرين سنة، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث، والآية جوابا لمستخبر، ويقف جبريل النبي ﷺ على موضع السورة والآيات والحروف. فالترتيب كله من النبي ﷺ، فمن قدم سورة أو أخرها أفسد نظم القرآن. أ. هـ.

واستدلوا لهذا الرأي بالأدلة الآتية:

(١) روى ابن أبي شيبة في مصنفه عن سعيد بن خالد: قرأ رسول الله ﷺ بالسبع الطوال في ركعة. وفيه أنه ﷺ كان يجمع المفصل في ركعة.

(٢) روى أحمد وأبو داود عن حذيفة الثقفي، قال: كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف... فقال لنا رسول الله ﷺ: طرأ على حزب من القرآن فأردت ألا أخرج حتى أقضيه، فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ، قلنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة وثلاث عشرة، وحزب المفصل من «ق» حتى نختم.

فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو عليه في المصحف الآن كان على عهد رسول الله ﷺ.

(٣) أخرج ابن أشتة في كتاب المصاحف عن سليمان بن بلال، قال: سمعت ربيعة يسأل: لم قدمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة، وإنما أنزلتا بالمدينة؟ فقال: قدمتا وألف القرآن على علم ممن ألفه ومن كان معه فيه، واجتماعهم على علمهم بذلك فهذا مما ينتهى إليه، ولا يسأل عنه.

(٤) أن الصحابة أجمعوا على المصحف الذي كتب في عهد عثمان، ولم يخالف منهم أحد، فلو كان هذا الإجماع عن اجتهاد، لتمسك أصحاب المصاحف المخالفة بترتيب مصاحفهم.

(٥) لو كان ترتيب السور عن اجتهاد، لظهرت العلة التي بني عليها. فمن الواضح أنه لم يرتب على حسب النزول الزمني، ولا على الطول والقصر، فسور طوال بين قصار وبالعكس، ولا على المكي والمدني، فسور مكية بين سور مدنية وبالعكس، ولا على تجانس الموضوعات وقربها، فبين سور القصة الواحدة سور أخرى، ولا على حسب الفواتح؛ فلم تذكر المسبحات ولاء، مع أن الحواميم رتبت ولاء، كذلك اختل ترتيب الطواسين حيث فصل بين طسم الشعراء، وطسم القصص بطس.

وحيث لم تظهر علة لهذا الترتيب مع الإجماع عليه، كان بتوقيف وتسليم وإذعان لصاحب القرآن.

وقد حاول الزركشي أن يجعل الخلاف بين هذين القولين لفظيا، فقال في البرهان: والخلاف بين الفريقين لفظي، لأن القائل بالثاني يقول: إنه رمز إليهم ذلك لعلمهم بأسباب نزوله، ومواقع كلماته، ولهذا قال مالك: إنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبي ﷺ، مع قوله بأن ترتيب السور باجتهاد منهم، فآل الخلاف إلى أنه هل هو بتوقيف قولي؟ أو بمجرد إسناد فعلي بحيث يبقى لهم فيه مجال للنظر؟ أ. هـ.

والمدقق في أدلة الفريقين يستبعد وجهة نظر الزركشي ويحكم بحقيقة الاختلاف.

القول الثالث: أن سور القرآن ترتيبها توقيفي إلا قليلا منها، فترتيبه عن اجتهاد من الصحابة. واختلف أصحاب هذا القول في مقدار هذا القليل وتحديده. فابن عطية يرى أن كثيرا من السور كان قد علم ترتيبها في حياته ﷺ، كالسبع الطوال، والحواميم، والمفصل، وأن ما سوى ذلك يمكن أن يكون قد فُوِّض الأمر فيه إلى الأمة بعده.

وأبو جعفر بن الزبير يرى أن الآثار تشهد بأكثر مما نص عليه ابن عطية. والبيهقي في المدخل، يرى أن القرآن كان مرتبا على عهد النبي ﷺ سوره وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة.

وأدلة هذا القول عبارة عن الأخذ بأدلة الفريقين السابقين والجمع بينها.

مناقشة أدلة القولين الأولين

إن استدلال أصحاب القول الأول باختلاف مصاحف الصحابة في ترتيبها يمكن أن يرد بأن الصحابة إنما رتبوا ترتيبهم قبل علمهم بالتوقيف، فلما علموا سلموا واعتمدوا الترتيب المجمع عليه، وحرقوا مصاحفهم.

وأما استدلالهم الثاني والثالث: فيمكن حصر عدم التوقيف في السورتين الواردتين في الدليلين (الأنفال والتوبة) ولا يصلح دليلا لسحب حكم التوقيف على جميع سور القرآن.

وأما الاستدلال الرابع فإنه في القراءة والتلاوة، وهي غير موطن النزاع، إذ لا خلاف في جواز قراءة السور على غير ترتيبها، وإن كان الأولى قراءتها مرتبة. ومحل النزاع هو اعتقاد موافقة ترتيب القرآن في المصاحف لترتيبه في اللوح، وفي أن هذا الترتيب بتعليم النبي ﷺ أو باجتهاد من الصحابة.

وأما استدلال أصحاب القول الثاني بالحديث الأول والثاني والثالث فإن غاية ما فيها الدلالة على أن بعض السور أو أكثرها رتب بتوقيف من النبي ﷺ، لكنه لا دلالة فيها على أن جميع السور بتوقيف.

وأما دليلهم الرابع، فيمكن أن يكون رجوع الصحابة عن ترتيبهم إلى ترتيب عثمان، بدافع قطع دابر النزاع، والحفاظ على وحدة الأمة، لا عن اعتقاد خطإ ما كانوا عليه.

وأما دليلهم الخامس، فهو مقبول في غير السور التي ورد فيها النص بالاجتهاد وورد فيها بأن علة الترتيب كما في حديث سؤال ابن عباس لعثمان ﵄.

وعلى هذا: فالقول الثالث أمثل الأقوال، وهو السليم من الاعتراض

والمناقشة، وأمثل ما فيه رأي البيهقي. ولذا قال السيوطي في نهاية المطاف: والذي ينشرح له الصدر ما ذهب إليه البيهقي، وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفي إلا براءة والأنفال.

تنبيه:

سواء كان ترتيب السور توقيفيا أم اجتهاديا فإنه ينبغي احترامه، خصوصا في كتابة المصاحف، لأن أقل الأمرين رعاية صدوره عن الإجماع، والإجماع حجة واجبة القبول. والله أعلم.

آيات القرآن

الآية في اللغة تطلق على المعجزة، وعلى العلامة، وعلى العبرة، وعلى البرهان والدليل. والآية من القرآن معروفة، وهي طائفة من القرآن ذات بدء ومقطع مندرجة في سورة.

والعلاقة بين المعنى اللغوي والشرعي واضحة، لأن آية القرآن معجزة، ولو باعتبار انضمام غيرها إليها، وهي علامة على صدق الرسول ﷺ وفيها عبرة وعظة، وفيها البرهان والدليل، على ما تضمنت من هداية وإرشاد.

وطريق معرفة الآية القرآنية، بدئها ونهايتها، هو تعليم النبي ﷺ وإرشاده، ولا مجال للرأي والاجتهاد. هذا هو القول المعتمد. وقد اختلفت الآيات طولا وقصرا، فأطولها آية المداينة، وأقصرها ما حكاه أبو عمرو الداني حيث قال: لا أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله تعالى: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ (الرحمن: ٦٤).

عدد الآيات

قال الداني: أجمعوا على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف آية ومائتا آية، ثم اختلفوا فيما زاد على ذلك؛ فمنهم من لم يزد، ومنهم من قال: وأربع آيات، ومنهم من قال: وأربع عشرة، ومنهم من قال: وتسع عشرة، ومنهم من قال: وخمس وعشرون، ومنهم من قال: وست وثلاثون أ. هـ.

وسبب اختلاف السلف في عدد الآيات أن النبي ﷺ كان يقف على رءوس الآي للتوقيف. فإذا علم محلها وصل للتمام، فيحسب السامع حينئذ أنها ليست فاصلة.

قال الموصلي: ثم إن سور القرآن ـ من حيث عدد آياتها ـ على ثلاثة أقسام: قسم لم يختلف فيه لا في إجمالي ولا في تفصيلي (أي لم يختلف في عدد آيات السورة إجمالا ولم يختلف في بدء كل آية منها ونهايتها). وقسم اختلف فيه تفصيلا لا إجمالا. وقسم اختلف فيه إجمالا وتفصيلا.

ثم أخذ يعدد كل قسم، ويبين مواطن الاختلاف مما يضيق به المقام. ويكفينا هنا أن نأخذ سورة الفاتحة كصورة من الخلاف تنير لنا السبيل:

فالجمهور يعدها سبع آيات، ثم يختلف فيما بينه؛ فالكوفي والمكي يعد البسملة آية، ولا يعد ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (الفاتحة: ٧). وبقية الجمهور من غير الكوفي والمكي يعكس، فلا يعد البسملة آية، ويعد ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية. والحسن يعدها ثماني آيات، ويعد كلا منهما آية. وبعضهم يعدها ست آيات فلم يعدهما. وآخر يعدها تسع آيات، فعدهما وعد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ (الفاتحة: ٥).

فوائد معرفة الآي

قال السيوطي: يترتب على معرفة الآي وعدها وفواصلها أحكام فقهية، منها:

(١) اعتبارها فيمن جهل الفاتحة، فإنه يجب عليه بدلها سبع آيات.

(٢) واعتبارها في خطبة الجمعة، فإنه يجب فيها قراءة آية كاملة، ولا يكفي شطرها.

(٣) واعتبارها في السورة التي تقرأ في الصلاة.

وقال الهذلي في كامله: اعلم أن قوما جهلوا العدد وما فيه من الفوائد، حتى قال الزعفراني: العدد ليس بعلم، وإنما اشتغل به بعضهم ليروج به سوقه. قال: وليس كذلك، ففيه من الفوائد معرفة الوقت.. إلخ. والإعجاز لا يقع بدون آية، فللعدد فائدة عظيمة.

ترتيب آيات القرآن في سورها

قال السيوطي: الإجماع، والنصوص المترادفة، على أن ترتيب الآيات توقيفي، لا شبهة في ذلك.

أما الإجماع، فنقله غير واحد، منهم الزركشي في البرهان، وأبو جعفر بن الزبير في مناسباته، وعبارته: ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره، من غير خلاف في هذا بين المسلمين.

وأما النصوص المترادفة، فمنها ما أخرجه أحمد بإسناد حسن عن عثمان بن أبي العاص، قال: كنت جالسا عند رسول الله ﷺ إذ شخَص ببصره ثم صوبه، ثم قال: أتاني جبريل، فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى...﴾ (النحل: ٩٠) إلى آخرها.

ومنها ما أخرجه البخاري عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ (البقرة: ٢٣٤). قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها؟ قال: يا بن أخي. لا أغير شيئا منه من مكانه».

ومن النصوص الدالة على ذلك إجمالا ما ثبت من قراءته ﷺ لسور كثيرة كسورة البقرة وآل عمران في الصلاة وغيرها بمسمع من الصحابة. وما كان الصحابة ليرتبوا ترتيبا سمعوا النبي يقرأ على خلافه فبلغ ذلك مبلغ التواتر.

قال القاضي أبو بكر في الانتصار: الذي نذهب إليه أن جميع القرآن الذي أنزله الله، وأمر بإثبات رسمه، ولم ينسخه ولا رفع تلاوته بعد نزوله، هو الذي بين الدفتين، الذي حواه مصحف عثمان، وأنه لم ينقص منه شيء، ولا زيد فيه، وأن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالى، ورتبه عليه رسوله من آي السور لم يقدم من ذلك مؤخر، ولا أخر منه مقدم، وأن الأمة ضبطت عن النبي ﷺ ترتيب آي كل سورة ومواضعها، وعرفت مواقعها، أ. هـ والله أعلم.

جمع القرآن وكتابته

«جمع القرآن» كلمة قد يراد بها جمعه في الصدور وحفظه واستظهاره؛ فعطف الكتابة عليه عطف مغاير. وقد يراد بها جمعه في الصحف وكتابته وضم بعضه إلى بعض في سطور؛ فعطف الكتابة عليه عطف تفسير. والأول مقصودنا في هذا البحث.

وضبطا لشوارد الموضوع، وحصرا لنقاطه، وتحديدا لعناصره، نعرض لحفظ القرآن وكتابته في ثلاثة عصور، كل عصر على حدة:

عصر النبي ﷺ - وعصر أبي بكر رضي الله عنه - وعصر عثمان رضي الله عنه.

في عهد الرسول ﷺ

بعث رسول الله ﷺ أميًّا في قوم أميين، وكانت معجزته عقلية غير حسية، وهي القرآن، فلم يكن بد من اعتمادها أولا وبالذات على الذاكرة والحفظ؛ لذلك حرص الرسول ﷺ على ارتشافه أولا فأول من جبريل، بل حرص على أن يتعجل أخذه منه مخافة أن يتفلت منه شيء حتى طمأنه رب العزة وضمن له جمعه له في صدره، حيث قال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة: ١٦ - ١٩).

ولم يكن الوحي ينفصم عن النبي ﷺ حتى يسارع إلى صحابته، يقرأ عليهم ما أنزل، ويبلغهم ما أوحي إليه، ثم يتدارسه معهم في مجالسهم، ويتلو معهم ما سبق نزوله من القرآن.

وكان العالمون بالكتابة من المسلمين أوائل نزول القرآن قلة منهم، فاتخذ ﷺ منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح كاتبا للوحي. فلما ارتد ابن أبي سرح عن

الإسلام، كان رسول الله ﷺ يسند كتابة الوحي إلى من يتيسر له من الكاتبين، يكتبون على سعف النخيل وعلى صفائح الحجارة وعلى الخرق وعلى الجلود، ثم يتركون ما يكتبون في بيته ﷺ، وكلما نزل عليه شيء دعا بعض من يكتب عنده فيقول: ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا.

وفي المدينة بعد الهجرة وقد نشطت الكتابة وانتشرت بين المسلمين، اتخذ الرسول ﷺ كتابا للوحي على رأسهم زيد بن ثابت الذي أسلم بعد الهجرة. وأول من كتب له ﷺ بالمدينة أبي بن كعب. وممن كتب له في الجملة الخلفاء الأربعة، والزبير بن العوام، وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص بن أمية، وحنظلة بن الربيع الأسدي، وعبد الله بن الأرقم، وعبد الله بن رواحة في آخرين.

وكان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يتسابقون إلى الأخذ عن النبي ﷺ ما ينزل فور نزوله. ومن بعدت دياره أو شغله عمله، تناوب مع غيره إلى مسجد النبي ﷺ؛ كما فعل عمر بن الخطاب وجار له من الأنصار. ومن تعذر عليه اللقاء حرص على الأخذ ممن لقي. وهكذا كان القرآن الكريم شغلهم الشاغل؛ بل كانوا يتنافسون ويتسابقون في حفظه، حتى أصبح مقياس الرجال بمقدار ما يحفظون منه، وحتى جعلوه مهرا للزواج يؤديه الزوج بتحفيظ الزوجة سورة من القرآن.

وكان يسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن، حتى أمرهم رسول الله ﷺ بخفض أصواتهم لئلا يتغالطوا.

وكانوا يقومون به الليل، ويحسنون به أصواتهم في الأسحار؛ فكانت بيوتهم تدوي به بالليل والنهار كخلية النحل؛ مما أزعج الكافرين، وسلب النوم من جفونهم، وجذب أبناءهم ونساءهم إلى الإيمان.

وتحدثنا السير أن أبا بكر رضي الله عنه بنى بفناء داره مسجدا يقرأ فيه القرآن. وكان رجلا ذا عاطفة ووجدان، وكان لقراءته تأثير عجيب؛ فكان إذا قرأ القرآن تجمع نساء الجيران على أسطح منازلهم يتسمعن قراءته، وأبو بكر رقيق القلب يبكي في قراءته فيبكي من يسمعه من الرجال والنساء والصبيان.

وأخرج النسائي بسند صحيح عن عبد الله بن عمر أنه قال جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة؛ فبلغ النبي ﷺ فقال: اقرأه في شهر.

نعم، كان الصحابة يرون أن القرآن ذخيرتهم وميراثهم وسلاحهم وكل شيء في حياتهم الدنيوية والأخروية؛ فأعطوه وقتهم دون بخل، وجهدهم دون شح، ولم ينقض عهده ﷺ إلا والقرآن كله مكتوب عنده ﷺ، ومكتوب عند كثرة من أصحابه، ومحفوظ في صدور عدد لا يحصى من أتباعه؛ لدرجة أن الذين استشهدوا في غزوة بئر معونة وحدها كانوا سبعين رجلا كلهم قراء.

واشتهر بحفظ القرآن من الصحابة المهاجرين: الخلفاء الأربعة وطلحة وسعد وابن مسعود وحذيفة وسالم وأبو هريرة وعبد الله بن السائب والعبادلة وتميم بن أوس الداري وعقبة بن عامر. ومن النساء: عائشة وحفصة وأم سلمة. ومن الأنصار: عبادة بن الصامت ومعاذ ومجمع بن حارثة وفضالة بن عبيد ومسلمة بن مخلد وغيرهم.

ومن هذا العرض السريع يتبين لنا أن الرسول ﷺ توفى والقرآن متواتر الحفظ في الصدور والكتابة في الألواح والخرق والعظام؛ غير أن هذه الألواح كانت متناثرة غير مضمومة ولا مرتبة السور ولا مرتبة الآيات؛ وإن كان الرسول ﷺ قد أرشدهم في القراءة إلى موضع كل آية حسب توقيف جبريل عليه السلام.

وكانت كتابة القرآن في هذا العهد مشتملة على الأحرف السبعة التي أنزل عليها القرآن، كما كان فيها منسوخ التلاوة.

شبهة:

ويحاول الملاحدة أن يشككوا في هذا التواتر، فتلقفوا حديثا رواه البخاري: عن قتادة، قال: سألت أنس بن مالك رضي الله عنه: من جمع القرآن على عهد النبي ﷺ؟ قال: أربعة، كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد.

تلقف الملاحدة هذا الحديث، وادعوا أن القرآن غير متواتر ولا يعتمد على ما بين

دفتي المصحف على أنه القرآن. وقد نقل الحافظ بن حجر عن القاضي أبي بكر الباقلاني ثمانية أجوبة عن هذا الحديث، فقال:

(١) لا مفهوم لهذا الحديث، فلا يلزم ألا يكون غيرهم جمعه.

(٢) المراد لم يجمعه على جميع الوجوه والقراءات التي نزل بها إلا أولئك.

(٣) لم يجمع ما نسخ منه بعد التلاوة وما لم ينسخ إلا أولئك.

(٤) أن المراد بجمعه تلقيه من فم النبي ﷺ لا بواسطة، بخلاف غيرهم، فيحتمل أن يكون تلقى بعضه بالواسطة.

(٥) أنهم تصدوا لإلقائه وتعليمه، واشتهروا به، وخفي حال غيرهم، فحصر ذلك فيهم بحسب علمه، وليس الأمر في نفس الأمر كذلك.

(٦) المراد بالجمع الكتابة، فلا ينفي أن يكون غيرهم جمعه حفظا عن ظهر قلب. وأما هؤلاء فجمعوه كتابة وحفظا.

(٧) المراد أن أحدا لم يفصح بأنه جمعه بمعنى أكمل حفظه في عهد الرسول ﷺ إلا أولئك، بخلاف غيرهم فلم يفصح بذلك، لأن أحدا منهم لم يكمله إلا عند وفاة النبي ﷺ حين أنزلت آخر آية منه. فلعل هذه الآية الأخيرة ما حضرها إلا أولئك الأربعة ممن جمع جميع القرآن.

(٨) أن المراد بالجمع السمع والطاعة والعمل بموجبه.

ثم قال الحافظ بن حجر: وفي غالب هذه الاحتمالات تكلف، ولا سيما الأخير، ثم قال: وهناك احتمال آخر، وهو أن المراد إثبات ذلك للخزرج دون الأوس فقط، فلا ينفي ذلك عن غير القبيلتين من المهاجرين، إذ أصل الحديث في رواية الطبري: افتخر الحيان: الأوس والخزرج، فقال الأوس: منا أربعة: من اهتز له العرش سعد بن معاذ، ومن عدلت شهادته شهادة رجلين خزيمة بن ثابت، ومن غسلته الملائكة حنظلة بن أبي عامر، ومن حمته الدبر عاصم بن ثابت. فقال الخزرج: منا أربعة جمعوا القرآن لم يجمعه غيرهم (أي من الأوس) فذكرهم أ. هـ.

ويقول بعض العلماء : إن حكم أنس قاصر على علمه ، وليس حجة على الواقع لأنه يحتاج للحكم على الواقع أن يسأل الصحابة جميعا ويستقرئهم استقراء كاملا : هل جمعوا القرآن أو لا؟ وهذا لم يحصل .

وهذه الأجوبة والتخاريج لحديث أنس ضرورية ، لأنه يعارض الثابت الذي لا شك فيه . ولذا يقول الحافظ بن حجر : والذي يظهر من كثير من الأحاديث أن أبا بكر كان يحفظ القرآن في حياة النبي ﷺ ، وقد صحح مسلم حديث «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله» ، وقد أمر الرسول ﷺ أبا بكر أن يؤم الناس في مكانه .

وقد سبق لنا ذكر كثير من الصحابة اشتهروا بحفظ القرآن ، وأنه استشهد في بئر معونة وحدها سبعون من القراء .

وعلى فرض التسليم الجدلي بحديث أنس وعدم تخريجه وتأويله ، فإنه لا يمنع أن يكون القرآن متواترا . إذ ليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميع القرآن ، بل إذا حفظ الكل ولو على التوزيع ، وكان كل جزء منه قد حفظه جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب حقق التواتر للكل ، وانهارت شبهة الملحدين .

دواعي كتابة القرآن في عهد أبي بكر

ادعى النبوة مسيلمة الكذاب ، وتبعه قومه ، وقوى أمره بعد موت النبي ﷺ ، فجهز إليه أبو بكر الصديق خالد بن الوليد في جمع كثير من الصحابة ، فحاربوه أشد محاربة إلى أن خذله الله وقتله . وقتل في غضون ذلك من الصحابة جماعة كثيرة ، قيل سبعمائة ، وقيل أكثر ، وفيهم نحو سبعين من القراء الذين مهروا في القرآن وحفظه ، وتصدوا لتعليمه ، وعلى رأسهم سالم مولى أبي حذيفة أحد الأربعة الذين أمر النبي ﷺ بأخذ القرآن عنهم في قوله : «خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ ، وأبي بن كعب» .

وفزع عمر لمقتل سالم وأصحابه ، وخشي أن يذهب القرآن ، وصادف أن سأل عمر عن آية من كتاب الله ، فقيل له : كانت مع فلان فقتل يوم اليمامة ، فقال : إنا لله . وأسرع إلى أبي بكر يقول له : إن القتل قد استحر (أي اشتد) يوم اليمامة بقراء

القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن نأمر بجمع القرآن.

واستشعر أبو بكر أن هذا الأمر بدعة وهو يؤثر الاتباع، وينفر من الابتداع، فقال لعمر: كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير. فلم يزل عمر يراجع أبا بكر، حتى شرح الله صدره، ورأى ما رآه عمر فعزم على تنفيذه.

وتحليلا لمراجعة عمر لأبي بكر، نجد أن أبا بكر كان يعتقد أن رسول الله ﷺ لو أنه أراد أن يجمع القرآن في صحف أو مصحف لفعل، ولكنه ترك هذا الأمر ليعتمد المسلمون على حفظه في صدورهم، ولا يتكلوا على النسخ والقراءة من الصحف كأهل الكتاب، ولذلك ترك ما كتب غير مجموع وغير مرتب. وأحب أبوبكر ألا يفعل شيئا لم يفعله الرسول ﷺ، فكره أن يحل نفسه محل من يزيد احتياطه للدين على احتياط الرسول.

أما عمر، فكان يرى أن الرسول ﷺ لم يفعل ذلك لعدم وجود الحاجة والدوافع حينئذ. فالمسلمون في عهده في قوة وازدياد، والقراء والحفظة كثيرون، ويكثرون يوما بعد يوم، والفتنة مأمونة لوجود الأصل والمنبع معهم، وأدوات الكتابة عسيرة وصعبة. فلما وجدت الدوافع والحاجة، وارتفعت الموانع في عهد أبي بكر، كان خيرا للإسلام والقرآن والمسلمين ما يراه عمر رضي الله عنه.

جمع القرآن: القائمون به - طريقته - خصائصه:

ولما اقتنع أبو بكر وعزم على التنفيذ، قال له عمر: أما إذا عزمت على هذا، فأرسل إلى زيد بن ثابت فادعه. فإنه كان شابا حدثا نقيا يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فأرسل إليه فادعه يجمعه معنا.

قال زيد بن ثابت: فأرسلا إليّ، فأتيتهما، فقال لي أبو بكر: إنك شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي، وإن هذا دعاني إلى أمر، فإن تك معه تبعتكما، وإن توافقني لا أفعل. فقال عمر: إنا نريد أن نجمع القرآن في شيء فاجمعه معنا.

فنفر زيد، فقال أبو بكر لعمر: كلمه، وما عليكما لو فعلتما. فكلمه فأقنعه، واتفقوا على العمل.

يقول زيد: فوالله لو كانوا كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمراني به من جمع القرآن.

ووكلت مهمة جمع القرآن لزيد وعمر ﵄، ورسم لهما أبو بكر خطة العمل، خطة دقيقة محكمة، تضمن لكتاب الله قدسيته وسلامته من التغيير والتبديل.

قال لهما:

(١) لا تعتمدا على حفظكما ولا على كتابتكما في جمع القرآن، وخذاه من المسلمين، فأنتما قاضيان والقاضي لا يحكم بناء على علمه.

(٢) ولا تقبلا شيئا من مجرد الحفظ، بل من المكتوب الموافق للمحفوظ.

(٣) بل لا تقبلا من أحد شيئا حتى يشهد شاهدان على أن ذلك المكتوب هو مما كتب بين يدي رسول الله ﷺ.

ثم قال لهما: اقعدا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه.

فقام عمر في الناس فقال: من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئا من القرآن فليأت به.

وتوالت عليهما العسب (جمع عسيب، وهو جريد النخل كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض). واللخاف (وهو الحجارة الرقيقة أو صفائح الحجارة الرقيقة أو الخزف)، والأكتاف (جمع كتف وهو العظم الذي للبعير أو الشاة كانوا إذا جف كتبوا فيه)، والأضلاع (جمع ضلع وهو عظم معروف)، والأقتاب (جمع قتب وهو الخشب العريض الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه)، والخرق، وقطع الأديم.

ونفذا الدستور بدقة، حتى قيل إن عمر نفسه أتى بآية الرجم، فلم يكتبها زيد لأنه لم يأت بالشاهدين. وتتبعا آيات القرآن، يسألان عمن عنده آية كذا أو آية كذا،

حتى لم يبق إلا آيتان في آخر سورة التوبة: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (التوبة: ١٢٨، ١٢٩).

وأخذا يبحثان عمن عنده هاتان الآيتان، فوجداهما مكتوبتين عند أبي خزيمة الأنصاري، لم يجداهما عند أحد سواه، فأذن أبو بكر بكتابتهما اعتمادا على حفظه وحفظهما، وقال: اكتبوهما؛ فإن رسول الله ﷺ جعل شهادته بشهادة رجلين. وكتب ما جمع في صحائف. وكان الذي يملي أبي بن كعب والذي يكتب زيد بين ثابت في حضرة عمر بن الخطاب ﷺ.

وكتب القرآن مرتب الآيات في سورها، مقتصرا فيه على ما لم تنسخ تلاوته. وضمت الصحف وربطت بخيط، وحفظت عند أبي بكر حتى توفاه الله، فانتقلت إلى عمر حياته، ثم عند حفصة بنته لأنها كانت وصية عمر، فاستمر ما كان عنده عندها.

شبهتان وردهما:

الأولى: يحمل بعض الروافض على أبي بكر، ويعترضون على جمعه القرآن ويقولون: كيف جاز له أن يفعل شيئا لم يفعله الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام؟ والجواب أنه لم يفعل ذلك إلا بطريق الاجتهاد الشائع الناشئ عن النصح منه لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم.

على أن القرآن كان مأذونا بكتابته في قوله ﷺ: «لا تكتبوا عني شيئا غير القرآن». بل إنه كان مكتوبا مفرقا. فكل ما فعله أبو بكر أنه جمع المتفرق وضم بعضه إلى بعض. وكان هذا العمل مفخرة لأبي بكر، لا موطنا للنقد والطعن.

وفي ذلك يقول الحافظ بن حجر: وإذا تأمل المنصف ما فعله أبو بكر من ذلك جزم بأنه يعد في فضائله، وينوه بعظيم منقبته، لثبوت قوله ﷺ: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها».

فما جمع القرآن أحد بعده إلا وكان له مثل أجره إلى يوم القيامة. أ. هـ.

ويقول عليّ نفسه، كرم الله وجهه: أعظم الناس في المصاحف أجرا أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه.

الثانية: ويعكس الجملة السابقة بعض آخر من الروافض وقد شق عليهم أن يسند إلى أبي بكر شرف جمع القرآن، فيقولون: إن عليّا سبق أبا بكر في جمع القرآن؛ فهو أول من جمع القرآن بعد رسول الله ﷺ. ويستدلون على دعواهم بما أخرجه ابن أشتة عن محمد بن سيرين عن عكرمة قال: لما كان بدء خلافة أبي بكر، قعد علي بن أبي طالب في بيته، فقيل لأبي بكر: كره بيعتك. فأرسل إليه، فقال: أكرهت بيعتي؟ فقال: رأيت كتاب الله يزاد فيه، فحدثت نفسي ألا ألبس ردائي إلا لصلاة حتى أجمعه. قال له أبو بكر: فإنك نعم ما رأيت. أ. هـ.

وهذه الشبهة، بل وهذه الرواية ـ إن صحت ـ لا تنقص فضل أبي بكر ومنقبته، فإن مصحف علي ومصاحف غيره من الصحابة لا تلبس الصفة الاجتماعية التي لبستها صحف أبي بكر، ولا تنال المزايا التي نالتها صحف أبي بكر، لأنها صحف فردية لا تكسب الثقة ولا تورث العلم، بخلاف صحف أبي بكر، فهي بحق مفخرة شهد بها عليّ بن أبي طالب في حديث ابن أبي داود في المصاحف بسند حسن قال فيه: رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله. أ. هـ.

كتابة المصاحف في عهد عثمان

الدوافع والدواعي

في سنة خمس وعشرين من الهجرة، وبعد أن ولي عثمان الخلافة بعامين، أحس خطرا على القرآن، إذ بلغه أن المعلم بالمدينة يعلم قراءة الرجل، والمعلم الآخر يعلم قراءة رجل آخر، وجعل الغلمان يلتقون فيختلفون، حتى ارتفع الخلاف إلى المعلمين، حتى كفر بعضهم بعضا. فبلغ ذلك عثمان، فخطب في الناس، فقال: أنتم عندي تختلفون، فمن نأى عني من الأمصار أشد اختلافا. ثم أخذ يستشير أصحابه فيما يفعل.

وفي هذه الأثناء تجمع جيش من العراق، وفيه حذيفة بن اليمان، وجيش من الشام، وتوجهوا لغزو أرمينية وآذربيجان. وفي مسجد من المساجد، جلس الجنود يتدارسون القرآن، فسمع حذيفة رجلا يقرأ وآخرون يخطئونه فيما يقرأ. يقول أهل الكوفة: قراءة ابن مسعود، ويقول أهل البصرة: قراءة أبي موسى، ويقول أهل الشام: قراءة أبي بن كعب. هذا يقول: قراءتي خير من قراءتك، وذاك يقول: بل قراءتي هي الصواب وقراءتك باطلة. وتنازعوا، حتى كادت الفتنة تقع بينهم. فغضب حذيفة، واحمرت عيناه، ثم قام، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: هكذا كان من قبلكم اختلفوا، والله لأركبن إلى أمير المؤمنين. وما أن انتهت المعارك بالنصر، وعادت الجيوش، حتى توجه حذيفة إلى المدينة، ولم يدخل بيته حتى دخل على عثمان، فقال: يا أمير المؤمنين أدرك الناس. قال: وما ذاك؟ قال: غزوت أرمينية، فإذا أهل الشام يقرءون بقراءة أبي بن كعب، فيأتون بما لم يسمع أهل العراق، وإذا أهل العراق يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود، فيأتون بما لم يسمع أهل الشام، فيكفر بعضهم بعضا! فتعاظم ذلك في نفس عثمان، واستشار الصحابة، فاستقر رأيهم على جمع الأمة على مصاحف يحرق ما عداها.

نسخ المصحف:

وألف عثمان لجنة النسخ، بعد أن استشار أصحابه: من أكتب الناس؟ قالوا: كاتب رسول الله زيد بن ثابت. قال: فمن أفصح الناس؟ قالوا: سعيد بن العاص ابن سعيد بن العاص بن أمية. قال: فليعمل سعيد، وليكتب زيد. وأسند إليهما رئاسة اللجنة وأضاف إليهما من يساعدهما.

قيل: جمع اثنى عشر رجلا من قريش والأنصار، منهم عبد الله بن الزبير وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام ومالك بين أبي عامر (جد مالك بين أنس) وكثير بن أفلح وأبي بن كعب وأنس بن مالك وعبد الله بن عباس.

ثم أرسل عثمان إلى حفصة، فطلب منها الصحف التي كتبت في عهد أبي بكر،، والتي حفظت عندها بعد عمر.. أرسل إليها يقول: أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في مصاحف، فأبت حتى عاهدها ليردنها إليها، فأرسلتها.

وحدد عثمان مع اللجنة، وباستشارة الصحابة، دستور العمل. ويتلخص فيما يأتي:

(١) لا يكتب شيء إلا بعد التحقق من أنه قرآن.

(٢) لا يكتب شيء إلا بعد العلم بأنه استقر في العرضة الأخيرة.

(٣) لا يكتب شيء إلا بعد التأكد من أنه لم ينسخ.

(٤) لا يكتب شيء إلا بعد عرضه على جمع من الصحابة.

(٥) إذا اختلفوا في شيء من القرآن كتبوه بلغة قريش. وقد اختلفت اللجنة في التابوت والتابوه، فقال القرشيون: التابوت، وقال زيد: التابوه. فرفع الخلاف إلى عثمان، فقال: اكتبوه «التابوت» فإنه نزل بلسان قريش.

(٦) يحافظ على القراءات المتواترة، ولا تكتب قراءة غير متواترة.

(٧) اللفظ الذي لا تختلف فيه وجوه القراءات يرسم بصورة واحدة.

(٨) اللفظ الذي تختلف فيه وجوه القراءات، ويمكن رسمه في الخط محتملا لها كلها يكتب برسم واحد، مثل قوله تعالى: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ (الحجرات: ٦). فإنها تصلح أن تقرأ بالقراءة الأخرى «فتثبتوا» لأن الكتابة كانت خالية من النقط والشكل. ومثلها: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ (البقرة: ٢٥٩)، فإنها تصلح أن تقرأ بالقراءة الأخرى «ننشرها».

(٩) اللفظ الذي تختلف فيه وجوه القراءات ولا يمكن رسمه في الخط محتملا لها يكتب في نسخة برسم يوافق بعض الوجوه، وفي نسخة أخرى برسم يوافق الوجه الآخر، كقوله تعالى ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ (البقرة: ١٣٢). فإنها تكتب في نسخة أخرى «وأوصى» بالهمز، لأنهما قراءتان.

ومثل قوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ (سورة التوبة: ١٠٠). فإنها تكتب في نسخة أخرى «تجري من تحتها الأنهار» بزيادة «من» لأنهما قراءتان.

وتحاشوا أن يكتبوا الرسمين في مصحف واحد، أحدهما في الأصل والآخر في الحاشية، لئلا يتوهم أن الثاني التصحيح للأول، أو أن الأول أصل والثاني فرع محتمل فتضعف قراءة أحد اللفظين عن الآخر بدون مرجح.

وسارت اللجنة في عملها بأمانة وهمة، ونسخت خمسة مصاحف أو سبعة، ثم عرضت المصاحف على مهرة القرآن. ولما اطمأن عثمان إليها، وزعها على الأمصار، فأرسل إلى كل جند من أجناد المسلمين بمصحف. فمن قال إنها خمسة عدها (المصحف الكوفي والمصحف البصري والمصحف الشامي، والمصحف المدني العام والمصحف المدني الخاص الذي حبسه عثمان لنفسه، وهو المسمى بالمصحف الإمام). ومن قال إنها ستة زاد المصحف المكي، ومن قال إنها سبعة زاد على الستة مصحف البحرين ومصحف اليمن، وجعل بالمدينة واحدا، ومن قال إنها ثمانية جعل بالمدينة اثنين.

ورد عثمان إلى حفصة صحف أبي بكر، وأمر الولاة في جميع الأمصار أن يحرقوا كل مصحف يخالف المصحف الذي أرسل به. ففي رواية البخاري: «أرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق». وفي رواية أبي قلابة: «فلما فرغ عثمان من المصحف كتب إلى أهل الأمصار: إني صنعت كذا وكذا، ومحوت ما عندي؛ فامحوا ما عندكم».

وقد أثار هذا العمل خلافا في حكم تحريق الكتب التي فيها اسم الله بالنار.

فقال ابن بطال: في حديث البخاري جواز تحريق الكتب التي فيها اسم الله بالنار، وأن ذلك إكرام لها، وصون عن وطئها بالأقدام. وكرهه بعضهم.

وقال الحافظ بن حجر هذا الحكم هو الذي وقع في ذلك الوقت، وأما الآن فالغسل أولى لما دعت الحاجة إلى إزالته.

والذي تستريح إليه النفس أن الحكم يتبع القصد والنية. فما دام القصد صيانته من الامتهان، جاز التخلص منه بأي وسيلة: الحرق أو الخرق أو الحك أو الغسل أو الإلقاء في بحر، أو إرساله إلى مصانع الورق لتصنيعه من جديد، إلى غير ذلك من الوسائل، وكل ما يلتزم أن تكون الوسيلة كريمة، فلا يلقى في مزبلة أو في مكان

قضاء الحاجة مثلا. أما إذا كان القصد الإهانة فإن التخلص منه حرام ولو بطريقة كريمة. ومثل هذا يقال في وضع كتب العلم والحديث والقرآن بين سائر الكتب، أو على الأرض، وإن كان الأولى وضع القرآن في مكان العلو والرفعة حتى يبعث في نفس الناظر الإجلال والتقديس. والله أعلم.

موقف عبد الله بن مسعود من مصاحف عثمان:

أثار ابن مسعود أنه لم يحظ بشرف جمع القرآن ونسخه ضمن اللجنة التي ألفها لذلك عثمان، وعز عليه إهماله وهو إمام القراء في الكوفة، ومن السابقين الماهرين في حفظ القرآن، وهو أول أربعة أمر المسلمون بأخذ القرآن عنهم. فخطب في الناس، فقال: يا معشر المسلمين. أعزل عن نسخ كتابة المصاحف، ويتولاها رجل والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب كافر (يريد زيد بن ثابت). ثم قال: لقد أخذت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة، وإن زيد بن ثابت لصبي من الصبيان، وإن لزيد بن ثابت روايتين.

ولابن مسعود عذره في هذا الغضب، ولعثمان عذره في هذا الاختيار. فإبعاده عن هذا العمل المشرف مع كفاءته له يغضبه دون مراء. وفي هذا الغضب جزء لله لكنه جاوز ما ينبغي، إذ هاجم زيد بن ثابت من غير ذنب إلا أنه وقع عليه الاختيار. وما كان اختيار زيد إلا عن كفاءة ممتازة مجمع عليها من المنصفين؛ فهو كاتب الوحي لرسول الله ﷺ، وهو الذي وصفه أبو بكر بأربع صفات عالية، وهو الذي قام بجمع القرآن لأبي بكر، ثم هو أكتب الناس بشهادة الصحابة. فالطعن في اختياره لهذا العمل افتئات واعتداء.

وعذر عثمان ـ في عدم ضم ابن مسعود للجنة ـ أنه كان منزعجا للاختلاف في القراءة، حريصا على الإسراع بحسم الداء. ثم إنه بالمدينة، وعبد الله بالكوفة، فلم يشأ أن يؤخر ماعزم عليه إلى أن يرسل إليه، وإلى أن يحضر، خصوصا وفي القراء بالمدينة كفاية، ولم يشتهر عنهم التحيز لقراءة خاصة، بخلاف ابن مسعود.

وترتب على غضبة ابن مسعود هذه غضبة أخرى يوم أرسل مصحف عثمان إلى الكوفة ليجمع عليه الناس، ويحرقوا ما عداه. فصعد المنبر، وخطب الناس،

فقال: «والله لقد علم أصحاب النبي ﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله، وما أنا بخيرهم. ولقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة، وأخذت بقية القرآن عن أصحابه. والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت. ولو أعلم أن أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه، وتكلفت أن آتيه». رواه البخاري.

ثم قال: «على قراءة من تأمرونني أن أقرأ، وقد قرأت على رسول الله ﷺ؟ وكيف تأمرونني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت، وقد قرأت من في رسول الله ﷺ مثله؟ أفأترك ما أخذت من في رسول الله ﷺ؟ أيها الناس. إني غال مصحفي وحابسه عن أن يحرق، فمن استطاع منكم أن يغلو مصحفه فليفعل» أ. هـ.

وبفحص ثورة ابن مسعود هذه في جو من النزاهة والاتزان، نجده لم يعترض على ترتيب مصحف عثمان، وهو يزيد المعوذتين وقد خلا منهما مصحفه، وإنما حصر الاعتراض على الإلزام بقراءة واحدة وإلغاء ما عداها.

قال الحافظ بن حجر: وكأن ابن مسعود رأى خلاف ما رأى عثمان ومن وافقه في الاقتصار على قراءة واحدة، أو كان يريد أن تكون قراءته هي التي يعول عليها دون غيرها، لما له من المزية في ذلك مما ليس لغيره، كما يؤخذ ذلك من ظاهر كلامه. أ. هـ.

هذا. وقد نقل ابن أبي داود أن ابن مسعود رضي بعد ذلك بما صنع عثمان رضي الله عنهم أجمعين.

مصير صحف أبي بكر

عرفنا أن عثمان رضي الله عنه أعاد الصحف إلى حفصة وفاء بعهده ووعده، وكان يحب أن يقضي عليها كبقية الصحف والمصاحف.

فلما كان مروان أميرا للمدينة من جهة معاوية، أرسل إلى حفصة يطلب الصحف فأبت أن ترسلها له، فأخذ يسألها وتأبى، حتى توفيت.

قال سالم بن عبد الله بن عمر: فلما توفيت حفصة، ورجعنا من دفنها، أرسل مروان بالعزيمة إلى عبد الله بن عمر ليرسلن إليه تلك الصحف، فأرسل بها إليه عبد الله بن عمر، فأمر بها مروان فغسلت غسلا، ثم شققت، ثم أحرقت، ثم قال: إنما فعلت هذا لأني خشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب.

الفرق بين جمع القرآن وكتابته في العصور الثلاثة

مما سبق يمكن حصر الفروق فيما يأتي:

أولا: الآيات القرآنية المكتوبة في عهد الرسول ﷺ كانت مرتبة بالنظر إلى كل قطعة كتب عليها، ولم تكن القطع مرتبة. فيمكن أن يقال: إن آيات كل سورة لم تكن مرتبة كمال الترتيب، لضعف أدوات الكتابة ووسائلها، واعتمادا على الترتيب في الصدور، ووجود المرجع الأعلى وهو الرسول ﷺ.

أما جمع أبي بكر، فقد رتبت فيه الآيات في سورها ترتيبا كاملا، لكن لم ترتب فيه سور القرآن.

وأما جمع عثمان فقد رتبت فيه سور القرآن على ما هي عليه في المصاحف الآن.

ثانيا: الأدوات التي كتب عليها القرآن في عهد الرسول ﷺ لا تسمى صحفا ولا مصحفا، وما كتب عليه في عهد أبي بكر يسمى صحفا، وفي عهد عثمان يسمى مصحفا. قال الحافظ بن حجر: والفرق بين الصحف والمصحف، أن الصحف الأوراق المجردة التي جمع فيها القرآن في عهد أبي بكر، وكانت سورا مفرقة، كل سورة مرتبة بآياتها على حدة، لكن لم يرتب بعضها إثر بعض، فلما نسخت ورتب بعضها إثر بعض صارت مصحفا. أ. هـ.

ثالثا: كان القرآن المكتوب في عهده ﷺ يجمع الناسخ والمنسوخ، بخلاف جمع أبي بكر ونسخ عثمان فكانا قاصرين على ما لم تنسخ تلاوته.

رابعا: جمع القرآن في عهد أبي بكر كان شاملا للقراءات المتواترة، وغير المتواترة، أما جمع عثمان فكان مقتصرا على القراءات المتواترة، منظما لها.

خامسا: كان الغرض من الجمع والكتابة في عهد الرسول ﷺ زيادة الاستيثاق. وكان الغرض منه في عهد أبي بكر التسجيل والحفظ مخافة ضياع شيء منه بموت القراء. وكان الغرض منه في عهد عثمان سد باب الاختلاف في القرآن والقراءات، ونسخ مصاحف متعددة لجمع الناس عليها. والله أعلم.

شبهتان مردودتان حول جمع القرآن:

تردد القول بأن من الشبه شبها واهية لا يلتفت إليها، ونكتفي بإيراد شبهتين يتخيل أن لهما وجهة نظر ولو ضعيفة لنردها.

الشبهة الأولى: قالوا: إن القرآن يحتمل أن يكون قد سقط منه شيء وجاءنا ناقصا، للدليلين الآتيين:

(١) روي أن الرسول ﷺ قال «رحم الله فلانا. لقد أذكرني كذا وكذا آية كنت أسقطتهن أو أنسيتهن» رواه الشيخان.

وللرد على هذا الدليل نقول إنه لا يشكك في القرآن، لأنه نسيان النبي ﷺ، والذي يمكن أن يؤدي إلى دعواهم هو نسيان ما أمر بتبليغه قبل تبليغه. وهذا النوع مستحيل وقوعه، وكذلك النسيان الدائم الذي يساوي المحو والإزالة والفقدان من الذاكرة. وأما غيبة الشيء عن الذهن، أو انشغال الذهن عنه، فهو عارض يعرض لكل إنسان من حيث هو إنسان، ولا يطعن مطلقا فيما كان محفوظا وبلغ، وكتبه كتاب الوحي في صحفهم، وعند النبي ﷺ، وحفظه عشرات المسلمين، وهذا العارض لا يلبث أن يزول بأقل تذكير وبأدنى مناسبة، وكثيرا ما يحدث لنا في اليوم الواحد مرات ومرات.

وإذا كان عباد بن بشار، وهو صاحب الحادثة، قد حفظ الآيات المشار إليها، وصلته بالرسول ﷺ أقل من صلة عشرات من القراء وكتاب الوحي، كان الحافظون لها عددا يؤمن معهم ضياعها.

(٢) أن الصحابة حذفوا من القرآن ما رأوا المصلحة في حذفه . فمن ذلك آية المتعة التي أسقطها على بن أبي طالب، وكان يضرب من يقرؤها .

والجواب واضح بما سبق لنا في جمع القرآن، من أنهم وضعوا في دستور الجمع عدم اعتبار شيء من القرآن إلا ما ثبت بالتواتر . فما حذف لم تثبت قرآنيته بالتواتر .

الشبهة الثانية: قالوا : كما احتمل أن يكون في القرآن نقص، فإنه يحتمل أن يكون فيه زيادة للدليلين الآتيين :

(١) ثبت أن ابن مسعود أنكر قرآنية المعوذتين . وللرد على ذلك منع بعضهم صحة النقل عن ابن مسعود . وقال النووي في شرح المهذب : أجمع المسلمون على أن المعوذتين من القرآن وأن من جحد شيئا منهما كفر، وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح . هـ .

وأجاب بعضهم بأن إنكار ابن مسعود - على فرض صحته - كان قبل علمه بذلك . فلما تبين له قرآنيتهما بعد، ، وتم التواتر، وانعقد الإجماع على قرآنيتهما كان في مقدمة من يؤمن بقرآنيتهما . لأن قراءة عاصم عن زرعة عن ابن مسعود ثبت فيها المعوذتان .

على أن إنكار ابن مسعود للمعوذتين لا يضر التواتر، ولا ينقضه، ولا يرفع العلم اليقيني، إذ لم يقل أحد : إن شرط التواتر عدم وجود المخالف .

(٢) قالوا : إن آية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (آل عمران : ١٤٤) من كلام أبي بكر، وقد نسخت في القرآن .

وهذا الزعم باطل فاسد، لأنه جاء في الروايات الصحيحة أنها نزلت في واقعة أحد، لعتاب أصحاب النبي ﷺ على ما صدر منهم . وذلك أنه لما أصيب المسلمون بما أصيبوا به، وفشا فيهم أن رسول الله ﷺ قد قتل، قال بعض المسلمين : ليتَ لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي، فيأخذ لنا أمانا من أبي سفيان؟ وبعضهم جلسوا وألقوا ما بأيديهم . وقال أناس من أهل النفاق : إن كان محمد قد قتل فالحقوا بدينكم الأول . فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك : إن كان قتل فإن

رب محمد لم يقتل، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه. ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء (يعني المسلمين) وأبرأ إليك مما قال هؤلاء (يعني المنافقين). ثم شد بسيفه فقاتل، حتى قتل رضي الله عنه.

ولام الرسول ﷺ الصحابة على فرارهم من حوله، فقالوا: يا رسول الله. فديناك بآبائنا وأبنائنا. أتانا الخبر بأنك قتلت، فرعبت قلوبنا، فولينا مدبرين. فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ...﴾ (آل عمران: ١٤٤) الآية. أ. هـ. ذكره الآلوسي في التفسير.

فهذه الآية ليست من كلام أبي بكر، بل كان عشرات من الصحابة يحفظونها، وكل ما في الأمر أن أبا بكر تلاها على المنبر يوم توفى ﷺ والناس في فزع ودهشة خيل معها لعمر أنه لم يحفظها من قبل.

وهكذا نجد الضالين المضلين يحاولون نفث سمومهم، وزعزعة عقيدة المسلمين في كتابهم: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (الصف: ٨).

موجة نسخ الصحف والمصاحف

لم تكد مصاحف عثمان تصل إلى الأقطار، ولم تكد الصحف والمصاحف الأولى تحرق حتى قامت حركة كبرى، ونشاط غريب لنسخ صحف أو مصاحف على غرار مصحف عثمان.

إن القراء يندفعون إلى هذا العمل ليحل محل مصاحفهم. وإن أنصاف القراء يتسابقون إليه لينافسوا القراء. وإن المبتدئين يتشوفون إلى نقل ما أجمعت عليه الأمة، وحاز ثقة المسلمين. يساعد هؤلا جميعا عاملان مهمّان:

أولا: انتشار العلم والكتابة بين المسلمين، حتى أصبح نسخ المصاحف سهلا.

ثانيا: توافر أدوات الكتابة، وسهولة الحصول عليها.

لذلك لا نعجب إذا نحن رأينا بعد زمن وجيز آلاف المصاحف في كل مصر من الأمصار، ورأيناها بحكم الضرورة تتنقل مع أصحابها من بلد إلى بلد، ومن قطر إلى قطر، وتغزو البلاد غير الإسلامية مع حملتها جند المسلمين.

مصير المصاحف العثمانية

يتوارد على خاطر الكثير منا سؤال عن المصاحف العثمانية، وهل لها وجود في عصرنا هذا؟ أو افتقدناها بمرور الأيام والسنين؟

يقول الباحثون والفاحصون من رجال تتبع الآثار والبحث العلمي: إن المصاحف الأثرية الموجودة في دور الآثار، في مصر وغيرها، ويقال عنها إنها مصاحف عثمانية ليست هي المصاحف التي كتبت بإشراف عثمان ﷺ، لما يزينها من زركشات، ولما تحتويه من علامات الفصل بين السور وعلامات أعشار القرآن ولما فيها من النقط والشكل، مما لم يكن موجودا في مصاحف عثمان.

وأقرب الأخبار عنها ما روي من أن ابن الجزري رأى في زمانه مصحف أهل الشام. ويوجد بخزانة الآثار بالمسجد الحسيني بالقاهرة مصحف منسوب إلى عثمان ﷺ مكتوب بالخط الكوفي القديم، مع تجويف حروفه وسعة حجمه إلى حد كبير. وأغلب الظن أنه منقول عن المصاحف العثمانية. وليس واحدا منها.

على أن عدم بقاء المصاحف العثمانية قاطبة لا يضر الإسلام والقرآن شيئا، لأن المعمول عليه هو النقل المتواتر ثقة عن ثقة وإماما عن إمام، على أكمل وجه حتى اليوم. على أن آلاف المصاحف التي نسخت من المصاحف العثمانية، وآلاف الآلاف التي نقلت عنها تحت رعاية الثقات من العلماء المسلمين تقف حاجزا حصينا منيعا لأي ريب يحوم حول كتابة القرآن الكريم.

نقط القرآن وشكله

يقال للنقط إعجام، وللشكل إعجام، وكأن كل واحد منهما يزيل العجمة والإبهام من الكلام.

ومن المعلوم أن المصاحف العثمانية كانت خالية من النقط والشكل. ويذهب بعض العلماء إلى أن النقط والشكل كانا معروفين لكتاب القرآن في عهد عثمان، ولكنهم تركوهما عمدا لتصلح الكلمة للقراءتين أو القراءات الواردة فيها. وهذا القول بعيد عن الصواب. لأنه لو كان الأمر كذلك لنقطوا وشكلوا الكلمات التي لا تحتمل قراءتين، وتحتمل اللبس والخلط والخطأ بدون نقط أو شكل. والصحيح أن النقط والشكل لم يعرفا في عهد عثمان، وإنما استحدثا بعد. ودوافع النقط والشكل واحدة، وهي اختلاف الناس في قراءة المصاحف بعد أن اتسعت رقعة الإسلام، واختلط العرب بالعجم. والشكل لكلمات المصحف سبق نقط حروفها، لكنه كان شكلا على طريق النقط.

فقد روي أن زياد ابن أبيه والي البصرة في حوالي سنة ٤٨ هـ طلب من أبي الأسود الدؤلي أن يجعل للناس علامات تساعدهم على القراءة الصحيحة لكتاب الله، فتباطأ أبو الأسود، حتى سمع قارئا يقرأ قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ (التوبة: ٣). فقرأها بجر اللام في كلمة «رسوله»، فأفزع هذا اللحن أبا الأسود، وقال: عز وجه الله أن يبرأ من رسوله. ثم ذهب إلى زياد، وقال له: قد أجبتك، وانتهى إلى جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف، وجعل علامة الكسرة نقطة تحت الحرف، وجعل علامة الضمة نقطة على جانب الحرف، وجعل علامة السكون نقتطين.

والجدير بالذكر أن أبا الأسود الدؤلي لم يضع شكلا لكل حرف، وإنما شكل

الحرف الأخير فقط من كل كلمة. ولهذا استمر الخطأ في القراءة، واشتبهت نفس الحروف لعدم نقطها على القارئين، وكادت كارثة التحريف تسيء إلى كتاب الله، فقيض الله له عبد الملك بن مروان، فأمر الحجاج أن يهتم بهذا الخطر، وأن يختار لعلاجه العالم النقى الورع الخبير بأصول اللغة ووجوه القراءات.

فاختار الحجاج لهذه المهمة نصر بن عاصم الليثى حوالي سنة (٨٠) من الهجرة، فعمم شكل أبى الأسود على جميع حروف الكلمة أولها ووسطها وآخرها ولكنه مازال الكل على هيئة النقط.

ولم يرق للحجاج هذا العمل لأنه لم يقطع دابر الخطإ والاختلاف في القراءة، فعهد إلى لجنة مكونة من نصر بن عاصم الليثي، ويحيى بن يعمر العدواني، والحسن البصري أن تقوم بعمل كبير يحيط كتاب الله بسياج من السلامة وتحول بينه وبين التحريف.

فنقطت الحروف: نقطة ونقطتين فوق الحرف أو تحته، وثلاث نقاط فوق بعض الحروف. ولئلا يختلط الشكل بالنقط، عمدت إلى نقطة الفتحة ونقطة الكسرة فسحبتهما حتى صارتا كالهيئة المعهودة الآن، وعمدت إلى نقطة الضمة فجعلتها واوا صغيرة، وإلى نقطتي السكون فأكملت بهما دائرة. وبهذا تم النقط والشكل للمصحف. ثم عدوا حروفه، وحددوا نصفه وثلثه وربعه وثمنه. ويروى أنهم قسموه إلى أعشار، والمشهور أن الأعشار من عمل المأمون.

ويقال: إن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلى، وإن ابن سيرين كان له مصحف منقوط، نقطه يحيى بن يعمر. وقد حاول المرحوم الشيخ الزرقاني التوفيق بين هذه الأقوال بأن أبا الأسود أول من نقط المصحف بصفة فردية، ثم تبعه ابن سيرين، وأن عبد الملك أول من نقط المصحف ولكن بصفة رسمية عامة، ذاعت وشاعت بين الناس، دفعا للبس والإشكال عنهم في قراءة القرآن. أ. هـ.

وهذا التوفيق بعيد عن الحقيقة والتاريخ، والأولى رد هذا القول الأخير، أو حمل نقط أبي الأسود الدؤلي فيه على الشكل بطريقة النقط. وأما النقط باصطلاحه المعروف، فهو من عمل الحجاج بإشارة عبد الملك بن مروان.

حكم نقط المصحف وشكله

روى عن ابن مسعود أنه كره النقط والشكل، وقال «جردوا القرآن ولا تخلطوه بشيء». وكان الدافع إلى هذا الموقف المبالغة في المحافظة على القرآن كما رسمه الأولون خوفا من فتح باب التغيير فيه.

ولكن بعد مارأينا من اختلاط العرب بالعجم واتساع رقعة الإسلام، واعوجاج ألسنة الناس واهتزاز السليقة العربية، أصبح خطر التغيير كامنا في عدم النقط والشكل، وأصبح النقط والشكل درعا واقية من ذلك الخطر الداهم. وتطبيقا للمبدإ المقرر من أن الحكم يدور مع علته وجودا وعدما، تغير حكم النقط والشكل إلى الجواز، بل الاستحباب، بل الوجوب بدل المنع.

وفيه يقول النووي: قال العلماء: ويستحب نقط المصحف وشكله، فإنه صيانة من اللحن. وأما كراهة الشعبي والنخعي النقط فإنما كرهاه في ذلك الزمان خوفا من التغيير فيه، وقد أمن ذلك اليوم، فلا يمنع من ذلك لكونه محدثا، فإنه من المحدثات الحسنة، فلا يمنع منه، كنظائره، مثل تصنيف العلم وبناء المدارس والرباطات وغير ذلك. والله أعلم. أ. هـ.

تجزئة القران وتحسينات المصحف

تقسيم القرآن إلى ثلاثين جزءا، وتقسيم الجزء إلى حزبين، وتقسيم الحزب إلى أربعة أرباع، وكتابة أرقام الآيات بعد كل منها، ووضع علامات الوقف والمد وغيرها على الحروف، كل ذلك مستحدث، وفيه كلام طويل للعلماء من حيث الكراهية والجواز. قال بعضهم: والخطب يسير مادام الغرض هو التيسير والتسهيل، وما دام الأمر بعيدا عن التغيير في ألفاظ القرآن.

والخطب بعد ذلك أسهل وأيسر في التحسينات التي أدخلت على النسخ والطبع والحجم والورق والتجليد والتذهيب. وفيها كثير من التشويق، وإحاطة القرآن الكريم بهالة من الإجلال والتقديس في زمن تعشق الناس فيه الماديات، وصار جل اهتمامهم بالمظاهر والمحسوسات، والله أعلم.

الرسم العثماني والرسم الإملائي الحديث

في نسخ المصحف العثماني حروف كثيرة رسمت غير موافقة للمنطوق تمام الموافقة، وهي بالتالي مخالفة للرسم الإملائي الحديث.

وقبل الكلام على حكمها وحكم التزامها أو تغييرها نعرض في هذا الجدول نبذة منها لتكون فكرة عنها.

الرسم العثماني	الرسم الإملائي	نقط الخلاف
أنجينكم / زينها	أنجيناكم / زيناها	حذف ألف «نا»
سبحن / خلف	سبحان / خلاف	حذف الألف
الكللة	الكلالة	حذف الألف بين اللامين
سمعون / المؤمنت	سماعون / المؤمنات	حذف الألف من جمع التصحيح
المسجد / النصرى	المساجد / النصارى	حذف الألف
ثلث / ربع	ثلاث / رباع	حذف الألف من العدد
ملك / يخدعون	مالك / يخادعون	حذف الألف للقراءة
أطيعون / خافون	أطيعوني / خافوني	حذف ياء المتكلم في الأمر غالبا
لا يستون / فأوا	لا يستوون / فأووا	حذف الواو
ويدع الإنسان	ويدعو الإنسان	حذف الواو
ملاقوا ربهم	ملاقو ربهم	زيادة الألف
تفتؤا تذكر	تفتأ تذكر	زيادة الألف بعد الهمزة المرسومة واوا
الظنونا / الرسولا	الظنون / الرسول	زيادة الألف
بأييكم المفتون / بنيناها بأييد	بأيكم / بأيد	زيادة الياء
الصلوة / الحيوة	الصلاة / الحياة	كتابة الألف واوا
لدا الباب	لدى الباب	كتابة الياء ألفا
رحمت ربك	رحمة ربك	كتابة تاء التأنيث المربوطة تاء مفتوحة

تلك أمثلة مما خالف فيه الرسم العثماني الرسم الإملائي، وغير هذه الأمثلة وعلى شاكلتها كثير في المصحف. فهل هي أخطاء وقع فيها الكاتبون؟ أو هي قواعدهم الإملائية الأولى، تعدلت في العصور الأخيرة؟ أو لا هذا ولا ذاك، وإنما قصد هذا الرسم لفوائد ومزايا لا تتحقق بدونه ولو هيئ لكُتَّاب مصحف عثمان أن يكتبوه اليوم لكتبوه على ما هو عليه ولم يتبعوا الرسم الحديث؟

يحاول كثير من العلماء أن يتلمسوا مزايا وفوائد لهذه المخالفات لتكتسب شرعية إسلامية تمنع من التغيير والتعديل، وسأستعرض مع القارئ أقوالهم بإسهاب، وحججهم على كون الرسم العثماني توقيفيا بإطناب، وأدلتهم بتوسع على وجوب التزامه حتى يكون القارئ معي حين مناقشتهم، وحتى نصل إلى الحق الذي نرجوه وننشده لخير الإسلام والقرآن الكريم.

فوائد الرسم العثماني

قال الشيخ الزرقاني في مناهل العرفان ما نصه: لهذا الرسم مزايا وفوائد:

الفائدة الأولى: الدلالة في القراءات المتنوعة في الكلمة الواحدة بقدر الإمكان. وذلك أن قاعدة الرسم لوحظ فيها أن الكلمة إذا كان فيها قراءتان أو أكثر كتبت بصورة تحتمل هاتين القراءتين أو الأكثر: فإن كان الحرف الواحد لا يحتمل ذلك بأن كانت صورة الحرف تختلف باختلاف القراءات جاء الرسم على الحرف الذي هو خلاف الأصل، وذلك ليعلم جواز القراءة به وبالحرف الذي هو الأصل، وإذا لم يكن في الكلمة إلا قراءة واحدة بحرف الأصل رسمت به.

مثال الكلمة تكتب بصورة واحدة وتقرأ بوجوه متعددة قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ (طه: ٦٣). رسمت في المصحف العثماني هكذا «إن هذن لسحرن» ولكن من غير نقط ولا شكل ولا تشديد ولا تخفيف في نوني «إن» و«هذان» ومن غير ألف ولا ياء بعد الذال من «هذان». ومجيء الرسم كما ترى، كان صالحا عندهم لأن يقرأ بالوجوه الأربعة التي وردت كلها بأسانيد صحيحة.

أولها: قراءة نافع ومن معه، إذ يشددون نون «إن» ويخففون نون «هذان» بالألف.

ثانيها: قراءة حفص، إذ يخفف النون في «إن» و«هذان» بالألف.

ثالثها: قراءة ابن كثير وحده، إذ يخفف النون في «إن» ويشدد النون في «هذان».

رابعها: قراءة أبي عمرو، بتشديد النون في «إن» وبالياء وتخفيف النون في «هذين».

فتدبر هذه الطريقة المثلى الضابطة لوجوه القراءات، لتعلم أن سلفنا الصالح كان في قواعد رسمه للمصحف أبعد منا نظرا، وأهدى سبيلا، أ. هـ.

ونحن أمام هذه الفائدة نسأل سؤالين فقط:

(١) إن الأبعد نظراً هو الذي يقارن بين أمرين ويختار أنفعهما. فهل كان سلفنا الصالح، كتّاب مصحف عثمان، يعرفون النقط والشكل فآثروا تركهما لتصح القراءات؟ إجماع المؤرخين كما نقل الشيخ الزرقاني نفسه أنهم لم يكونوا يعرفون عن الشكل شيئا.

(٢) هل اتبعت هذه القاعدة في الرسم العثماني في المصحف كله أو في بعض الكلمات دون بعض؟ الواقع الثاني، وإلا لكتبت كلمة «الصراط» بغير الصاد.

فلو أنهم يقصدون هذه الفائدة لعمّموها.

ثم قال الشيخ:

الفائدة الثانية: إفادة المعاني المختلفة بطريقة تكاد تكون ظاهرة، وذلك نحو قطع كلمة «أم» في قوله تعالى: ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ (النساء: ١٠٩)، ووصلها في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الملك: ٢٢) بإدغام الميم الأولى في الثانية وكتابتهما ميما واحدة مشددة. فقطع أم الأولى في الكتابة للدلالة على أنها أم المنقطعة التي بمعنى بل. ووصل «أم» الثانية للدلالة على أنها ليست كتلك.

وأمام هذه الفائدة نسأل سؤالا واحداً، هو: على فرض أن كتبة المصحف كانوا يفرقون بين أم المنقطعة فيفصلونها وأم المتصلة فيصلونها، فلم وصلوا «أم» المنقطعة

في خمس آيات متوالية من سورة النمل؟ تبدأ بقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ (النمل: ٦٠) وقد قال المفسرون: إن «أم» منقطعة لا منفصلة؟

ثم قال الشيخ:

الفائدة الثالثة: الدلالة على معنى خفي دقيق، كزيادة الياء في كتابة كلمة «أَيْيد» من قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ (الذاريات: ٤٧). وذلك للإيماء إلى تنظيم قوة الله التي بنى بها السماء وأنها لا تشبهها قوة على حد القاعدة المشهورة وهي: زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

ومن هذا القبيل كتابة هذه الأفعال الأربعة بحذف الواو. وهي:

«ويدعو الإنسان» و«ويمحو الله الباطل»، «يوم يدعو الداعي»، «سندعو الزبانية»، فإنها كتبت في المصحف العثماني هكذا: ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ﴾ (الإسراء: ١١). ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ (الشورى: ٢٤)، ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ (القمر: ٦) ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ (العلق: ١٨)، ولكن من غير نقط ولا شكل في الجميع.

قالوا: والسر في حذفها من ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ﴾ هو الدلالة على أن هذا الدعاء سهل على الإنسان يسارع فيه كما يسارع إلى الخير، بل إثبات الشر إليه من جهة من الخير. والسر في حذفها من ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ الإشارة إلى سرعة ذهابه واضمحلاله. والسر في حذفها من ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ الإشارة إلى سرعة الدعاء وسرعة إجابة الداعين. والسر في حذفها من ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ الإشارة إلى سرعة الفعل وإجابة الزبانية وقوة البطش.

ويجمع هذه الأسرار قول المراكشي: والسر في حذفها من هذه الأربعة سرعة وقوع الفعل وسهولته على الفاعل وشدة قبول المنفعل المتأثر به في الوجود. أ. هـ.

وأمام هذه الفائدة نسأل:

هل زيد حرف في كل لفظ يدل على قوة الله تعالى وقدرته؟ وهل نقص حرف من كل ما يدل على سرعة وقوع الفعل وسهولته على الفاعل وشدة قبول المتأثر به في الوجود؟

لو كان الأمر كذلك لزيد حرف بعد دال «يد» في قوله تعالى ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (الفتح: ١٠). ولحذفت الواو من «يكون» في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢).

ثم قال الشيخ:

الفائدة الرابعة: الدلالة على أصل الحركة، مثل كتابة الكسرة ياء في قوله سبحانه ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ (النحل: ٩٠) إذ تكتب هكذا «وإيتائي ذي القربى». ومثل كتابة الضمة واوا في قوله سبحانه: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٥) إذ كتبت هكذا «سأوريكم». ومثل ذلك الدلالة على أصل الحرف نحو الصلاة والزكاة، إذ كتبا هكذا «الصلوة» «الزكوة» ليفهم أن الألف فيهما منقلبة عن واو. (من غير نقط ولا شكل كما سبق) أ. هـ.

والسؤال الوارد هنا هو:

على فرض أنهم كانوا يعرفون الحركة وأصل الحرف، فلم لم يدلوا على أصل الحركة أيضا في مثل قوله تعالى: ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ (الحج: ٢٢، السجدة: ٢٠) وقوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (إبراهيم: ٢٣)؟ ولم لم يدلوا على أصل الحرف في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ (البقرة: ١٨٣)، فتكتب «الصوام» مثلا؟ ولم لم يدلوا على أصل الحرف في مثل «قال» و«قيل»؟ فتكتب «قول»؟ يعلم الله أنهم لم يكونوا يقصدون شيئا من ذلك.

ثم قال الشيخ:

الفائدة الخامسة: إفادة بعض اللغات الفصيحة، مثل كتابة هاء التأنيث تاء مفتوحة دلالة على لغة طيئ، وقد تقدمت الأمثلة لهذا النوع، ومثل قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (هود: ١٠٥) كتبت «يأتي» بحذف الياء هكذا «يأت» للدلالة على لغة هذيل. أ. هـ.

والسؤال الوارد هنا هو:

إذا سمحنا لكتاب القرآن أن يكتبوا حرفا بلغة طيئ وحرفا بلغة هذيل فلم لم

يسيروا في القرآن كله برسم واحد لهذا الحرف؟ لم رسموا كلمة «نعمة» بتاء مفتوحة في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾ (الطور: ٢٩). ورسموا نفس الكلمة بتاء مربوطة في قوله تعالى ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ (إبراهيم: ٦)؟

ولم حذفوا الياء من المضارع المرفوع في ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ (هود: ١٠٥) ولم يحذفوها منه في قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ (الدخان: ١٠).

الفائدة السادسة: حمل الناس على أن يتلقوا القرآن من صدور ثقات الرجال، ولا يتكلوا على هذا الرسم العثماني الذي جاء غير مطابق للنطق الصحيح في الجملة. وينضوي تحت هذه الفائدة مزيتان.

إحداهما: التوثق من ألفاظ القرآن، وطريقة أدائه، وحسن ترتيله وتجويده، فإن ذلك لا يمكن أن يعرف على وجه اليقين من المصحف، مهما تكن قاعدة رسمه، واصطلاح كتابته، فقد تخطئ المطبعة في الطبع، وقد يخفى على القارئ بعض أحكام تجويده، كالقلقلة والإظهار والإخفاء والإدغام والرَّوْم والإشمام ونحوها، فضلا عن خفاء تطبيقها.

ولهذا قرر العلماء أنه لا يجوز التعويل على المصاحف وحدها، بل لابد من التثبيت في الأداء والقراءة بالأخذ عن حافظ ثقة.

وإن كنت في شك فقل لي بربك: هل يستطيع المصحف وحده بأي رسم يكون أن يدل قارئا أيا كان، على النطق الصحيح بفواتح السور الكريمة؟ مثل ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ (مريم: ١) ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ (الشورى: ١، ٢)، ﴿طسٓمٓ﴾ (الشعراء: ١، القصص: ١)؟

ومن هذا الباب الرَّوْم والإشمام في قوله سبحانه: ﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ (يوسف: ١١) من كلمة ﴿لا تأمنّا﴾.

المزية الثانية: اتصال السند برسول الله ﷺ، وتلك خصيصة من خصائص هذه الأمة الإسلامية امتازت بها على سائر الأمم.

قال ابن حزم: نقل الثقة عن الثقة يبلغ به النبي ﷺ مع الاتصال خص الله به المسلمين دون سائر الملل؛ وأما مع الإرسال والإعضال فيوجد في كثير من كتب اليهود، ولكن لا يقربون فيه من موسى قربنا من محمد ﷺ، بل يقفون بحيث يكون بينهم وبين موسى أكثر من ثلاثين عصرا؛ إنما يبلغون إلى شمعون ونحوه.

ثم قال: وأما النصارى فليس عندهم من صفة هذا النقل إلا تحريم الطلاق. وأما النقل المشتمل على طريق فيه كذاب أو مجهول العين فكثير في نقل اليهود والنصارى. أ. هـ.

هذه الفائدة السادسة تشبه في نظري رجلا يقول: إنني حفرت الحفر في الطريق لتحتاج إلى قيادتي، ولتضطر إلى مساعدتي، وهو يعلم علم اليقين، وأعلم مثله أنني لا أستطيع الاستغناء عن الاعتماد عليه مع تسوية الحفر، أفلا يكون الأولى به تخفيف العثرات وتسوية الحفر إن كان في استطاعته؟

ألم يكن عدم النقط والشكل كافيا في حمل الناس على تلقى القرآن من صدور الثقات حتى يعتمد رسم الحروف رسما يخالف النطق الصحيح؟

وهل نقط المصحف وشكله (الذي رفع كثيرا من الصعاب، والذي أجمعت الأمة على قبوله واستحسانه) منع التوثق من ألفاظ القرآن وطريقة أدائه، أو ساعد عليه؟

وهل رسم هذه الحروف رسما مطابقا للنطق ولقواعد الإملاء يعطل التوثق من ألفاظ القرآن وطريقة أدائه؟ أو يساعد عليه؟

اللهم إن الحق واضح، ولا داعي للتوقف والجمود.

تلك محاولة بعض العلماء لتلمس الفوائد والمزايا للرسم العثماني المخالف للنطق والإملاء.

هل الرسم العثماني توقيفي؟ وهل هو واجب الالتزام؟

أما أقوال الأئمة والعلماء، بأن الرسم العثماني توقيفي، وأنه ينبغي التزامه وعدم المساس به، وأدلتهم على دعواهم، فإني أسوقها مع المناقشة والبرهان.

يسند إلى جمهور العلماء القول بأن الرسم العثماني توقيفي لا تجوز مخالفته. واستدلوا بأن النبي ﷺ كان له كتّاب يكتبون الوحي، وقد كتبوا القرآن فعلا بهذا الرسم، وأقرهم الرسول على كتابتهم. ومضى عهده ﷺ والقرآن على هذه الكتبة لم يحدث فيه تغيير ولا تبديل. بل ورد أنه ﷺ كان يضع الدستور لكتاب الوحي في رسم القرآن وكتابته، ومن ذلك قوله لمعاوية، وهو من كتبة الوحي: «ألق الدواة وحرف القلم، وانصب الباء، وفرق السين، ولا تعور الميم، وحسن «الله» ومد «الرحمن» وجود «الرحيم»، وضع قلمك على أذنك اليسرى، فإنه أذكر لك».

وللرد على هذه الفقرة من ثلاثة أجزاء:

الأول: أنه لم يثبت مطلقا أن الذي كتب بين يدي الرسول وأقرهم عليه، كان يشتمل على هذه المخالفات، والاستدلال بالشيء فرع ثبوته.

الثاني: أن الحديث الذي أوردوه - على فرض صحته - إنما يتعلق بطلب تحسين الخط لا بالرسم الإملائي.

الثالث: أن إقرار الكتابة المعتمد فرع العلم بالمكتوب، وعلمه ﷺ بما ينبغي في كيفية الكتابة مبنى على أن النبي ﷺ كان يقرأ ويكتب. والصحيح أنه ﷺ بعث أميا وظل أميا يضع خاتمه ويكتب له الآخرون كتبه إلى أن توفى. وعلى فرض أنه تعلم القراءة نوعا ما في أواخر أيامه، فإن التمييز بين هذه المخالفات ليقرها أو لا يقرها يحتاج إلى خبرة واسعة في الكتابة لم يثبت مطلقا أنه ﷺ بلغها، ولم يثبت مطلقا أنه ﷺ راجع المكتوب بنفسه.

ويسند إلى الجمهور في بقية استدلالهم قولهم: ثم جاء أبوبكر فكتب القرآن بهذا الرسم في صحف، ثم حذا حذوه عثمان في خلافته، فاستنتج تلك الصحف في مصاحف على تلك الكتبة، وأقر أصحاب النبي ﷺ عمل أبي بكر وعثمان - رضي الله عنهم أجمعين - وانتهى بعد ذلك إلى التابعين وتابعي التابعين، فلم يخالف أحد منهم في هذا الرسم، ولم ينقل أن أحدا منهم فكر في أن يستبدل به رسما آخر من الرسوم التي حدثت في عهد ازدهار التأليف، ونشاط التدوين، وتقدم العلوم، بل بقى الرسم العثماني محترما، متبعا في كتابة المصاحف لا يمس استقلاله ولا يباح حماه.

قال الشيخ الزرقاني : وملخص هذا الدليل أن رسم المصاحف العثمانية ظفر بأمور ، كل واحد منها يجعله جديرا بالتقدير ووجوب الاتباع . تلك الأمور هي إقرار الرسول ﷺ وأمره بدستوره (وقد سبق قريبا رد هذا الدليل) ، وإجماع الصحابة عليه (والرد على هذا أن إجماع الصحابة كان على القراءة ، على أن بعض الأجلاء منهم اعترض على نوع القراءة ، وأصر على قراءته ، والتمسك بمصحفه) ، ثم إجماع الأمة عليه بعد ذلك في عهد التابعين والأئمة المجتهدين(وهو غير مسلم ، فقد أحدثوا النقط والشكل مع أنه مؤثر في القراءة . ورسم الحروف المخالفة بالرسم الإملائي يساعد على القراءة الصحيحة) .

وروى السخاوي بسنده أن مالكا رحمه الله سئل : أرأيت من استكتب مصحفا . أترى أن يكتب على ما استحدثه الناس من الهجاء اليوم؟ فقال : لا أرى ذلك ، ولكن يكتب على الكتبة الأولى . قال السخاوي : والذي ذهب إليه مالك هو الحق ، إذ فيه بقاء الحالة الأولى إلى أن تعلمها الطبقة الأخرى بعد الأخرى ، ولا شك في أن هذا هو الأحرى ، إذ في خلاف ذلك تجهيل الناس بأولية ما في الطبقة الأولى .

وقال أبو عمرو الداني : لا مخالف لمالك من علماء الأمة في ذلك . وقال أبوعمرو الداني أيضا : سئل مالك عن الحروف في القرآن ، مثل الواو والألف ، أترى أن يغير من المصحف إذا وجد فيه كذلك؟ قال : لا . قال أبو عمرو : يعني الألف والواو المزيدتين في الرسم المعدومتين في اللفظ نحو «أولوا» .

وجاء في حواشي المنهج في فقه الشافعية ما نصه : كلمة الربا تكتب بالوا والألف كما جاء في الرّسم العثماني ، ولا تكتب في القرآن بالياء أو الألف لأن رسمه سنة متبعة .

وجاء في المحيط البرهاني في فقه الحنفية ما نصه : إنه ينبغي ألا يكتب المصحف بغير الرسم العثماني .

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري ما نصه : وقال جماعة من الأئمة : إن الواجب على القراء والعلماء وأهل الكتابة أن يتبعوا الرسم في خط المصحف ، فإنه رسم زيد بن ثابت ، وكان أمين رسول الله ﷺ وكاتب وحيه .

وقال البيهقي في شعب الإيمان: من كتب مصحفا ينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف، ولا يخالفهم فيه، ولا يغير مما كتبوه شيئا، فإنهم كانوا أكثر علما، وأصدق قلبا ولسانا، وأعظم أمانة، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكا عليهم.

وقال الشيخ عبد العزيز الدباغ: رسم القرآن سر من أسرار المشاهدة، وكمال الرفعة. فسأله ابن المبارك: هل رسم الواو بدل الألف في نحو الصلوة والزكوة والحيوة ومشكوة (الصلاة والزكاة والحياة ومشكاة)، وزيادة الواو في «سَأُوريكُم» والياء في «هُدَيهُم» و«مَلإيه» و«بأَييِّكُم» و«بأَيْيد» هذا كله صادر عن النبي ﷺ أو من الصحابة؟ فقال: هوَ صادرَ مَن النبيَ ﷺ، وهو الذي أمر الكتّاب من الصحابة أن يكتبوه على هذه الهيئة، فما نقصوا ولا زادوا على ما سمعوه من النبي ﷺ. أ. هـ.

تلك أقوال العلماء الداعين إلى التزام الرسم العثماني. وأبعدها عن القبول النص الأخير. وهي في مجموعها لا تحرم كتابة القرآن بغير هذا الرسم، وغاية ما فيها أفضلية الرسم العثماني ووجاهته.

وفي مقابلة هذه الأقوال، أسوق قول القاضي أبي بكر في الانتصار، ونصه:

وأما الكتابة، فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئا، إذ لم يأخذ على كتّاب القرآن، وخطّاط المصاحف رسما بعينه، دون غيره، أوجبه عليهم وترك ما عداه، إذ وجوب ذلك لا يدرك إلا بالسمع والتوقيف، وليس في نصوص الكتاب، ولا مفهومه، أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص، وحد محدود لا يجوز تجاوزه، ولا في نص السنّة ما يوجب ذلك ويدل عليه، ولا في إجماع الأمة ما يوجب ذلك، ولا دلت عليه القياسات الشرعية. بل السنة دلت على جواز رسمه بأي وجه سهل، لأن رسول الله ﷺ كان يأمر برسمه، ولم يبين لهم وجها معينا، ولا نهى أحدا عن كتابته. ولذلك اختلفت خطوط المصاحف: فمنهم من كان يكتب الكلمة علي مخرج اللفظ، ومنهم من كان يزيد وينقص، لعلمه بأن ذلك اصطلاح، وأن الناس لا يخفى عليهم الحال. ولأجل هذا بعينه، جاز أن يكتب بالحروف الكوفية والخط الأول، وأن يجعل اللام على صورة الكاف، وأن تعوج

الألفات، وأن يكتب على غير هذه الوجوه. وجاز أن يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين، وجاز أن يكتب بالخطوط والهجاء المستحدثة، وجاز أن يكتب بين ذلك.

وإذا كانت خطوط المصاحف، وكثير من حروفها مختلفة، متغايرة الصورة، وكان الناس قد أجازوا ذلك، وأجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته، وما هو أسهل وأشهر وأولى، من غير تأثيم ولا تناكر، علم أنه لم يؤخذ في ذلك على الناس حد محدود مخصوص؛ والسبب في ذلك أن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والعقود والرموز؛ فكل رسم دال على الكلمة، مفيد لوجه قراءتها تجب صحته، وتصويب الكاتب به، على أى صورة كانت.

وبالجملة، فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه، وأنى له ذلك؟ أ. هـ.

ويعجبني رأي صاحب التبيان وصاحب البرهان والعز بين عبد السلام. ونص عبارة التبيان هي:

وأما كتابته (أي المصحف) على ما أحدث الناس من الهجاء، فقد جرى عليه أهل المشرق، بناء على كونها أبعد من اللبس. وتحاماه أهل المغرب بناء على قول الإمام مالك. وقد سئل: هل يكتب المصحف على ما أحدث الناس من الهجاء؟ فقال: لا، إلا على الكتبة الأولى.

قال في البرهان: قلت: وهذا كان في الصدر الأول، والعلم حي غض، وأما الآن فقد يخشى الالتباس.

ولهذا قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: لا تجوز كتابة المصحف الآن على الرسم الأول، باصطلاح الأئمة، لئلا يوقع في تغيير من الجهال، ولكن لا ينبغي إجراء هذا على إطلاقه، لئلا يؤدي إلى دروس العلم، وشيء قد أحكمته القدماء لا يترك مراعاة لجهل الجاهلين. ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجة. أ. هـ.

«أما بعد»، فقد أطلت الكلام في هذا المبحث لأنه موضوع الساعة، فقد طبعت مصاحف بالحروف الإنجليزية والهندية والصينية لينطق بالألفاظ العربية، فساعد ذلك غير العرب على النطق بالقرآن الكريم. وقد كثر الجدل وتعارضت الاتجاهات،

والمرجع هم حملة كتاب الله، والقائمون على علومه وتفسيره، وقد جليت لهم الموقف، وبسطت لهم أطراف الموضوع.

الخلاصة:

الظاهر أن هذا الرسم المخالف لقواعد الإملاء إنما كان من فعل الكتّاب وتواردهم على الكتابة. فمن المعلوم أن اللجنة التي تكونت لنسخ المصاحف في عهد عثمان ﷺ، كانت تضم اثنى عشر كاتبا، يملي بعضهم، ويكتب بعضهم، وقد نسخوا خمسة أو ستة أو سبعة أو ثمانية مصاحف، فتواردهم على كتابة المصحف الواحد، جعل بعضهم يكتب هاء التأنيث مثلا تاء مربوطة وبعضهم يكتبها في كلمة أخرى من سورة أخرى تاء مفتوحة، وهكذا.

وليس ذلك على سبيل الخطإ، بل على أساس أن قواعدهم آنذاك كانت تبيح الأمرين على السواء، لأن المصاحف عرضت بعد الكتابة، وروجعت مراجعة دقيقة، فلو كانت هذه المخالفات خطأ عندهم لأصلحوها.

أما اليوم ـ وقد أصبحت خطأ إملائيا يوقع في اللبس، ويدفع بالمبتدئ وغير الماهر إلى التحريف ـ فإنه يجب رسمه بالرسم الصحيح.

ونحن لا ننادي بتغيير رسم المصاحف كلها، والقضاء على الأثر الكريم الذي وضعه السلف الصالح، وإنما الذي نحرص عليه، وندعو له، أن يفتح الباب أمام مصاحف تطبع على رسم الإملاء الحديث، لتسير جنبا لجنب مع المصاحف التي تطبع بالرسم العثماني، فيكون لتلك قراؤها من المبتدئين والمطالعين، وتكون هذه لأهلها من الحفاظ والمهرة والمتخصصين، وبذا تيسر قراءة القرآن، ونحفظ له رسمه الأول المأثور.

وما دام المعول عليه في القرآن، قديما وحديثا، هو التلقي، وما دام تغيير الرسم لا يغير النطق بل يحسنه، فإنه لا ضير على القرآن ولا على الإسلام من تعديل الرسم المخالف. وحيث انتفت المفسدة، وتحققت المصلحة وجب المصير إليها. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

قلنا: إن القرآن هدف أول للملحدين والمبشرين والمستشرقين، والتشكيك فيه من أي زاوية مقصد لهم كبير، وقد أثاروا شبها حول رسم المصحف، بنوها على روايات وآثار واهية.

وبرغم أن إثارة هذه الشبهات والتعرض لها، هو ـ في رأيي ـ يرفع من شأنها وقيمتها، وقد يحدث وهما في النفوس الجاهلة الضعيفة، وهو هدف الدساسين، برغم هذه العقيدة أرى لزاما على أن أعرضها لطالب العلم المثقف المشتغل بالقرآن، حتى يكون على بصيرة منها، كيلا تفجأه في يوم من الأيام فلا يسعفه الجواب.

الشبهة الأولى:

قالوا: روي عن عثمان أنه حين عرض عليه المصحف، قال: أحسنتم وأجملتم، إن في القرآن لحنا ستقيمه العرب بألسنتها.

وقالوا: روي عن عكرمة أنه قال: لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان، فوجد فيها حروفا من اللحن؛ فقال: لا تغيروها، فإن العرب ستغيرها، أو قال: ستعربها بألسنتها، لو كان الكاتب من ثقيف، والمملي من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف. فإذا كان هذا اعتراف عثمان في مصحفه، فكيف يكون موضع ثقة وإجماع؟

والجواب ما قاله الآلوسي في تفسيره: إن ذلك لم يصح عن عثمان أصلا.

الشبهة الثانية:

قالوا: روي عن سعيد بن جبير أنه كان يقرأ قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١٦٢). فلما أتى على قوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ﴾ قال: هو من لحن الكتاب.

والجواب عن هذه الشبهة نفس الجواب عن الشبهة السابقة وخصوصا أن ابن

جبير كان يقرأ بقراءة النصب وهي مخرجة على أن النصب على المدح. ولو كان الأثر صحيحا لقرأ برفع المقيمين، وهي قراءة صحيحة.

الشبهة الثالثة:

قالوا: روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا﴾ (النور: ٢٧) أنه قال: إن الكاتب أخطأ، والصواب «حتى تستأذنوا».

والجواب ما قاله أبو حيان: إن من روى عن ابن عباس أنه قال ذلك فهو طاعن في الإسلام، ملحد في الدين، وابن عباس بريء من ذلك القول.

الشبهة الرابعة:

قالوا: روي عن ابن عباس في كتاب الدر المنثور أنه قرأ: «أَفَلَمْ يتبين الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا»، فقيل له: إنها في المصحف: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (الرعد: ٣١). فقال: أظن الكاتب كتبها وهو ناعس.

والجواب ما قاله أبو حيان أيضا، قال: بل هو قول ملحد زنديق. وقال الزمخشري: ونحن ممن لا يصدق هذا في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

الشبهة الخامسة:

قالوا: روي عن ابن عباس أيضا أنه كان يقول في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: ٢٣)، إنما هي «ووصى ربك» التزقت الواو بالصاد، فقرأ الناس ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ ولو نزلت على القضاء ما أشرك أحد.

والجواب أنها رواية دساس رخيص، لأن ابن عباس نفسه كان يقرأ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾.

الشبهة السادسة:

قالوا: روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ (النور: ٣٥)، أنه قال: هي خطأ من الكاتب، هو أعظم من أن يكون نوره مثل المشكاة، إنما هي «مثل نور المؤمن كمشكاة».

والجواب أنها كذبة مفضوحة، لأنه لم ينقل عن أحد من القراء أن ابن عباس قرأ «مثل نور المؤمن كمشكاة».

الشبهة السابعة:

يقولون: روي عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال: سألت عائشة عن لحن القرآن، عن قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ (طه: ٦٣). وعن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾ (المائدة: ٦٩). فقالت: يا بن أخي. هذا من عمل الكتاب. قد أخطئوا في الكتاب.

والجواب: قال أبو حيان: لا يصح ذلك عن عائشة. وقال الزمخشري: لا يلتفت إلى ما زعموا من وقوع خطإ في خط المصحف. أ. هـ. وتأويل الآيات عربيا مشروح في كتب النحو.

والله تعالى أعلم

القراءات والقراء

القراءات جمع قراءة، مصدر قرأ، والقراءة في الاصطلاح مذهب يذهب إليه إمام من الأئمة مخالفا به غيره في النطق بالقرآن الكريم، مع اتفاق الروايات عنه.

والقراءات اختلاف في اللهجات، وكيفية النطق، وطرق الأداء فقط، من إدغام وإظهار، وتفخيم وترقيق، وإمالة وإشباع، ومد وقصر، وتشديد وتخفيف وتليين، إلخ. نزل بها جبريل على النبي ﷺ فقرأها رسول الله ﷺ على صحابته. فكانوا إذا أخذ أحدهم كيفية مخالفة لما أخذ الآخر عن رسول الله ﷺ، فقرأ على مسمع أخيه أنكره، واحتكما إلى النبي ﷺ، فأقر كلا على قراءته، وأعلن أنها مطابقا لما أنزل.

ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت هشام بين حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته. فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة، لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة. فانتظرته حتى سلم ثم لببته بردائه أو بردائي، فقلت: من أقرأك هذه السورة؟ قال، أقرأنيها رسول الله ﷺ. قلت له: كذبت. فو الله إن رسول الله ﷺ، أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها، فانطلقت أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت. يا رسول الله. إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، وأنت أقرتني سورة الفرقان، فقال رسول الله ﷺ: أرسله يا عمر. اقرأ يا هشام. فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرؤها. قال رسول الله ﷺ: هكذا أنزلت. ثم قال رسول الله ﷺ: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرءوا ما تيسر منه.

ومن ذلك ما رواه مسلم عن أبي بن كعب، قال: كنت في المسجد، فدخل رجل يصلي، فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر، فقرأ قراءة سوى قراءة

صاحبه. فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله ﷺ، فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر، فقرأ سوى قراءة صاحبه. فأمرهما رسول الله، فقرآ، فحسن النبي ﷺ شأنهما، فسقطت في نفسي من التكذيب ولا إذا كنت في الجاهلية.

فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني ضرب في صدري، ففضت عرقا، وكأنما أنظر إلى الله عزو وجل فرقا، فقال لي: يا أبي. أرسل إلى أن اقرأ القرآن على حرف. فرددت إليه، أن هون على أمتي. فرد إلي الثانية اقرأه على حرفين. فرددت إليه، أن هون على أمتي. فرد إلى الثالثة. اقرأه على سبعة أحرف، ولك بكل ردة رددتها مسألة تسألنيها، فقلت: اللهم اغفر لأمتي. اللهم أغفر لأمتي. وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم، حتى إبراهيم ﷺ.

ومن ذلك ما روي عن ابن مسعود أنه قال: أقرأني رسول الله ﷺ سورة من آل عمران. فرحت إلى المسجد، فقلت لرجل: اقرأها، فإذا هو يقرؤها حروفا ما أقرؤها؛ فقال: أقرأنيها رسول الله ﷺ. فانطلقنا إلى رسول الله ﷺ، فأخبرناه، فتغير وجهه، وقال: إنما أهلك من قبلكم الاختلاف.

وفي رواية البخاري قال ﷺ: «كلا كما محسن». وفي رواية ابن حبان. قال علي: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن يقرأ كل رجل منكم كما علم. قال ابن مسعود: فانطلقنا وكل رجل يقرأ حروفا لا يقرؤها صاحبه.

حكمة تعدد القراءات

من حديث أبي يظهر أن تعدد القراءات من فضل الله على الأمة تيسيرا عليها، فإن الأمة العربية كانت قبائل وشعوبا تختلف في اللهجات وطريقة الأداء، فلو أمرت كلها بقراءة واحدة لشق ذلك على غير الناطقين بتلك اللهجة.

ومن الحكم أيضا توضيح الحكم المقصود. فقراءة زيادة «من أم» في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ (النساء: ١٢). هذه القراءة تبين أن المراد من الأخ والأخت في هذا الحكم الإخوة لأم دون الأشقاء والإخوة لأب. وهذا الحكم مجمع عليه.

ومن الحكم بيان صلاحية الحكمين الشرعيين، كقراءة: ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ (المائدة: ٦)، بجر أرجل ونصبها.

وبالجملة: فإن تنوع القراءات بمثابة تعدد الآيات، وفي ذلك ضرب من البلاغة وبرهان على الإعجاز.

كيف صارت القراءات مذاهب للقراء

قلنا: إن الاعتماد في القرآن على التلقي والأخذ عن الحفاظ. ففي عهد رسول الله ﷺ، كان الصحابة حريصين على الأخذ من فم الرسول ﷺ بدون واسطة، ومن لم يستطع منهم ذلك أخذ عمن أخذ عن النبي ﷺ.

وقد اشتهر في كل طبقة من طبقات الأمة جماعة بحفظ القرآن وتحفيظه.

فاشتهر بذلك من الصحابة عثمان بن عفان، وعلى بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري، وغيرهم. وقد بعث عثمان بن عفان مع كل مصحف أرسله إلى الأمصار قارئا ماهرا من القراء، يجيد القراءة التي عنيت بها النسخة التي يحملها ليعلم الناس ويقرئهم.

وقلنا: إن الصحابة اختلف أخذهم عن النبي ﷺ، ثم انتشروا في الأمصار، يعلمون من وراءهم الحرف الذي علموه. فاختلف أخذ التابعين عن الصحابة كذلك.

وممن اشتهر من التابعين بالحفظ والتحفيظ بالمدينة: ابن المسيب، وعروة، وسالم، وعمر بن عبد العزيز، وسليمان بن يسار، وعطاء بين يسار، وزيد بن أسلم، ومسلم بن جندي، وابن شهاب الزهري، ومعاذ بن الحارث المشهور بمعاذ القارئ.

وبمكة اشتهر: عطاء، ومجاهد، وطاوس، وعكرمة، وابن أبي مليكة، وعبيد ابن عمير وغيرهم.

وبالبصرة اشتهر: عامر بن عبد القيس، وأبو العالية، وأبو رجاء ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، وجابر بن زيد، والحسن البصري، وابن سيرين، وقتادة، وغيرهم.

وبالكوفة اشتهر: علقمة، والأسود، ومسروق، وعبيدة، والربيع بن خيثم، والحارث بن قيس، وعمر بن شرحبيل، وعمر بن ميمون، وأبو عبد الرحمن السلمي، وزر بين حبيش، وعبيد بن فضلة، وأبو زرعة بن عمرو، وسعيد بين جبير، والنخعي، والشعبي، وغيرهم.

وبالشام اشتهر: المغيرة المخزومي، وخليد بن سعيد صاحب أبي الدرداء.

ثم تفرغ قوم للقراءات يضبطونها ويعنون بها ويعلمونها.

فكان بالمدينة منهم أبو جعفر بن يزيد القعقاع، ثم شيبة بن نصاح، ثم نافع بن أبي نعيم.

وكان بمكة عبد الله بن كثير، وحميد بن قيس الأعرج، ومحمد بن محيض.

وكان بالكوفة يحيى بن وثاب، وعاصم بن أبي النجود، وسليمان الأعمش، ثم حمزة، ثم الكسائي.

وكان بالبصرة عبد الله بن أبي إسحاق، وعيسى بن عمرو، وأبو عمرو بن العلاء، وعاصم الجحدري، ثم يعقوب الخضرمي.

وكان بالشام عبد الله بن عامر، وعطية بن قيس الكلابي، وإسماعيل بن عبد الله بن المهاجر ثم يحيى بن الحارث الذماري، ثم شريح بن يزيد الحضرمي.

وزادت شهرة بعض هؤلاء في الأمصار، حتى صاروا أئمة يرحل إليهم، ويتلقى منهم، وذاعت الثقة بهم، بسعة علمهم أكثر من غيرهم.

فكان الناس بالمدينة على قراءة نافع، وبمكة على قراءة ابن كثير، وبالكوفة على قراءة حمزة وعاصم، وبالبصرة على قراءة أبي عمر ويعقوب، وبالشام على قراءة ابن عامر.

نشأة القراءات علماً

أول من ألف في القراءات بصفتها علما يجمع أقوال القراء أبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو حاتم السجستاني، وأبو جعفر الطبري، وإسماعيل بن إسحاق.

ولم يقتصر واحد منهم في تأليفه على هؤلاء السبعة المشهورين. فأبو عبيد القاسم ساق أولا أسماء من نقلت عنهم القراءات من الصحابة والتابعين، وقال عنهم: فهؤلاء هم الذين يحكى عنهم علم القراءة، وإن كان الغالب عليهم الفقه والحديث. وقال: ثم قام من بعدهم بالقراءات قوم ليست لهم أسنانهم، ولا تقدمهم، غير أنهم تجردوا للقراءات، واشتدت عنايتهم بها، وطلبهم لها، حتى صاروا بذلك أئمة يقتدى الناس بهم فيها.

وذكر أبو عبيد من القراء خمسة عشر رجلا، من كل مصر ثلاثة قراء.

فذكر من المدينة: أبا جعفر، وشيبة، ونافعا. وذكر من مكة: ابن كثير، وابن محيض، وحميدا الأعرج. وذكر من أهل البصرة: أبا عمرو، وعيسى بن عمرو، وعبد الله بن أبي إسحاق. وذكر من أهل الكوفة: يحيى بن وثاب، وعاصما، والأعمش. وذكر من أهل الشام: عبد الله بن عامر، ويحيى بن الحارث. قال: وذهب عني الثالث.

ولم يذكر في الكوفيين حمزة ولا الكسائي، بل قال: إن جمهور أهل الكوفة بعد الثلاثة صاروا إلى قراءة حمزة، ولم يجتمع عليه جماعتهم. قال: وأما الكسائي فكان يتخير القراءات، فأخذ من قراءة الكوفيين بعضا وترك بعضا.

وذكر أبو حاتم السجستاني زيادة على عشرين رجلا، ولم يذكر فيهم ابن عامر، ولا حمزة، ولا الكسائي. وذكر الطبري في كتابه اثنين وعشرين قارئا.

وهكذا نرى أن شهرة القراء في العصر الأول كانت تختلف في نظر الكاتبين، وأن اتجاه الناس إليهم كان يختلف من حين إلى حين.

ولذلك، يقول مكي: وكان الناس على رأس المائتين بالبصرة على قراءة أبي عمرو، ويعقوب، وبالكوفة على قراءة حمزة، وعاصم، وبالشام على قراءة ابن عامر، وبمكة على قراءة ابن كثير، وبالمدينة على قراءة نافع. واستمروا على ذلك.

واشتهرت قراءة هؤلاء السبعة في الأمصار الإسلامية، من غير أن تأخذ شهرة خاصة في التدوين، حتى نهاية القرن الثالث الهجري، إذ قام ابن مجاهد فألف كتابه، فجمع فيه قراءات هؤلاء السبعة، غير أنه أثبت اسم الكسائي، وحذف يعقوب.

والسبب في الاقتصار على السبعة، مع أن في أئمة القراء من هو أجل منهم قدرا، أن الرواة عن الأئمة كانوا كثيرين جدا، فلما تقاصرت الهمم اقتصروا مما يوافق خط المصحف، على ما يسهل حفظه، وتنضبط القراءة به، فنظروا إلى من اشتهر بالثقة والأمانة، وطول العمر في ملازمة القراء، والاتفاق في الأخذ عنه، فأفردوا من كل مصر إماما واحدا.

وقد أراد ابن مجاهد وغيره مراعاة عدد المصاحف مع عدد القراء، فاستبدل بالبحرين واليمن قارئين بالإضافة إلى الخمسة، فأصبح عدد القراء المشهورين سبعة.

وعلى هذا، فاقتصار ابن مجاهد على هؤلاء السبعة ليس بحاصر للقراءة فيهم، ولا يلزم أحدا أن يقف عند قراءاتهم.

قال ابن السمعاني: والتمسك بقراءة سبعة من القراء دون غيرهم ليس فيه أثر، ولا سنة، وإنما هؤلاء من جمع بعض المتأخرين، فانتشر رأيهم أنه لا تجوز الزيادة على ذلك.

أما بقية القراءات العشر، فهذه السبع يضاف إليها قراءة يعقوب، وأبي جعفر، وخلف.

ولتكون القراءات أربع عشرة يضاف إلى ما ذكر قراءة الحسن البصري، وابن محيض، ويحيى اليزيدي، والشنبوذي.

أقسام القراءات باعتبار السند

وكما قسم أهل الحديث الإسناد إلى إسناد عال، وإسناد نازل، قسم القراء أحوال الإسناد إلى: قراءة، ورواية، وطريق، ووجه.

فالقراءة: ما كان الخلاف فيها لأحد الأئمة السبعة، أو العشرة، أو الأربعة عشر، أو نحوهم، واتفقت عليه الروايات والطرق.

والرواية: ما كان الخلاف فيه للراوي عن الإمام، واتفقت الطرق عنه.

والطريق: ما كان الخلاف فيه لمن بعد الراوي عن الإمام فنازلا.

والوجه: هو الخلاف الراجع إلى تخيير القارئ فيه.

ضوابط قبول القراءات

وضع العلماء ضابطا للقراءة الصحيحة، فقالوا:

كل قراءة وافقت أحد المصاحف العثمانية ولو تقديرا، ووافقت العربية ولو بوجه، وصح إسنادها إلى رسول الله ﷺ، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها، ولا يحل إنكاره، سواء كانت عن السبعة أو عن غيرهم.

وكل قراءة اختل منها ركن من هذه الأركان الثلاثة، فهي شاذة ولو كانت لأحد السبعة.

وقد نظم بعض العلماء هذا الضابط، فقال:

وكل ما وافق وجه النحو … وكان للرسم احتمالا يوحى
وصح إسنادا هو القرآن … فهذه الثلاثة الأركان
وحيثما يختل ركن أثبت … شذوذه لو أنه في السبعة

فقولهم: «ما وافق أحد المصاحف العثمانية» يقصدون به أن تكون القراءة ثابتة ولو في بعض المصاحف دون بعض، كقراءة ابن كثير «جنات تجري من تحتها الأنهار» في الموضع الأخير من سورة التوبة، بزيادة كلمة «من» فإن ذلك ثابت في المصحف المكي.

وقولهم: «ولو تقديرا» يقصدون به أنه يكفي في القراءة أن توافق رسم المصحف ولو موافقة غير صريحة كقوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة: ٤)، فإنه رسم في جميع المصاحف بحذف الألف من كلمة «مالك». فقراءة حذف الألف موافقة للرسم تحقيقا، وقراءة الألف موافقة للرسم تقديرا.

قال العلامة النويري:

«ومخالفة الرسم اللفظ محصورة في خمسة أقسام، وهي: الدلالة على البدل، نحو «الصراط»، وعلى الزيادة نحو «ملك»، وعلى الحذف نحو «لكنّا هو الله ربي»، وعلى الفصل نحو «فمال هؤلاء»، وعلى أن الأصل الوصل نحو «ألا يسجدوا».

فقراءة الصاد، والحذف، والإثبات، والفصل، والوصل، خمستها وافقها الرسم تحقيقا، وغيرها تقديرا، لأن السين تبدل صادا قبل أربعة أحرف منها الطاء، وألف «مالك» عند المثبت زائدة، وأصل «لكنا» الإثبات، وأصل «فمال» الفصل، وأصل «ألا يسجدوا» الوصل.

فالبدل في حكم المبدل منه؛ وكذا الباقي.

وذلك ليتحقق الوفاق التقديري، لأن اختلاف القراءتين إذا كان بتغاير دون تضاد ولا تناقض فهو في حكم الموافق، وإذا كان بتضاد أو تناقض ففي حكم المخالف.

والواقع الأول فقط، وهو الذي لا يلزم من صحة أحد الوجهين فيه بطلان الآخر. وتحقيقه أن اللفظ تارة يكون له جهة واحدة فيرسم على وفقها، فالرسم هنا حصر جهة اللفظ، فمخالفه مناقض، وتارة يكون له جهات، فيرسم على إحداها، فلا يحصر جهة اللفظ، فاللافظ به موافق تحقيقا، وبغيره تقديراً، لأن البدل في الحكم المبدل منه، وكذا بقية الخمسة.

القسم الثالث: ما وافق الرسم احتمالا، ويندرج فيه ما وقع الاختلاف فيه بالحركة والسكون نحو « القدس»، وبالتخفيف والتشديد نحو« ينشركم» في سورة يونس، وبالقطع والوصل المعبر عنه بالشكل نحو« ادخلوا» بسورة غافر، وباختلاف الإعجام نحو « يعلمون»، وبالإعجام والإهمال نحو « ننشزها» فإن المصاحف العثمانية هكذا كلها لتجردها عن أوصافها. ثم إن بعض الألفاظ يقع فيه موافقة إحدى القراءتين أو القراءات تحقيقا نحو « أنصار الله».

واعلم أن مخالف صريح الرسم في حرف مدغم أو مبدل أو ثابت أو محذوف أو نحو ذلك لا يُعَدّ مخالفا إذا ثبتت القراءة به، ووردت مشهورة، بخلاف زيادة

كلمة ونقصانها، وتقديمها وتأخيرها، حتى ولو كانت حرف معني، فإن له حكم الكلمة، ولا تسوغ مخالفة الرسم فيه، وهذا هو الحد الفاصل في حقيقة اتباع الرسم ومخالفته». أ. هـ.

وقولهم في الضابط المذكور « ووافق العربية ولو بوجه»، يقصدون به أن توافق القراءة وجها من وجوه قواعد اللغة، سواء كان أفصح أم فصيحا، مجمعا عليه أم مختلفا فيه اختلافا لا يضر مثله، إذا كانت القراءة مما شاع وذاع، وتلقاها الأئمة بالإسناد الصحيح. وهذا هو المختار عند المحققين.

يقول أبو عمرو الداني في كتابه « جامع البيان» بعد ذكره إسكان الهمزة في «بارئكم» وراء « يأمركم » في قراءة أبي عمر، وبعد حكاية إنكار سيبويه لذلك يقول ما نصه: والإسكان أصح في النقل وأكثر في الأداء، وهو الذي أختاره، وآخذ به. . . إلى أن قال: وأئمة القراء لا تعتمد في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة، والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر، والأصح في النقل. والرواية إذا ثبتت عندهم لا يردها قياس عربية، ولا فشو لغة، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها، والمصير إليها. أ. هـ.

وقولهم في الضابط « وصح إسناده»، يقصدون به أن يروي تلك القراءة عدل تام الضبط عن مثله متصل السند إلى الرسول ﷺ من غير شذوذ ولا علة قادحة.

بل شرطوا فوق هذا أن تكون الرواية مشهورة عند أئمة هذا الشأن الضابطين له، غير معدودة عندهم من الغلط، ولا ما شذ به بعضهم.

والمحقق ابن الجزري يشترط التواتر ويصرح به في هذا الضابط، ويرى أن ما اشتهر واستفاض موافقا الرسم والعربية في قوة المتواتر في القطع بقرآنيته.

وقال أبو شامة في كتابه« المرشد الوجيز» مانصه:

«لا ينبغي أن يغتر بكل قراءة تعزى إلى واحد من هؤلاء السبعة، ويطلق عليها لفظ الصحة، وأنها كذلك أنزلت، إلا إذا دخلت في ذلك الضابط، وحينئذ لا ينفرد بنقلها مصنف عن غيره، ولا يختص ذلك بنقلها عنهم. بل إن نقلت عن

غيرهم من القراء فذلك لا يخرجها عن الصحة، فإن الاعتماد على استجماع تلك الأوصاف، لا على من تنسب إليه.

والقراءات المنسوبة إلى كل قارئ من السبعة وغيرهم منقسمة إلى المجمع عليه والشاذ، غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم، وكثرة الصحيح المجمع عليه في قراءاتهم تركن النفس إلى ما نقل عنهم فوق ما نقل من غيرهم». أ. هـ.

ما يقبل من القراءات وما لا يقبل

قال الإمام مكي: فإن سأل سائل: ما الذي يقبل من القراءات الآن، فيقرأ به؟ وما الذي يقبل ولا يقرأ به؟ وما الذي لا يقبل ولا يقرأ به؟ فالجواب: أن جميع ما روي من القراءات على أقسام:

(١) قسم يقرأ به اليوم، وذلك ما اجتمع فيه ثلاث خلال، وهن: أن ينقل عن الثقات، عن النبي ﷺ، ويكون وجهه في العربية التي نزل بها القرآن سائغا، ويكون موافقا لخط المصحف. فإذا اجتمعت فيه هذه الخلال الثلاث قرئ به، وقطع على تعينه وصحته وصدقه، وكفر من جحده.

(٢) القسم الثاني: ما صح نقله عن الآحاد، وصح وجهه في العربية، وخالف لفظه خط المصحف، فهذا يقبل (على أنه خبر شرعي يصح الاحتجاج به عند من يرى ذلك) ولا يقرأ به لعلتين: إحداهما أنه لم يؤخذ عن إجماع، إنما أخذ بأخبار الآحاد، ولا يثبت قرآن يقرأ به بخبر الواحد. والعلة الثانية: أنه مخالف لما أجمع عليه، فلا يقطع على تعينه وصحته، وما لم يقطع على صحته لا تجوز القراءة به، ولا يكفر من جحده، ولبئس ما صنع إذا جحده.

(٣) والقسم الثالث: هو ما نقله غير ثقة، أو نقله ثقة ولا وجه له في العربية، فهذا لا يقبل وإن وافق خط المصحف. قال: ولكل صنف من هذه الأقسام تمثيل تركنا ذكره اختصارا. أ. هـ.

وقام ابن الجزري بالتمثيل له، فقال:

(١) مـثـال القـسـم الأول: «مـلك ومـالك». «يخـدعـون ويخـادعـون»، وأوصى ووصى» ونحو ذلك من القراءات المشهورة.

(٢) ومثال الثاني: قراءة ابن مسعود وأبي الدرداء «والذكر والأنثى» في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ﴾ (الليل: ٣)، بحذف لفظ ﴿ما خلق﴾. وقراءة ابن عباس «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا» بإبدال كلمة «أمام» بدل «وراء» وبزيادة كلمة «صالحة».

(٣) ومثال الثالث: مما نقله غير ثقة كثير، كما في كتب الشواذ مما غالب إسناده ضعيف. كالقراءة المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة ﷺ، والتي جمعها أبو الفضل محمد بن جعفر الخزاعي، ونقلها عنه أبو القاسم الهذلي وغيره: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءَ﴾ (فاطر: ٢٨)، برفع لفظ الجلالة، ونصب لفظ «العلماء».

وأما ما نقله ثقة، ولا وجه له في العربية، فهو لا يكاد يوجد، لأنه لا يصدر إلا على وجه السهو والغلط، وقد جعل منه بعضهم (رواية خارجة عن نافع) «معائش» بالهمز.

ثم قال: ويبقى قسم مردود أيضا، وهو ما وافق العربية والرسم ولم ينقل ألبتة. فهذا رده أحق، ومنعه أشد، ومرتكبه مرتكب لعظيم من الكبائر.

قال الإمام أبو طاهر بن أبي هاشم في كتابه «البيان»: وقد نبغ نابغ في عصرنا فزعم أن كل ما صح عنده وجه في العربية بحرف من القرآن يوافق المصحف، فقراءته جائزة في الصلاة وغيرها، فابتدع بدعة ضل بها قصد السبيل. وذكر الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد أن هذا النابغ عقد له بسبب ذلك مجلس ببغداد حضره الفقهاء والقراء، وأجمعوا على منعه، وأوقف للضرب، ورجع، وكتب عليه محضر بذلك.

تواتر القراءة

تبين من ضابط القراءة المقبولة أن القراء لا يشترطون التواتر فيها، وإنما يكتفون بالنقل الصحيح المشهور، مع الركنين الآخرين.

وقد اعترض على هذا بأنه مخالف للإجماع على أن قرآنية القرآن لابد فيها من التواتر. وأجيب بأن هذه الأركان الثلاثة تكاد تكون مساوية للتواتر في إفادة العلم القاطع بالقراءة المقبولة. وذلك لأن ما بين دفتي المصحف متواتر، ومجمع عليه. فإذا صح سند القراءة ووافقت قواعد اللغة، ووافقت خط هذا المصحف المتواتر، كانت هذه الموافقة قرينة على إفادة العلم القاطع، وإن كانت رواية آحاد. إذ من المقرر في علوم الحديث أن خبر الآحاد يفيد العلم إذا احتفت به قرينة توجب ذلك.

فكأن التواتر كان يطلب تحصيله في الإسناد قبل أن يقوم المصحف وثيقة متواترة. أما بعد وجود هذا المصحف عليه، فيكفي في الرواية صحتها وشهرتها متى وافقت رسم هذا المصحف في العربية.

قال المحقق ابن الجزري: قولنا «وصح سندها»، نعني به أن يروي تلك القراءة العدل الضابط عن مثله، وهكذا حتى ينتهي، وتكون مع ذلك مشهورة عند أئمة هذا الشأن الضابطين له، غير معدودة عندهم من الغلط أو مما شذ به بعضهم. ثم قال:

«وقد شرط بعض المتأخرين التواتر في هذا الركن، ولم يكتف بصحة السند، وزعم أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، وأن ما جاء مجيء الآحاد لا يثبت به قرآن. وهذا مما لا يخفى ما فيه، فإن التواتر إذا ثبت لا يحتاج فيه إلى الركنين الآخرين من موافقة رسم المصحف وغيره، إذا ما ثبت من أحرف الخلاف متواترا عن النبي ﷺ وجب قبوله، وقطع بكونه قرآنا، سواء وافق الرسم أم خالفه». أ. هـ.

أنواع القراءات من حيث السند

نقل السيوطي عن ابن الجزري أن أنواع القراءة ستة:

الأول: القراءة المتواترة: وهي ما رواها جمع عن جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب، عن مثلهم، إلى منتهاه. وغالب القراءات كذلك. مثالها: ما اتفقت الطرق في نقله عن السبعة.

الثاني: القراءة المشهورة: وهي ما صح سندها، بأن رواها العدل الضابط عن مثله، وهكذا إلى رسول الله ﷺ، ووافقت العربية، ووافقت رسم أحد المصاحف العثمانية. سواء رويت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم، واشتهرت عند القراء فلم يَعُدُّوها من الغلط ولا من الشذوذ، إلا أنها لم تبلغ درجة التواتر. مثالها: ما اختلفت الطرق في نقله عن السبعة، فرواه بعض الرواة عنهم دون بعض.

ومن أشهر ما صنف في هذين النوعين (المتواترة والمشهورة) التيسير للداني والشاطبية، وطيبة النشر في القراءات العشر.

وهذان النوعان هما اللذان يقرأ بهما.

الثالث: قراءة الآحاد، وهي ما صح سندها، وخالفت الرسم أو العربية، أو وافقت الرسم والعربية، ولم تشتهر الاشتهار المطلوب. مثالها ما رواه الحاكم عن عاصم الجحدري عن أبي بكرة أن النبي ﷺ قرأ: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ (الرحمن: ٧٦) «رفارف خُضُر (بضمتين) وعباقري (كمدائني)». وما أخرجه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قرأ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ (التوبة: ١٢٨) بفتح الفاء.

وهذا النوع لا يقرأ به ولا يجب اعتقاده.

الرابع: القراءة الشاذة، وهي ما لم يصح سندها وفيها كتب مؤلفة، ومنه قراءة «ملك يوم الدين» بصيغة الفعل الماضي.

الخامس: القراءة الموضوعة، وهي ما نسبت إلى قائل من غير أن يكون لها أصل كقراءة الخزاعي المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨) برفع لفظ الجلالة ونصب «العلماء».

السادس: القراءة التي تشبه المدرج من الحديث، وهي مازيد فيها في القرآن على وجه التفسير، كقراءة سعد بن أبي وقاص، وقال: «وله أخ أو أخت من أم» بزيادة لفظ «من أم».

تواتر القرآن وحكم البسملة

قال السيوطي في الإتقان: لا خلاف في أن كل ما هو من القرآن يجب أن يكون متواترا في أصله وأجزائه. وأما في محله ووضعه وترتيبه، فكذلك عند محققي أهل السنة، للقطع بأن العادة تقضي بالتواتر في تفاصيله مثله. فما نقل آحادا ولم يتواتر يقطع بأنه ليس من القرآن قطعا.

وذهب كثير من الأصوليين إلى أن التواتر شرط في ثبوت ما هو من القرآن بحسب أصله، وليس بشرط في محله ووضعه وترتيبه، بل يكثر فيها نقل الآحاد. وذهب قوم إلى أن التواتر شرط في ثبوت ما هو من القرآن بحسب أصله ومحله. وقالوا: لو لم يشترط التواتر في المحل لجاز سقوط كثير من القرآن المكرر مثل ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: ١٣ . . . . إلخ).

وتفرع عن هذا الحكم خلاف في البسملة:

فالمالكية بنوا حكمهم بإنكار البسملة على هذا الأصل، وقرروا أنها لم تتواتر في أوائل السور، وما لم يتواتر فليس بقرآن.

والشافعية برغم ميلهم إلى الرأي الأول ردوا على المالكية بمنع كونها لم تتواتر، وقالوا: رب متواتر عند قوم دون آخرين، ورب متواتر في وقت دون آخر، ويكفي في تواتر البسملة إثباتها في مصاحف الصحابة، فمن بعدهم، بخط المصحف، مع منعهم أن يكتب في المصحف ما ليس منه، كأسماء السور، وآمين، والأعشار. فلو لم تكن قرآنا لما استجازوا إثباتها بخطه من غير تمييز، لأن ذلك يحمل على اعتقاد كونها قرآنا، فيكونون مغررين بالمسلمين، حاملين لهم على اعتقاد ما ليس بقرآن قرآنا، وهذا مما لا يجوز اعتقاده في الصحابة. فإن قيل: لعلها أثبتت للفصل بين السور، أجيب بأن هذا فيه تغرير، ولا يجوز ارتكابه لمجرد الفصل.

ويدل على كونها قرآنا منزلا ما أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم وغيرهم عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان يقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: ١، ٢). الحديث، وفيه: وعَدَّ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ آية، ولم يعد ﴿عَلَيْهِمْ﴾(الفاتحة: ٧).

وأخرج أبو داود والحاكم والبيهقي والبزار من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: كان النبي ﷺ لا يعرف فصل السورة حتى تنزل عليه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. زاد البزار: «فإذا نزلت عرف أن السورة قد ختمت، واستقبلت أو ابتدأت سورة أخرى».

وأخرج الحاكم من وجه آخر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: كان المسلمون لا يعلمون انقضاء السورة حتى تنزل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فإذا نزلت علموا أن السوة قد انقضت. أ. هـ. وإسناده على شرط الشيخين.

قال أبو شامة: يحتمل أن يكون ذلك وقت عرضه ﷺ على جبريل، كان لا يزال يقرأ في السورة، إلى أن يأمره جبريل بالتسمية، فيعلم أن السورة قد انقضت. وعبر ﷺ بلفظ النزول إشعارا بأنها قرآن في جميع أوائل السور. ويحتمل أن يكون المراد: أن جميع آيات كل سورة كانت تنزل قبل نزول البسملة، فإذا أكملت آياتها نزل جبريل بالبسملة واستعرض السورة، فيعلم ﷺ أنها قد ختمت ولا يلحق بها شيئا.

وبعد أن استعرض السيوطي كثيرا من الأحاديث قال: فهذه الأحاديث تعطي التواتر المعنوي بكونها قرآنا منزلا في أوائل السور. أ. هـ.

القراءات السبع

إن تقييم القراءات السبع، ومدى الجزم بصحتها وقبولها، والحكم بتواترها، وعدم تواترها موضع أخذ ورد، ونقاش طويل بين العلماء، وسنسوق الآراء باختصار ضبطا للموضوع، ثم نختتم بالرأي المختار.

(١) يبالغ بعضهم في الإشادة بالقراءات السبع، ويقول: من زعم أنها لا يلزم فيها التواتر، فقوله كفر لأنه يؤدي إلى عدم تواتر القرآن جملة. ويعزى هذا الرأي إلى مفتي البلاد الأندلسية (أبي سعيد بن لب)، وتحمس لرأيه بعض العلماء. ويرد عليه بأن هناك فرقا بين القرآن والقراءات، فيصح أن يكون القرآن متواترا في غير القراءات السبع، أو في القدر الذي اتفق عليه القراء جميعا، أو في القدر الذي اتفق عليه عدد يؤمن تواطؤهم على الكذب.

(٢) ويبالغ بعضهم في توهين القراءات السبع ، ويزعم أنه لا فرق بينها وبين سائر القراءات ، ويحكم بأن الجميع روايات آحاد. والرد عليه سيتضح في النصوص الآتية بعد.

(٣) ويذهب ابن الحاجب إلى أن القراءات السبع متواترة ، غير أنه يستثنى منها ما كان من قبيل الأداء كالمد والإمالة وتخفيف الهمزة. قال ابن قاسم : إن أريد بتواتر ما كان من قبيل الأداء تواتره باعتبار أصله ، كأن يراد تواتر المد من غير نظر لمقداره ، وتواتر الإمالة كذلك ، فالوجه خلاف ما قال ابن الحاجب ، للعلم بتواتر ذلك. وإن أريد تواتر الخصوصيات الزائدة على الأصل ، فالوجه ما قاله ابن الحاجب.

(٤) ويذهب أبو شامة : إلى أن القراءات السبع متواترة فيما اتفقت الطرق على نقله عن القراء ، أما ما اختلفت الطرق في نقله عنهم فليس بمتواتر ، سواء أكان الاختلاف في أداء الكلمة أم في لفظها.

(٥) ويقول ابن السبكي في جمع الجوامع : «القراءات السبع متواترة تواترا تاما ، أي نقلها عن النبي ﷺ جمع يمتنع عادة تواطؤهم على الكذب ، ولا يضر كون أسانيد القراء آحادا ، إذ تخصيصها بجماعة لا يمنع مجيء القراءات من غيرهم ، بل هو الواقع ، فقد تلقاها عن أهل كل بلد بقراءة إمامهم الجم الغفير عن مثلهم. وهلم جرا. وإنما أسندت إلى الأئمة المذكورين ورواتهم المذكورين في أسانيدهم ، لتصديهم لضبط حروفها ، وحفظ شيوخهم الكمل فيها» أ. هـ.

والذي تستريح إليه النفس من هذه الآراء ما قاله أبو شامة من أنه وإن قلنا : إن القراءات الصحيحة إليهم نسبت ، وعنهم نقلت ، فلا يلزم أن جميع ما نقل عنهم بهذه الصفة ، بل فيه الضعيف لخروجه عن الأركان الثلاثة ، ولهذا ترى كتب المصنفين مختلفة في ذلك. فالاعتماد في ذلك على الضابط المتفق عليه.

القراءات العشر

ومثل الخلاف السابق في القراءات السبع ، حصل الخلاف في القراءات الثلاث المتممة للعشر ، فيعزى إلى ابن السبكي القول بتواترها كالسبع. ويعزى إلى الجلال

المحلى القول بصحتها. ويعزى إلى الفقهاء القول بشذوذها، لأنهم يقولون بشذوذ كل ما وراء السبع.

وقد دافع ابن الجزري عن القراءات العشر، فقال:

«الفصل الثاني في أن القراءات العشر متواترة فرشا وأصولا، حال اجتماعهم وافتراقهم». اعلم أن العلماء بالغوا في ذلك نفيا وإثباتا، وأنا أذكر أقوال كل، ثم أبين الحق من ذلك.

أما من قال بتواتر الفرش (الجزئيات التي لا يقاس عليها) دون الأصول فابن الحاجب، قال في مختصر الأصول له: القراءات السبع متواترة فيما ليس من قبيل الأداء، كالمد والإمالة وتخفيف الهمزة ونحوه. أ. هـ. فزعم أن المد والإمالة وما أشبه ذلك من الأصول كالإدغام وترقيق القراءات وتفخيم اللامات وثقل الحركة، وتسهيل الهمزة من قبيل الأداء، وأنه غير متواتر. وهذا قول غير صحيح كما سنبينه.

ثم تكلم ابن الجزري كلاما طويلا عن المد والإمالة وتخفيف الهمزة وحمل على ابن الحاجب حملة عنيفة. ثم تعرض لأبي شامة القائل: إن القراءات متواترة حال اجتماع القراء لا حال افتراقهم. ونقل عنه كلامه... وقد جاء في نهاية كلام أبي شامة قوله:

وقد شاع على ألسنة جماعة المقرئين المتأخرين، وغيرهم من المقلدين: أن القراءات السبع كلها متواترة، أي في كل فرد ممن روى عن هؤلاء الأئمة السبعة، قالوا: والقطع بأنها منزلة من عند الله تعالى واجب. قال: ونحن بهذا نقول. لكن فيما اجتمعت على نقله عنهم الطرق، واتفقت عليه الفرق، من غير نكير له مع أنه شاع واشتهر واستفاض، فلا أقل من اشتراط ذلك إذا لم يتفق التواتر في بعضها. أ. هـ. كلام أبي شامة. ثم حمل عليه ابن الجزري بأن كلامه ساقط، خرج من غير تأمل.

وبعد صولة وجولة من ابن الجزري، قال: ومما يحقق لك أن قراءة أهل كل بلد

متواترة بالنسبة إليهم أن الإمام الشافعي ﷺ جعل البسملة من القرآن، مع أن روايته عن شيخه مالك تقتضي عدم كونها من القرآن، لأنه من أهل مكة، وهم يثبتون البسملة بين السورتين، ويعدونها من أول الفاتحة آية، وهو قرأ قراءة ابن كثير على إسماعيل القسط عن ابن كثير فلم يعتمد في روايته عن مالك في عدم البسملة، لأنها آحاد، واعتمد على قراءة ابن كثير لأنها متواترة، أ. هـ.

وقال السبكي في شرح المنهاج: صرح كثير من الفقهاء بأن ما عدا السبعة شاذ، توهما منه انحصار المشهور في السبعة.

والحق أن الخارج عن السبعة على قسمين:

الأول: ما يخالف رسم المصحف، فلا شك في أنه ليس بقرآن.

والثاني: ما لا يخالف رسم المصحف وهو على قسمين أيضا.

(١) ما ورد من طريق غريبة، فهذا ملحق بالأول.

(٢) ما اشتهر عند أئمة هذا الشأن القراءة به، قديما وحديثا، فهذا لا وجه للمنع منه.

ثم قال: وهذا التفصيل بعينه وارد في الروايات عن السبعة، فإن عنهم شيئا كثيرا من الشواذ، وهو الذي لم يأت إلا من طريق غريبة وإن اشتهرت القراءة من ذلك المفرد. وهذا الذي قاله السبكي يُعَدُّ مع ما قاله أبو شامة فصل الخطاب، والله أعلم.

القراء السبعة

(١) ابن عامر:

اسمه عبد الله، وكنيته أبو نعيم، تابعي جليل، أخذ القراءة عن المغيرة بن أبي شهاب المخزومي، عن عثمان بن عفان، عن رسول الله ﷺ. توفى بدمشق سنة ١١٨هـ. وقد اشتهر برواية قراءته هشام وابن ذكوان، ولكن بالواسطة الآتية:

أخذ «هشام» القراءة عن عراك بن خالد المزي، عن يحيى بن الحارث الذماري، عن ابن عامر. توفى سنة ٢٤٢هـ.

(٢) ابن كثير:

هو عبد الله بن كثير الداري، إمام الناس في القراءة بمكة. واشتهر بالسكينة والوقار، تابعي جليل، لقى من الصحابة عبد الله بن الزبير، وأبا أيوب الأنصاري، وأنس بن مالك.

روى عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي كعب عن رسول الله ﷺ. وقرأ على أبي بن كعب وعمر بن الخطاب، وكلاهما قرأ على رسول الله ﷺ. توفى بمكة سنة ١٢٠هـ. اشتهر بالرواية عنه البزي وقنبل، ولكن بالواسطة الآتية:

أخذ البزي القراءة عن عكرمة عن شبل بن عباد عن ابن كثير. وكان إماما ضابطا ثقة، انتهت إليه مشيخة الإقراء بمكة. توفى عام ٢٥٠هـ.

وأما قنبل فقد أخذ القراءة عن أبي الحسن القواس عن وهب، عن القسط، عن ابن كثير. توفى سنة ٢٩١هـ.

(٣) عاصم:

هو عاصم بن أبي النجود الأسدي، كان قارئا متقنا، حسن الصوت. قرأ على زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ، توفى بالكوفة سنة ١٢٧هـ. روى عنه شعبة وحفص، كلاهما بدون واسطة. أما شعبة فقد توفى سنة ١٩٣هـ. وأما حفص فهو ربيب «عاصم»، تربى في حجره. وقرأ عليه وهو صغير توفى سنة ١٨٠هـ.

(٤) أبو عمرو:

هو أبو عمرو زبان بن العلا بن عمار البصري. روى عن مجاهد، وسعيد بن

جبير، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، عن رسول الله ﷺ، توفى سنة ١٥٤هـ. وممن اشتهر بالرواية عنه الدوري والسوسي ولكن بواسطة:

فالدوري والسوسي كلاهما أخذ القراءة عن اليزيدي خال الخليفة المهدي، عن أبي عمرو. وتوفى الدوري سنة ٢٤٦هـ. وأما السوسي فقد توفى سنة ٢٦١هـ.

(٥) حمزة:

هو حمزة بن حبيب الزيات الكوفي مولى عكرمة بن ربيع التميمي. أخذ القراءة عن سليمان بن مهران الأعمش، عن يحيى بن وثاب، عن زر بن حبيش، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ توفى بحلوان سنة ١٥٦هـ.

وممن اشتهر بالرواية عنه خلف، وخلاد، ولكن بواسطة سليم بن عيسى الحنفي. وتوفى خلف سنة ٢٢٩هـ. وتوفى خلاد سنة ٢٢٠هـ.

(٦) نافع:

هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني.

أخذ القراءة عن أبي جعفر القارئ، وعن سبعين من التابعين، وهم أخذوا عن عبد الله بن عباس وأبي هريرة، عن أبي بن كعب، عن رسول الله ﷺ. توفى سنة ١٦٩هـ. وممن اشتهر بالرواية عنه قالون وورش، بدون واسطة.

أما قالون فهو عيسى بن مينا النحوي، لقب بقالون لجودة قراءته، لأن قالون معناه الجيد في أصل وضعها. توفى سنة ٢٢٠هـ.

وأما ورش فهو عثمان بن سعيد المصري، ويلقب بورش لشدة بياضه. رحل إلى المدينة فقرأ على نافع، ثم رجع إلى مصر، وكان حسن الصوت. توفى سنة ١٩٧هـ.

(٧) الكسائي:

هو على بن حمزة الكسائي النحوي. توفى سنة ١٨٩هـ. واشتهر بالرواية عنه أبو الحارث والدوري.

أما الحارث فقد توفى سنة ٢٤٠هـ. وأما الدوري فقد سبق الكلام عنه في رواة أبي عمرو.

تتمـــة العـــشرة:

(٨) أبو جعفر:

هو يزيد بن القعقاع القارئ، أخذ عن ابن عباس وأبي هريرة، عن أبي بن كعب، عن رسول الله ﷺ. توفى سنة ١٣٠هـ. اشتهر بالرواية عنه أبو موسى الحذاء، وأبو ربيع بن مسلم بن جماز. توفى أبو موسى سنة ١٦٠هـ. وتوفى ابن جماز سنة ١٧٠هـ.

(٩) يعقوب:

هو يعقوب بن إسحاق الحضرمي. قرأ على أبي المنذر سليمان بن سليمان الطويل، على عاصم، على أبي عمرو. توفى سنة ٢٠٥هـ. واشتهر بالرواية عنه روح بن عبد المؤمن، ومحمد بن المتوكل اللؤلؤي، الملقب برويس. توفى روح سنة ٢٣٤هـ. توفى رويس سنة ٢٣٨هـ.

(١٠) خلف:

هو خلف بن هشام بن ثعلب بن خلف بن ثعلب. قرأ على سليم عن حمزة. توفى سنة ٢٢٩هـ. اشتهر بالرواية عنه أبو يعقوب إسحق المروزي البغدادي الوراق المتوفى سنة ٢٧٦هـ.

نزول القرآن على سبعة أحرف

روي عن مسلم عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ كان عند أضاة بني غفار، قال: فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف. فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك.

ثم أتاه الثانية، فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين. فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك.

ثم جاءه الثالثة، فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف. فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك.

ثم جاءه الرابعة، فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف، فأيما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا».

وروى الترمذي عن أبي كعب قال: «لقي رسول الله ﷺ جبريل عند أحجار المروة. قال رسول الله ﷺ لجبريل: إني بعثت إلى أمة أميين، فيهم الشيخ الفاني، والعجوز الكبيرة، والغلام. قال: فمرهم فليقرءوا القرآن على سبعة أحرف».

وروى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ «أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده، ويزيدني، حتى انتهى إلى سبعة أحرف».

أمام هذه الأحاديث، وأحاديث أخرى كثيرة بنفس المعنى ـ وهي صحيحة لا سبيل إلى ردها، بل قال بعضهم بتواتر الحديث الوارد بنزول القرآن على سبعة أحرف ـ نقول: أمام هذه الأحاديث كثرت أقوال العلماء في معنى الأحرف والمراد بها. وبقاء الأحرف إلى اليوم أو عدم بقائها، حتى بلغت هذه الأقوال ـ في عد السيوطي ـ أربعين قولا، سنقتصر منها على أقواها وأدقها، وما له حظ من القبول.

يؤخذ من مجموع الأحاديث أولا وقبل كل شيء، خمسة أصول هي:

(١) أن الإلزام بالقراءة على حرف واحد في أول الأمر فيه حرج ومشقة على الأمة، لاختلاف لهجاتها ولغاتها، ولضعف مرونة ألسنتها، لأنها أمة أمية، وفيها العجوز والشيخ الفاني الذي لا يقدر على النطق بما لا يعهد.

(٢) أن المقصود من الزيادة إلى سبعة أحرف هو تيسير القراءة وتسهيل النطق والفهم.

(٣) أن الأمة كانت مخيرة في القراءة بأي حرف من هذه الأحرف السبعة، غير ملزمة بحرف خاص منها.

(٤) أن الصحابة كانوا يقرءون قراءات مختلفة حتى استنكر بعضهم قراءة البعض، واحتكموا إلى رسول الله ﷺ .

(٥) أن النبي ﷺ صوب قراءة كل منهم، وأقرهم على قراءاتهم، وأنه هو الذي أقرأهم إياها، وأن كل قراءة منزلة من عند الله .

هذه الأصول الخمسة ينبغي أخذها بعين التقدير عند تدبُّر كل قول من الأقوال، فإن بعض الأقوال بعد عنها كل البعد، وبعضها انحرف عنها بعض انحراف :

وإليك الأقوال ومناقشتها :

أولا: ذهب بعض العلماء إلى أن حديث إنزال القرآن على سبعة أحرف، مشكل لا يعرف معناه المراد؛ لأن الحرف يطلق في اللغة ـ كما في القاموس ـ على : طرف الشيء، وشفيره، وحده، ومن الجبل أعلاه المحدد، وعلى أحد حروف التهجي، وعلى الناقة الضامرة، ومسيل الماء، وعلى الوجه. وهذه الإطلاقات الكثيرة تدل على أن لفظ الحرف مشترك لفظي، والمشترك اللفظي إذا لم يظهر المراد منه بقرينة كان مشكلا، ولم يبين لنا الرسول ﷺ المراد من هذا المشترك، فيكون مشكلا، الله أعلم بالمراد منه .

ويرد هذا القول بأن المشترك اللفظي إذا وجدت قرينة تبين المعنى المراد منه لا يكون مشكلا . وقد قامت قرائن تمنع بعض معانيه وتعين بعضها الآخر : لأنه لا يصح أن يراد أحد حروف التهجي، لأن القرآن مؤلف من جميع حروف الهجاء لا من سبعة منها فقط. ولا يصح أن يراد به طرف الشيء، ولا الناقة الضامرة، ولا مسيل الماء، فتعين أن يراد منه الوجه. وإذا تعين أحد وجوه المشترك اللفظي بمثل هذه القرائن لم يكن مشكلا .

ثانيا: ذهب بعضهم إلى أن حقيقة العدد غير مقصودة، بل المقصود التيسير والتسهيل والتوسعة على الأمة بوجوه متعددة كثيرة، لا تنحصر في سبعة . والتعبير بالسبعة في عرف الشرع، يراد به الكثرة في الآحاد، قال تعالى : ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ (لقمان : ٢٧). كما أن التعبير بالسبعين

يراد به الكثرة في العشرات، قال تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٨٠).

وهذا القول لا يلتزم تحديد وجوه التيسير، وإليه جنح القاضي عياض. لكنه مردود بأن الأحاديث تدل على أن حقيقة العدد مقصودة، وأن الأوجه منحصرة في سبعة. ففي حديث ابن عباس، قال رسول الله ﷺ «أقرأني جبريل على حرف، فراجعته، فلم أزل أستزيده، ويزيدني، حتى بلغ سبعة أحرف». وجاء في حديث أبي بكرة، أن النبي ﷺ قال: «فنظرت إلى ميكائيل، فسكت، فعلمت أنه قد انتهت العدة». فهذان الحديثان مع المراجعات الثابتة في الأحاديث السابقة تدل على أن المراد بالسبعة حقيقة العدد الواقع بين الستة والثمانية.

ثالثا: ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو حاتم السجستاني، إلى أن المراد من الأحرف السبعة، لغات سبع متفرقة في القرآن كله، بمعنى أن بعض معاني القرآن عبر عنه بلفظ من لغة اليمن، وبعضها عبر عنه بلفظ من لغة هذيل وهكذا. فألفاظ القرآن تمثل سبع لغات لأهم سبع قبائل عربية. وهذا لا يمنع كون القرآن نزل بلغة قريش، إذ أغلبه وأكثره بلغة قريش، وهذه الألفاظ الممثلة للغات أهم القبائل العربية قليلة جدا.

واختار هذا القول الأزهري في التهذيب، واختاره أيضا ابن عطية، حيث قال: معنى قول النبي ﷺ «أنزل القرآن على سبعة أحرف» أي فيه عبارة سبع قبائل، بلغة جملتها نزل القرآن، فيعبر عن المعنى فيه تارة بعبارة قريش، ومرة بعبارة هذيل ومرة بغير ذلك، بحسب الأفصح والأوجز في اللفظ. ألا ترى أن «فطر» معناه عند غير قريش ابتدأ، فجاءت في القرآن، فلم تتجه لابن عباس، حتى اختصم إليه أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها. فقال ابن عباس: ففهمت حينئذ معنى قوله تعالى: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (فاطر: ١).

وقال أيضا: ما كنت أدري معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ (الأعراف: ٨٩). حتى سمعت بنت ذي يزن، تقول لزوجها: «تعالى أفاتحك». أي أحاكمك.

وكذلك قول عمر بن الخطاب وكان لا يفهم معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ (النحل: ٤٧)، أي على تنقص لهم، وغير ذلك.

ثم قال: وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف: ٣). ولم يقل «قرشيا».

ويرد هذا القول من وجوه:

الوجه الأول: أن عدم فهم ابن عباس وابن عمر لبعض ألفاظ القرآن لا يدل على أن هذه الألفاظ غير قرشية أو مستعملة في لغة قريش؛ لأنه لا يمكن ادعاء إحاطة كل منهما بجميع ألفاظ لغة قريش، فقد قالوا إنه لا يحيط باللغة إلا معصوم.

الوجه الثاني: أن هذا الرأي يتنافى مع ما علم من الأحاديث من أن الهدف من الأحرف السبعة التيسير ورفع الحرج، فإنه والحالة هذه لا تخيير في القراءة، بل الكل ملزم بلفظ واحد.

الوجه الثالث: أن هذا الرأي لا يمكن معه تصور اختلاف الصحابة في القراءة وإقرار النبي ﷺ كلا منهمْ على قراءته.

فهذه الأوجه تدل على بطلان هذا القول.

رابعا: ذهب بعضهم إلى أن الأحرف لغات عربية في كلمة واحدة، وكان من تيسير الله على الأمة أن يقرأ كل قوم بلغتهم. فالهذلي يقرأ «عتى حين» يريد «حتى حين»، والأسدي يقرأ «تعلمون» بكسر أوله، والتميمي يهمز، والقرشي لا يهمز. ولو أراد كل منهم أن يزول عن لغته، وما جرى عليه لسانه طفلا وناشئا وكهلا لشق عليه غاية المشقة، فيسر الله عليهم، واستمر هذا التيسير حتى جمع عثمان الناس على قراءة واحدة.

ويرد هذا الرأي الاختلاف الباقي في القراءات حتى اليوم، ثم هو لم يشمل أوجه الاختلاف الآتي إيضاحها في رأي الإمام الرازي.

خامسا: ذهب بعض أهل الفقه والحديث، منهم سفيان، وابن وهب، وابن جرير الطبري، والطحاوي، إلى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات في كل كلمة واحدة ومعنى واحد، مثل: هلم، وأقبل، وتعال، وعجل، وأسرع، وقصدي، ونحوي. فهذه ألفاظ سبعة في معنى طلب الإقبال.

ويستدل لهذا الرأي بقراءة أبي بن كعب، إذ كان يقرأ: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾ (البقرة: ٢٠) «كلما أضاء لهم مروا فيه». . «كلما أضاء لهم سعوا فيه». وما جاء في قراءة ابن مسعود: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ (الحديد: ١٣) «أَنْظِرُونا».

ويلتزم أصحاب هذا الرأي أن يقولوا: إن هذه الأوجه كانت جائزة في أول الأمر، ثم نسخت إلا وجها في العرضة الأخيرة، وهي التي نسخ عليها عثمان مصاحفه.

ويرد هذا الرأي بندرة الكلمة التي يوجد لها سبعة مرادفات، فلا يتأتى التيسير ولا يتأتى رفع الحرج. بل أنكر ابن قتيبة أن يكون في القرآن كلمة تقرأ على سبعة أوجه. على أنه يؤدي إلى أن الاختلاف في أوجه القراءة قد انتهى، مع أن الأمة أجمعت على صحة القراءات الكثيرة المتواترة.

سادسا: هناك أقوال أخرى أضعف من الآراء السابقة، منها:

قول بعضهم: الأحرف السبعة أصناف سبعة. أمر، ونهي، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال.

وقول بعضهم: وعد، ووعيد وحلال، وحرام، ومواعظ، وأمثال، واحتجاج.

وقول بعضهم: محكم، ومتشابه، وناسخ، ومنسوخ، وخصوص، وعموم، وقصص.

وقول بعضهم: مطلق، ومقيد، وعام، وخاص، ونص، ومؤول، وناسخ ومنسوخ، واستثناء، وغير ذلك، (والعدد لا حقيقة له).

ويرد على هذه الأقوال جمعيها، بأنه لا يتأتى فيها الاختلاف في القراءة، ولا التيسير على الأمة.

سابعا: وأصح الآراء وأقواها وأحراها بالقبول ـ في رأينا ـ هو ما ذهب إليه الإمام الرازي، وحاصله: أن الكلام لا يخرج عن سبعة أحرف في الاختلاف.

الأول: اختلاف الأسماء، من إفراد وتثنيه وجمع، وتذكير وتأنيث. ويمكن التمثيل له، بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ (المعارج: ٣٢). إذ قرئ «لأماناتهم» جمعا و«لأمانتهم» بالإفراد.

الثاني: اختلاف تصريف الأفعال، من ماض ومضارع وأمر. ويمكن التمثيل له بقوله تعالى: ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ (سبأ: ١٩) قرئ بنصب «ربنا» على النداء، وبلفظ «باعدْ» على فعل الأمر، وقرئ «ربُّنا بَعَّدَ» برفع «رب» على الابتداء، وبلفظ «بعَّد» ماضيا مضعف العين، خبر المبتدأ.

الثالث: اختلاف وجوه الإعراب. ويمكن التمثيل له في الأفعال بقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ (البقرة: ٢٨٢). قرئ بفتح الراء، على أن «لا» ناهية، والفعل مجزوم. وقرئ بضم الراء، على أن «لا» نافية، والفعل بعدها مرفوع. ويمكن التمثيل له في الأسماء بقوله تعالى: ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ (البروج: ١٥) قرئ برفع لفظ «المجيد» على أنه نعت لكلمة «ذو»، وقرئ بجره، على أنه نعت لكلمة «العرش». وهذه الأحرف الثلاثة موافقة لرسم المصحف العثماني، لأنه كما سبق كان خاليا من النقط ومن الشكل.

الرابع: الاختلاف بالنقص والزيادة. ويمكن التمثيل له، بقوله تعالى: ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ ﴾ (التوبة: ١٠٠) في سورة التوبة، «تجري من تحتها الأنهار» بزيادة لفظ «من»، وهما قراءتان متواترتان، وقد وافقت كل منهما رسم المصحف، فالأولى بدون «من» وافقت رسم غير المصحف المكي، والتي بزيادة «من» وافقت رسم المصحف المكي. ومن هذا الوجه (الزيادة والنقص) ما لا يوافق رسم المصحف، كقراءة «وكان وراءهم ملك يأخذ كل

سفينة صالحة غصبا» بزيادة لفظ «صالحة». وقراءة «والذكر والأنثى» بحذف لفظ «وما خلق». فإن زيادة «صالحة» ونقص «ما خلق» مخالفة لخط جميع المصاحف العثمانية، ولذلك تركت هذه القراءة، وعدت منسوخة في العرضة الأخيرة.

الخامس: الاختلاف بالتقديم والتأخير. ويمكن التمثيل له، بقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ (ق: ١٩)؛ فقد قرئ «وجاءت سكرة الحق بالموت». ولكن القراءة الثانية لا توافق رسم مصحف من المصاحف العثمانية، فتركت وعدت منسوخة التلاوة، في العرضة الأخيرة.

ومثال ما وافق رسم المصحف من هذا الوجه، قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ (التوبة: ١١١). قرئ الفعل الأول مبنيا للمعلوم والثاني مبنيا للمجهول، وقرئ بالعكس، الأول مبنى للمجهول، والثاني مبنى للمعلوم، والقراءتان متواترتان.

السادس: الاختلاف بالإبدال. ويمكن التمثيل له، بقوله تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ (البقرة: ٢٥٩). قرئ «ننشزها» بالزاي وبالراء قراءتان متواترتان. وكذا قوله تعالى: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ (الحجرات: ٦). وقرئ «فتثبتوا» قراءتان متواترتان، موافقتان لرسم المصحف.

ومثال ما لم يوافق رسم المصحف قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الجمعة: ٩). قرئ «فامضوا إلى ذكر الله»، وهي مخالفة لرسم جميع المصاحف العثمانية، فتركت، وعدت منسوخة التلاوة في العرضة الأخيرة.

السابع: اختلاف اللغات (أي اللهجات) كالفتح والإمالة، والترقيق والتفخيم، والإظهار والإدغام، ونحو ذلك. ويمكن التمثيل له، بقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ (طه: ٩) بالفتح أو الإمالة في «أتى» وفي «موسى».

وهذا الوجه موافق دائما لرسم المصحف، لأنه تغيير في النطق الشكلي، وليس في جوهر الكلمة.

وهذا الرأي يتمشى مع الأصول الخمسة المستفادة من مجموع الأحاديث التي سبق بيانها. كما أنه يعتمد على الاستقراء التام لمرجع اختلاف القراءات. كما أنه يتمشى مع بقاء الأحرف السبعة إلى اليوم. كما أنه لا يلزمه محذور، وكل اعتراض عليه مردود.

(ملاحظة) قريب من هذا القول ما ذهب إليه ابن قتيبة، وابن الجزري، وابن الطيب، والفرق بين كل منهم بسيط لا داعي للتعرض له.

شبهات مردودة
وردت على القراءات والأحرف السبعة

الشبهة الأولى:

يقول المفترون: إن أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف تثبت الاختلاف في القرآن، والقرآن نفسه يجعل الاختلاف أمارة على أنه ليس من عند الله، إذ يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيراً﴾ (النساء: ٨٢).

والجواب أن الاختلاف الناشئ عن الأحرف السبعة هو اختلاف في طرق الأداء في دائرة محدودة، لا تعارض بين معانيها، ولا تضارب بين أحكامها. وفي هذا يقول ابن الجزري: قد تدبرنا اختلاف القراءات، فوجدناه لا يخلو من ثلاثة أحوال:

أحدها: اختلاف اللفظ لا المعنى. كالاختلاف في ألفاظ «الصراط» و«عليهم» و«القدس» و«يحسب» ونحو ذلك مما يطلق عليه أنه لغات فقط.

ثانيها: اختلافهما جميعا، مع جواز اجتماعهما في شيء واحد، نحو لفظ «مالك يوم الدين» و«ملك يوم الدين» لأن المراد في القراءتين هو الله تعالى، وكذا «ننشزها» بالزاي، و«ننشرها»، بالراء، لأن المراد بهما هو العظام، وذلك أن الله تعالى أنشرها أي أحياها، وأنشزها أي رفع بعضها إلى بعض، حتى التأمت، فضمن الله المعنيين في القراءتين.

ثالثها: اختلافهما جميعا، مع امتناع جواز اجتماعهما في شيء واحد، لكنهما يتفقان مع وجه آخر، لا يقتضي التضاد، نحو قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ (يوسف: ١١٠). قرئ بالتشديد والتخفيف، في لفظ «كذبوا» المبني للمجهول. فأما وجه التشديد، فالمعنى: وتيقن الرسل أن قومهم قد كذبوهم. وأما وجه التخفيف، فالمعنى: وتوهم المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم (أي كذبوا عليهم) فيما أخبروهم به، فالظن في الأول يقين، والضمائر الثلاثة للمرسل إليهم.

ثم قال: فليس في شيء من القرآن تناف ولا تضاد ولا تناقض، وكل ما صح عن النبي ﷺ من ذلك، فقد وجب قبوله، ولم يسع أحدا من الأمة رده، ولزم الإيمان به، وأنه كله منزل من عند الله، إذ كل قراءة منها مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية، يجب الإيمان بها كلها، واتباع ما تضمنته علما وعملا. ولا يجوز ترك موجب إحداهما لأجل الأخرى، ظنا أن هذا تعارض. أ.هـ. بتصرف.

الشبهة الثانية:

قالوا: إن بعض الروايات في اختلاف القراءات تثير الشك في القرآن، وتفقد الثقة فيه. ففي بعض الروايات تخيير الشخص أن يأتي باللفظ أو بمرادفه أو باللفظ وما لا يضاده في المعنى. من ذلك حديث أبي بكرة من رواية أحمد، وفيه: «كلها شاف كاف، مالم تختم آية عذاب برحمة، أو آية رحمة بعذاب، نحو قولك: تعال وأقبل وهلم، وأسرع، وعجل».

ومن ذلك أيضا ما روي عن ابن مسعود، أنه أقرأ رجلا: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ (الدخان: ٤٣، ٤٤) فقال الرجل: طعام اليتيم. فردها عليه، فلم يستقم بها لسانه، فقال: أتستطيع أن تقول: طعام الفاجر؟ قال: نعم. قال: فافعل».

والحقيقة أن كثرة الأقوال، وتهافتها، وضعف الروايات وسقوطها، مكن لأعداء الإسلام من التهجم على الكتاب الخالد، الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (فصلت: ٤٢). وأتاح لهم فرصة الاعتراض والتشكيك.

نعم، وإن سماحة الإسلام، فتحت مجال القول والكتابة على مصراعيه، فدخله العالم والجاهل، فكتب فيه ـ بحسن قصد ـ ما ليس منه، ووجد من كلام أبنائه معاول هدم، وأخطر عليه من سيوف المبشرين والمستشرقين. وصدق القائل:

لا يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

فما أحوج ثروة الإسلام العلمية إلى حملة تنقية وتصفية، في كتب التفسير وكتب الحديث وكتب السير، بل وكتب الأحكام الفقهية الفرعية.

ما أحوج الإسلام اليوم إلي حملة كحملة عثمان تحمل الناس على الطريق السوي، وتباعد بينهم وبين جهل الجاهلين، ودس الدساسين.

ولن يستطيع القيام بهذا العمل المقدس فرد أو أفراد، فقد اتسعت الثروة على الطاقة وأصبحت واجب الهيئات وأولياء الأمور من المسلمين.

وإنه ليكفي التشريع الإسلامي نصف الأحاديث المجموعة، ويكفي لفهم كتاب الله ربع التفاسير المطبوعة.

أسأل الله توفيق العلماء وأولياء الأمور لما فيه خير الإسلام.

ونعود إلى الشبهة الخبيثة لنرى بعض العلماء يسلم بصحة هذه الروايات لمجرد اطمئنانه للسند، ويحاول الرد بأن هذا كان جائزا في أول الإسلام حتى تلين ألسنة المبعوث إليهم مع ملاحظة أن الكل نازل من عند الله.

وتلك المحاولة ـ برغم حسن القصد الباعث عليها ـ لا تزيد الشبهة إلا اشتباها، فإن القرآن لم ينزل للعرب وحدهم، وكان حريًا به أن يراعى المشقة بالنسبة لجميع الأمم، لا بالنسبة لبعض القبائل العربية التي تقف ألسنتها عند كلمات منه محدودة.

والأولى رد هذه الروايات من أساسها، لأن ما جاءت به تخالف الأمر المجمع عليه.

الشبهة الثالثة:

قال بعض الجهلة من المسلمين: إنه لا معنى للأحرف السبعة التي نزل بها القرآن إلا أن يقصد بها القراءات السبع المنقولة عن الأئمة السبعة المعروفين عند القراء.

وللرد على هذه الشبهة، يقول ابن الجزري:

ولو كان الحديث منصرفا إلى قراءات السبعة المشهورين، أو سبعة غيرهم من القراء، الذين ولدوا بعد التابعين لأدى ذلك إلى أن يكون الخبر عاريا عن الفائدة إلى أن يولد هؤلاء السبعة، فتؤخذ عنهم القراءة. وأدى أيضا إلى أنه لا يجوز لأحد من الصحابة أن يقرأ إلا بما يعلم أن هؤلاء السبعة من القراء، إذا ولدوا وتعلموا اختاروا القراءة به. وهذا باطل، إذ طريق أخذ القراءة أن تؤخذ عن إمام ثقة، لفظا عن لفظ، إماما عن إمام إلى أن يتصل بالنبي ﷺ. أ. هـ.

وقال أبو شامة: ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطعة، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل. أ. هـ.

وقال ابن عمار: لقد فعل مسبع هذه السبعة ما لا ينبغي له، وإشكال الأمر على العامة، بإيهامه كل من قل نظره أن هذه القراءات هي المذكورة في الخبر، وليته نقص عن السبعة. أو زاد، ليزيل الشبهة. أ. هـ.

وقال مكي بن أبي طالب: هذه القراءات التي يقرأ بها اليوم، وصحت رواياتها عن الأئمة هي جزء من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن.

ثم قال: وأما من ظن أن قراءة هؤلاء القراء كنافع وعاصم، هي الأحرف السبعة التي في الحديث، فقد غلط غلطا عظيما. وقال: ويلزم من هذا أن ما خرج عن قراءة هؤلاء السبعة، مما ثبت عن الأئمة غيرهم، ووافق خط المصحف، ألا يكون قرآنا، وهذا غلط عظيم أ. هـ.

فضل قراءة القرآن

القرآن كلام الله القديم، فيه خيرا الدنيا والآخرة. من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله.

وحفظ القرآن فرض كفاية على الأمة، ويجب ألا ينقطع عدد التواتر من حفظته، لئلا يتطرق إليه التبديل والتحريف. فإن قام بحفظه قوم يبلغون عدد التواتر سقط الإثم عن الباقين، وإلا أثم الجميع. وتعليم القرآن أيضا فرض كفاية، وهو أفضل القرب وصالح الأعمال. ففي الصحيح عن رسول الله ﷺ : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري. قال: قال رسول الله ﷺ : يقول الرب عز وجل: «من شغله القرآن عن ذكري وعن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين. وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه».

ومن أوتي القرآن، فقد أوتي أفضل النعم وأجلها، وكان جديرا بالغبطة وبتطلع الناس إليه، وبحسدهم له، مثله في ذلك مثل من أوتي نعمة المال فأنفقه في سبيل الله، مصداقا لقوله ﷺ : لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله القرآن، وهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار».

ولحملة القرآن منزلة كبرى يوم القيامة إذا حافظوا عليه بما فيه. يقول ﷺ :

«ثلاثة لا يهولهم الفزع الأكبر، ولا ينالهم الحساب. هم على كثيب من مسك حتى يفرغ من حساب الخلائق: رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله، وأم به قوما وهم به راضون. . الحديث رواه الطبراني، من حديث ابن عمر.

وأخرج الترمذي وابن ماجه وأحمد من حديث علي: «من قرأ القرآن؛

فاستظهره، فأحل حلاله، وحرم حرامه، أدخله الله الجنة، وشفعه في عشرة من أهل بيته، كلهم قد وجبت لهم النار».

وأخرج الشيخان عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب. ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب، ولا ريح لها. ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر. ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة، طعمها مر ولا ريح بها».

ويقول ﷺ: «من قرأ حرفا من كتاب الله تعالى فله حسنة، والحسنة بعشرة أمثالها. لا أقول ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» رواه الترمذي، وقال حسن صحيح.

ويقول ﷺ: «يقال لقارئ القرآن اقرأ وارق ورتل، كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها».

ويشجع ﷺ ضعيف القراءة، ويرغبه في معالجتها ويعده بأجرين، أجر لمحاولته وصعوبة القراءة عليه، وأجر لقراءته، فيقول: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه، وهو عليه شاق، له أجران». رواه الشيخان.

وفضل قراءة القرآن يتعدى قارئه إلى المكان الذي يقرأ فيه، ليكون خيرا من غيره من الأماكن حيث يقول ﷺ: «البيت الذي يقرأ فيه القرآن، يتراءى لأهل السماء كما تتراءى النجوم لأهل الأرض». أخرجه البيهقي من حديث عائشة، وأخرج من حديث أنس: «نوروا منازلكم بالصلاة وقراءة القرآن».

وأخرج البزار من حديث أنس: «إن البيت الذي يقرأ فيه القرآن يكثر خيره، والبيت الذي لا يقرأ فيه القرآن يقل خيره».

حكم نسيان القرآن

وإذا كانت تلك منزلة قراءة القرآن ومنزلة حفظته، كان إثم المقصر كبيرا. فإن النعمة إذا عظمت عظم جرم إهمالها.

وشكر نعمة القرآن تتمثل في كثرة تلاوته، وتعهد حفظه، والحرص عليه، وصيانته، عن النسيان، فإنه لعظمه يتفلت من صدور الرجال، كما تنفلت الإبل من عقالها، «فمثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة. إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت». وروى البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «استذكروا القرآن فإنه أشد تفصيا من صدور الرجال من النعم».

وما أعظم جريرة نسيان الحافظ لما حفظ، حتى قال النووي: إن نسيان القرآن كبيرة. وقال ابن حجر: نسيان القرآن من أعظم المصائب. أخذا من قوله ﷺ: «عرضت على ذنوب أمتي فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها». رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

وأخرج أبو عبيد: ما من أحد تعلم القرآن، ثم نسيه إلا بذنب أحدثه، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (الشورى: ٣٠). ولأبي داود عن سعد بن عبادة مرفوعا: «من قرأ القرآن ثم نسيه لقى الله وهو أجذم»، أي مقطوع اليد، أو مقطوع الحجة، أو مقطوع الخير.

فضل سماع القرآن

وسماع القرآن بتدبر وخشوع له أجر القارئ؛ بل قيل: إن القارئ كالحالب، والسامع كالشارب. وقد كان ﷺ يحب سماعه، كما يحب قراءته؛ فقد روى البخاري عن ابن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ على القرآن». قلت: يا رسول الله. أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أحب أن أسمعه من غيري». فقرأت عليه سورة النساء، حتى إذا جئت لهذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٤١)، قال: «حسبك الآن». فالتفت إليه، فإذا عيناه تذرفان.

ومن هذا يعلم أن استحباب السماع ليس خاصا بمن لا يجيد القراءة، بل السماع في حق القارئ الحافظ قد يكون أولى وأنفع.

وقد اختلف العلماء في القراءة والسماع، أيهما أفضل؟ والتحقيق أن الأفضلية تدور مع الخشية والتدبر ومدى الانتفاع بكل؛ فمن كان تدبره وخشيته بالقراءة

أكثر، كانت القراءة في حقه أفضل. ومن كان تدبره وخشيته في السماع أكثر، كان السماع في حقه أفضل. ويختلف الأمر باختلاف القراء والسامعين.

المفاضلة بين آيات القرآن وسوره

والكلام عن فضل قراءة القرآن وسماعه يدعونا إلى بيان الأقوال، واستظهار الحكم في المفاضلة بين آيات القرآن: هل في القرآن شيء أفضل من شيء حتى يستكثر من قراءته وسماعه؟ أو كل القرآن سواء؟

ذهب الأشعري والباقلاني وابن حبان إلى منع تفضيل بعض القرآن على بعض، لأن الجميع كلام الله، ولئلا يوهم التفضيل نقص المفضل عليه. وروي هذا القول عن الإمام مالك، وأنه كره أن تعاد سورة، أو تردد، دون غيرها.

وذهب إسحق بن راهويه وأبو بكر العربي والغزالي والقرطبي وغيرهم: إلى التفضيل، لظواهر الأحاديث الواردة في ذلك. قال الغزالي في جواهر القرآن: لعلك أن تقول: قد أشرت إلى تفضيل بعض آيات القرآن على بعض والكلام كلام الله، فكيف يتفاوت بعضها بعضا؟ وكيف يكون بعضها أشرف من بعض؟ فاعلم أن نور البصيرة إن لا يرشدك إلى الفرق بين آية الكرسي، وآية المداينات، وبين سورة الإخلاص وسورة تبت، فقلد صاحب الرسالة ﷺ، فهو الذي أنزل عليه القرآن، وقال: «يس قلب القرآن»، و«فاتحة الكتاب أفضل سور القرآن»، و«آية الكرسي سيدة آي القرآن»، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن». والأخبار الواردة في فضائل القرآن وتخصيص بعض السور بالفضل، وكثرة الثواب في تلاوتها، لا تحصى. أ. هـ.

والتحقيق أن الخلاف بين الرأيين لفظي، وأن كلام الله، من حيث كونه كلام الله، لا يفضل بعضه بعضا، بل أي آية منه، من حيث نسبتها إلى الله تعالى، تعادل في شرفها أي آية أخرى. فليس في القرآن فاضل ومفضول من هذه الناحية باتفاق. أما نظرنا إلى النواحي الأخرى، فيمكن أن يفضل بعض الآيات بعضا.

فمن ناحية الفضل الراجع إلى عظم الأجر ومضاعفة الثواب لزيادة خشية النفس وزيادة التدبر والتفكر، تفضل بعض الآيات بعضا. فقراءة أو سماع آيات تشتمل

على تعديد أسماء الله تعالى، وبيان صفاته، والدلالة على عظمته أفضل من قراءة أو سماع غيرها. ومن ناحية الفضل الراجع إلى عظم الأجر ومضاعفة الثواب الثابت بالأحاديث الصحيحة لحكمة يعلمها الله، تفضل بعض الآيات وبعض السور بعضا، وإن لم يظهر لنا المعنى الذي من أجله بلغت هذه المنزلة؛ كما يقال إن يوما أفضل من يوم وشهرا أفضل من شهر، بمعنى أن العبادة فيه تفضل العبادة في غيره، والذنب فيه أعظم من الذنب في غيره، لحكمة لا نعلمها.

ومن ناحية الفضل الراجع إلى أولوية العمل، تفضل بعض الآيات بعضا. فيقال مثلا قراءة أو سماع آيات الوعد والوعيد، وآيات الأمر والنهي، خير من قراءة أو سماع آيات القصص، لأن العمل بها أولى وأعود بالخير على القارئ والسامع، ولا غنى بالناس عنها، وقد يستغنون عن القصص. فكان ما هو أعود عليهم بالخير، وأنفع لهم مما يجري مجرى الأصول أفضل مما جاء للتبعية والتأكيد.

ومن ناحية: ما تتضمنه الآيات من معان ودلالات، يفضل بعضها بعضا. فقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ (البقرة: ١٦٣)، وآية الكرسي، وآخر سورة الحشر، وسورة الإخلاص، أفضل من حيث ما اشتملت عليه، من ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد: ١).

ومن ناحية تعجل القارئ والسامع لفائدة أخرى، غير ثواب القراءة، يفضل بعض الآيات بعضا. فاعتصام القارئ بالله، وتحصنه بآية الكرسي والإخلاص والمعوذتين، يجعلها أفضل من غيرها. وهكذا.

وينبغي (على وجه الاستحسان) ألا يقال في هذه الأحوال: إن آية كذا أفضل من آية كذا، لئلا يوهم نقص المفضل عليه، بل يقال: قراءة أو سماع آية كذا، أعظم أجرا أو أكثر فائدة من قراءة أو سماع آية كذا، أو آية كذا أولى بالعمل من آية كذا، أو مدلول آية كذا أفضل من مدلول آية كذا. . . إلخ.

المفاضلة بين القرآن والكتب السماوية الأخرى

أما في المفاضلة بين القرآن وبين غيره من الكتب السماوية الأخرى، فيمكن أن يقال: إن القرآن أفضل من التوراة والإنجيل والزبور، لا من حيث إن الكل كلام

الله، بل من حيث إن التعبد بالتلاوة والعمل واقع به دونها، والثواب بحسب قراءته، لا بقراءتها، أو من حيث إنه معجز وحجة للنبي محمد ﷺ، وتلك الكتب لم تكن حجج أنبيائها، بل كانت أصول دعوتهم والحجج غيرها.

القراءة المشروعة

وللقراءة المشروعة صفات ينبغي توافرها هي:

أولا: التجويد. وهو إعطاء الحروف حقوقها، وترتيبها، وإخراجها من مخارجها، وإعطاء المد والقصر حقهما، ومراعاة الإدغام، والإظهار والإخفاء، كل في موضعه، على كمال هيئته من غير إسراف ولا تقصير.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه ممن أوتي حظا كبيرا في تجويد القرآن، حتى قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم معبد» يعني ابن مسعود،

قال السيوطي في الإتقان: ولا شك في أن الأمة كما هم متعبدون بفهم معاني القرآن، وإقامة حدوده، هم متعبدون بتصحيح ألفاظه، وإقامة حروفه، على الصفة المتلقاة من أئمة القراء، المتصلة بالحضرة النبوية.

وقد عد العلماء القراءة بغير تجويد لحنا، فقسموا اللحن إلى جلي وخفي. فاللحن خلل يطرأ على الألفاظ فيخل، إلا أن الجلي يخل إخلالا ظاهرا، يشترك في معرفته علماء القراءة وغيرهم، وهو الخطأ في الإعراب مثلا. والخفى يخل إخلالا يختص بمعرفته علماء القراءة وأئمة الأداء الذين تلقوه من أفواه العلماء.

ثانيا: الوصل والوقف، كل في موضعه السليم: قال ابن الأنباري: من تمام معرفة القرآن معرفة الوقف والابتداء. وقال بعضهم: إن باب الوقف عظيم القدر، جليل الخطر، لأنه لا يتأتى لأحد معرفة معاني القرآن، ولا استنباط الأدلة الشرعية منه، إلا بمعرفة الفواصل. ولأئمة القراء اصطلاحات في أنواع الوقف وأسمائه، أحسنها أنه ينقسم إلى أقسام:

(١) التام المختار: وهو الذي لا يتعلق بشيء مما بعده، فيحسن الوقف عليه،

والابتداء بما بعده. وأكثر ما يوجد عند رءوس الآي، كقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: ٥)، وقوله: ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: ٦). وقد يوجد في أثناء الآية كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾. هنا التمام لأنه انقضى كلام الظالم، ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ (الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩).. وقد يوجد بعد الآية، أي بعد جزء من الآية التي بعدها، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ﴾ (الصافات ١٣٧، ١٣٨).

(٢) الكافي: وهو المنقطع في اللفظ المتعلق في المعنى. فيحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده أيضا كقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ (النساء: ٢٣). هنا وقف، ويبدأ بما بعده.

(٣) الحسن: وهو الذي يحسن الوقف عليه، ولا يحسن الابتداء بما بعده، كقوله تعالى: ﴿الحمد لله﴾ لأن الابتداء بـ ﴿رب العالمين﴾ (الفاتحة: ٢)، لا يحسن لكونه صفة لما قبله.

(٤) القبيح: وهو الذي لا يفهم منه المراد، كالوقف على ﴿بسم﴾ من ﴿بسم الله﴾ (الفاتحة: ١). وهذا القسم درجات أقبحها الموهم للكفر كالوقف على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ والابتداء بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ﴾ (المائدة: ١٧). والوقف على النفي قبل الاستثناء، كالوقف على قوله تعالى: ﴿لا إِلَهَ﴾ من ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ (محمد: ١٩). والوقف على ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الإسراء: ١٠٥، الفرقان: ٥٦). وأخف من هذا قبحا، ما أفسد المعنى دون كفر، كالوقف على ﴿فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ﴾ (النساء: ١١). فإن اضطر إلى الوقف القبيح لأجل التنفس، رجع إلى ما قبله ووصله بما بعده.

ثالثا: الترتيل، بمعنى القراءة على مهل وتأن وترسل، من غير زيادة تمطيط.

فقد روي عن أم سلمة أنها وصفت قراءة رسول الله ﷺ بأنها قراءة مفسرة حرفا حرفا.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود أن رجلا قال له: إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة. فقال: هذا كهذا الشعر؟ إن قوما يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع. وروي عن ابن مسعود أيضا قوله: لا تنثروه نثر الدقل، ولا تهذوه هذا الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكون هم أحدكم آخر السورة. قال النووي: واتفقوا على كراهة الإفراط في الإسراع، قالوا: وقراءة جزء بترتيل أفضل من قراءة جزأين في قدر ذلك الزمن بلا ترتيل. أ. هـ.

رابعا: البسملة والاستعاذة: لا خلاف بين العلماء في أن من ابتدأ القراءة بأول سورة غير براءة أتى بالبسملة، والخلاف بينهم في الإتيان بها حال وصل السورة بالسورة الأخرى، وأكثر العلماء على أنها آية، فإذا أخل بها كان تاركا لبعض الختمة.

قال ابن الجزري: وكل من الفاصلين بين السورتين بالبسملة، والواصلين بينهما بدونها، إذا ابتدأ القراءة بسورة من السور بسمل بلا خلاف عن أحد منهم، إلا إذا ابتدأ بسورة «براءة». أما على قراءة من فصل بالبسملة فواضح، وأما على قراءة من ألغاها بين السور، فللتبرك والتيمن، ولموافقة خط المصحف، لأنها عند من ألغاها، إنما كتبت لأول السور تبركا، وهو لم يلغها في حالة الوصل، إلا لكونه لم يبتدئ، فلما ابتدأ لم يكن بد من الإتيان بها، لئلا يخالف المصحف وصلا ووقفا، فيخرج من الإجماع. أ. هـ. بتصرف.

أما حكم الإتيان بالبسملة للمبتدئ من وسط السورة، فهو جائز باتفاق، ويجوز تركها، ولكن الخلاف في الأفضل فيهما، هل هو الإتيان بها أو تركها؟ نص الشافعي على استحباب الإتيان بها لمن قرأ من أثناء السورة. وقال الفراء: ويتأكد الاستحباب عند قراءة نحو: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ (فصلت: ٤٧) و﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ﴾ (الأنعام: ١٤١) لما في ذكر ذلك بعد الاستعاذة من البشاعة

وإيهام رجوع الضمير إلى الشيطان. وقال ابن الجزري: والابتداء بالآي وسط براءة قل من تعرض له أ. هـ.

أما الاستعاذة، فتسن قبل القراءة مطلقا، ابتدأ بأول السورة أو بآية منها، لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (النحل: ٩٨) وذهب قوم إلى وجوبها، لظاهر الأمر، والراجح الاستحباب وصفتها المختارة «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» لمطابقة لفظ القرآن الكريم.

قال النووي: فإن مر على قوم سلم عليهم وعاد إلى القراءة، فإن أعاد التعوذ كان حسنا. قال ابن الجزري: والمختار عند أئمة القراءة الجهر بها. وقيده أبو شامة بما إذا كان بحضرته من يسمعه. قال لأن الجهر بالتعوذ إظهار شعار القراءة، ومن فوائده أن السامع ينصت للقراءة من أولها لا يفوته منها شيء.

خامسا: تحسين الصوت بالقراءة. فإن لم يكن القارئ حسن الصوت، حسنه ما استطاع، لحديث ابن حبان وغيره: «زينوا القرآن بأصواتكم». وفي رواية: «حسنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا».

وروي مسلم أن النبي ﷺ قال: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به». وصحح الحاكم وابن حبان قول رسول الله ﷺ: «الله أشد أذنا للرجل الحسن الصوت بالقرآن، من صاحب القينة إلى قينته».

وفي الصحيحين عن جبير بن مطعم، قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحدا أحسن صوتا أو قراءة منه».

وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال لأبي موسى: «لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة؟ لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود». وفي رواية أن أبا موسى قال للنبي ﷺ: أما أني لو علمت بمكانك لحبرته لك تحبيرا. أي حسنت القراءة وزينتها لك بصوتي تزيينا.

فهذه الأحاديث الصحيحة صريحة في استحباب تحسين الصوت بالقراءة، فإن في الصوت الحسن حسن التأثير عند القارئ والسامع.

أما التطريب، وهو القراءة بالألحان، والترنم والتغني، فقد أجازه جماعة من

العلماء، منهم الشافعي حيث نص في المختصر: أنه لا بأس بها. وذكر الطحاوي عن أبي حنيفة وأصحابه: أنهم كانوا يستمعون القرآن بالألحان، واستدل هذا الفريق بما رواه البخاري، قال رسول الله ﷺ: «من لم يتغن بالقرآن فليس منا». وقالوا: إن التطريب أقوى أثرا في النفوس، وأشد جذبا لها على الاستماع والإصغاء، ولا تترتب عليه مفسدة.

ومنعه جماعة من العلماء، وقالوا بكراهته. وينسب هذا القول إلى مالك وأحمد وغيرهما، واحتجوا بما أخرجه الطبراني والبيهقي، من قوله ﷺ: «اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الكتابين، وأهل الفسق، فإنه سيجيء أقوام يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم، وقلوب من يعجبهم شأنهم».

ومن المعروف أن لحون العرب وقراءة الصحابة ومن بعدهم لم تكن صياحا عاليا، ولا غناء مسرفا، يتنافى مع الوقار والخشوع وجلال القرآن. ويقولون: إن التطريب كثيرا ما يشغل المستمع والقارئ بالنغمات، عن التدبر والاعتبار. ويجيبون عن أحاديث التغني بالقرآن بأن المقصود الاستغناء بالقرآن عن الكتب السابقة، والاستغناء به وترفع حامله عن الدنايا والفقر النفسي، أو المقصود بالتغني بالقرآن تحسين الصوت به دون الصياح والتمطيط.

قال ابن كثير: المطلوب شرعا، إنما هو التحسين بالصوت، الباعث على تدبر القرآن وتفهمه، والخشوع والانقياد للطاعة. فأما الصوت بالنغمات المحدثة، المركبة على الأوزان والأوضاع الملهية، والقانون الموسيقاتي، فالقرآن ينزه عن هذا، ويجل ويعظم أن يسلك في أدائه هذا المذهب. وقد جاءت السنة بالتحذير من قراءة القرآن بلحون أهل الفسق والترجيع به ترجيع الغناء، أ. هـ.

والتحقيق في الموضوع أنه لا إباحة على الإطلاق، ولا كراهة على الإطلاق. بل المكروه - كما قال الرافعي - أن يفرط في المد، وفي إشباع الحركات حتى يتولد من الفتحة ألف، ومن الضمة واو، ومن الكسرة ياء، أو يدغم في غير موضع الإدغام، فإن لم ينته إلى هذا الحد فلا كراهة. وقال في زوائد الروضة: والصحيح أن الإفراط على الوجه المذكور حرام، يفسق به القارئ ويأثم المستمع لأنه عدل به عن نهجه القويم أ. هـ.

وقال النووي في كتابه «التبيان». قال أقضى القضاة الماوردي في كتابه الحاوي: القراءة بالألحان الموضوعة: إن أخرجت لفظ القرآن عن صيغته، بإدخال حركات فيه، أو إخراج حركات منه، أو قصر ممدود، أو مد مقصور، أو تمطيط يخفى به بعض اللفظ، ويلتبس المعنى، فهو حرام يفسق به القارئ، ويأثم به المستمع. وإن لم يخرجه اللحن عن لفظه وقراءته على ترتيله، كان مباحا، لأنه زاد بألحانه في تحسينه. أ. هـ.

وعلى هذا التفصيل يجمع بين أدلة جواز التطريب، وأدلة كراهته، وتأتلف النصوص ويرفع منها. التناقض والاختلاف.

سادسا: لا خلاف في جواز رفع الصوت بالقراءة والإسرار بها، ولكن الخلاف في الأفضل منهما. وقد وردت أحاديث توحي باستحباب الجهر ورفع الصوت كحديث الصحيحين: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت، يتغنى بالقرآن يجهر به». كما وردت أحاديث تفضل الإسرار وتستحبه، كقوله ﷺ: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والسر بالقرآن كالسر بالصدقة».

والتحقيق أن أفضلية كل من الجهر والإسرار، تتوقف على حال القارئ وظروف القراء والمدار تحقيق آداب القرآن، وتحقيق أهدافه. وعلى ذلك جمع النووي بين الحديثين المذكورين بقوله: والجمع بينهما أن الإخفاء أفضل حيث خاف الرياء، أو تأذى مصلون أو قيام بجهره، والجهر أفضل في غير ذلك، لأن العمل فيه أكثر، ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين، ولأنه يوقظ قلب القارئ ويجمع همه إلى الفكر، ويصرف سمعه إليه، ويطرد النوم، ويزيد في النشاط. ويدل لهذا الجمع حديث أبي داود بسند صحيح عن أبي سعيد: «اعتكف رسول الله ﷺ في المسجد، فسمعهم يجهرون بالقراءة، فكشف الستر وقال«ألا إن كلكم مناج لربه، فلا يؤذين بعضكم بعضا، ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة».

أما إذا كان القارئ منفردا، ولم يحط به شيء من الظروف السابقة، فإنه يستحب له الجهر ببعض القراءة، والإسرار ببعضها، لأن المسر قد يمل، فيأنس بالجهر، والجاهر قد يكل، فيستريح بالإسرار.

سابعا: القراءة على ترتيب المصحف سورا وآيات. وأما قراءة السور مرتبة، فهو

الأولى باتفاق. قال النووي: لأن ترتيبها لحكمة، فلا يتركها إلا فيما ورد فيه الشرع، كصلاة صبح الجمعة بـ﴿الٓمٓ ① تَنزِيلُ﴾ (السجدة: ١، ٢)، و﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ (الإنسان: ١)، ونظائره.

أما قراءة آيات من سورة، ثم الانتقال إلى آيات من سورة أخرى، مع فصل يرفع إيهام الاتصال، فهو مكروه، لما روي عن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ مر ببلال وهو يقرأ من هذه السورة، ومن هذه السورة. فقال: يا بلال. مررت بك وأنت تقرأ من هذه السورة، ومن هذه السورة. قال: أخلطت الطيب بالطيب؟ فقال: «اقرأ السورة على وجهها». وفي رواية: إذا قرأت السورة فأنفذها». وعن ابن عوف قال: سألت ابن سيرين عن الرجل يقرأ من السورة آيتين، ثم يدعها ويأخذ في غيرها. قال: ليتق أحدكم أن يأثم إثما كبيرا وهو لا يشعر. وقد نقل القاضي أبوبكر الإجماع على عدم جواز قراءة آية من كل سورة. أ. هـ.

ثامنا: القراءة بالقراءات المختلفة. قال ابن الصلاح والنووي: إذا ابتدأ بقراءة أحد من القراء فينبغي أن لا يزال على تلك القراءة، ما دام الكلام مرتبطا، فإذا انقضى ارتباطه، فله أن يقرأ بقراءة أخرى، والأولى دوامه على الأولى ما دام في هذا المجلس أ. هـ.

وقال غيرهما بالمنع مطلقا.

ولا تجوز القراءة بالشاذ. نقل ابن عبد البر الإجماع على ذلك، لكن ذكر ابن الجزري جوازها في غير الصلاة. قياسا على رواية الحديث بالمعنى وهو ضعيف.

تاسعا: القراءة من المصحف ومن الحفظ. اختلف العلماء أيهما أفضل؟ فذهب جماعة إلى أن القراءة من الحفظ أفضل مطلقا، واختاره ابن عبد السلام، لأن فيه من التدبر ما لا يحصل بالقراءة في المصحف، ثم هو أبعد من الرياء. وذهب جماعة إلى أن القراءة في المصحف أفضل من القراءة من الحفظ، لأن النظر فيه عبادة مطلوبة، ثم إن القراءة في المصحف أسلم من الغلط. قال النووي: هكذا قال أصحابنا والسلف أيضا، ولم أر فيه خلافا. قال: ولو قيل: إنه يختلف باختلاف الأشخاص، فيختار القراءة من الحفظ لمن يكمل بذلك خشوعه، ويزيد على خشوعه وتدبره لو قرأ من المصحف، لكان هذا قولا حسنا.

عاشرا: البكاء عند قراءة القرآن وسماعه: قال النووي: البكاء عند قراءة القرآن صفة العارفين، وشعار الصالحين. قال الله تعالى: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ (الإسراء: ١٠٩)، ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (مريم: ٥٨). والأحاديث فيه كثيرة.

وقال الغزالي: يستحب البكاء مع القراءة وعندها، وطريق تحصيله أن يحضر قلبه الحزن والخوف بتأمل ما فيه من التهديد والوعيد الشديد، والوثاق والعهود، ثم ينظر تقصيره في ذلك. فإن لم يحضره حزن، فليبك على فقد ذلك، وإنه من أعظم المصائب. أ. هـ.

الحادي عشر: من راءى بالقرآن أو فجر به: الرياء من صفات المنافقين، قال تعالى فيهم: ﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (النساء: ١٤٢). والرياء لا يدخل عبادة إلا أفسدها، وقد قرن الله تعالى الرياء في الصدقات بعدم الإيمان بالله واليوم الآخر، حيث يقول: ﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ (النساء: ٣٨).

والرياء بقراءة القرآن يفسد ثوابه، ويبعده عن رحمة الله ورضوانه.

ومثل من يرائي بقراءة القرآن الذي يقرؤه ولا يعمل به، فهو في حكم المرائي، لأن الناس ينخدعون بمظهره، فيقعون في شرك باطنه.

وفيهم يقول ﷺ: «يأتي في آخر الزمان قوم، حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام، كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم يوم القيامة.» رواه البخاري.

وفي رواية أخرى له: «يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، ويقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم.» الحديث.

الثاني عشر: التكسب بالقرآن. كره جماعة من العلماء اتخاذ القرآن ـ قراءته أو تعليمه ـ مصدرا لكسب الرزق، وهم بذلك يقصدون رفع درجة حملة القران،

ليتخلصوا ويتمحضوا بهذه المنزلة للدار الآخرة، ولا شك في أن من استطاع أن يخدم كتاب الله قراءة وتعليما، وأن يدخر أجره للدار الباقية فهو خير ممن يتعجل أجره في الدار الفانية.

والحق: أن دليل كراهة التكسب بالقرآن غير سليم، فقد جعله ﷺ صداقا للزواج حين قال: «زوجناكها بما معك من القرآن». فشرع المقابل لتعليم القرآن، وما شرعه الرسول لا كراهة فيه. بل لو أضرب الحافظون عن القراءة والتعليم لاشتغالهم بتحصيل الرزق، وأصبح تعليم القرآن وقراءته لا يوجد بدون أجر، كان التكسب بالقرآن حينئذ مندوبا بل واجبا على الكفاية.

والله أعلم.

سبب النزول

علمنا من دراستنا السابقة أن ترتيب القرآن في المصحف، ليس هو ترتيبه في النزول، وأن آياته وسوره إنما نزلت مفرقة، حسب الوقائع والأحوال والمناسبات. هذه الوقائع والظروف والمناسبات، التي لابست نزول شيء من القرآن وتحدث عنها هذا الذي نزل، هي المسماة في اصطلاح هذا الفن بسبب النزول. ومن المعلوم أن كل آية من القرآن نزلت لحكمة وغاية. جِمَّاع هذه الحكم وتلك الغايات، تشريع ما فيه سعادة الإنسانية في دنياها وأخراها. ويمكن عَدُّ ذلك سببا عاما لنزول كل آية من آيات القرآن، لكن قصد العلماء من مبحث أسباب النزول معرفة الأسباب الخاصة التي لابست نزول بعض الآيات في عهد النبي ﷺ، وتحدثت عنها هذه الآيات. ومن الآيات ما نزل بعد أسباب خاصة، ومنها ما نزل على ضوء السبب العام، لحكمة يعلمها الحكيم الخبير.

أهمية هذا المبحث

قال السيوطي: أفرد سبب النزول بالتصنيف جماعة، أقدمهم على بن المديني شيخ البخاري. ومن أشهر الكتب، كتاب الواحدي، على ما فيه من إعزاز، وقد اختصره الجعبري، فحذف أسانيده، ولم يزد عليه شيئا، وألف فيه شيخ الإسلام ابن حجر كتابا، مات عنه مسودة، فلم نقف عليه كاملا. وقد ألفت فيه كتابا حافلا موجزا محررا، لم يؤلف مثله في هذا النوع، سميته: «لباب النقول في أسباب النزول».

الفائدة من معرفة سبب النزول

لا شك في أن معرفة سبب النزول تعين على فهم الآية فهما صحيحا، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب؛ كما تعين على تيسير الحفظ وتثبيت المعنى، فإن ربط

الأحكام بالحوادث والأشخاص والأزمنة والأمكنة يقرر المعلومات وتركيزها؛ كما تفيدنا وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.

وهناك من الآيات ما يصعب فهم المراد منه، ويقع الخطأ في تفسيره، إذا لم يعلم سبب نزوله.

من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ (البقرة: ١٥٨). فإن ظاهر اللفظ لا يقتضي أن السعي فرض، لكن بمعرفة سبب النزول يتضح المقصود. فقد روى أن عروة فهم خطأ من الآية أن السعي بين الصفا والمروة ليس فرضا، لأن نفي الجناح لا يتفق والفرضية، حسبما فهم، فسأل خالته عائشة أم المؤمنين ﵂ فأزالت إشكاله. قال لها، كما جاء في البخاري: أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؟ فوالله ما على أحد جناح ألا يطوف بالصفا والمروة. قالت: بئسما قلت يا بن أختي، إن هذه لو كانت كما أولتها عليه كانت «لا جناح عليه ألا يطوف بهما»، ولكنها أنزلت في الأنصار، كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية، التي كانوا يعبدونها في الجاهلية عند المشلل فكان من أهلّ يتحرج أن يطوف بالصفا المروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، قالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ الآية. قالت عائشة: وقد سن رسول الله ﷺ الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما.

فهم عروة من نفي الجناح على من يطوف، نفيه أيضا على من لا يطوف وهو غير لازم. كما أفهمته عائشة، بأن وجوب الطواف بالسنة، والآية هدفها رفع الحرج عمن يتحرج.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥). ظاهر اللفظ أن للإنسان أن يصلي إلى أي جهة يشاء، ولا يجب استقبال الكعبة لا في سفر ولا في حضر، لكن إذا علم أن الآية خاصة بنافلة السفر، أو فيمن صلى باجتهاد وبان خطؤه، علم أن الظاهر غير مراد. فعن ابن عمر ﵄ أن هذه الآية نزلت في صلاة المسافر على الراحلة، أينما توجهت.

وقيل: عميت القبلة على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبينوا خطأهم فعذروا.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٨٨). فقد أشكل المعنى على مروان بن الحكم، حتى قال: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا، لنعذبن أجمعين. فبين له ابن عباس أنها نزلت في أهل الكتاب، حين سألهم النبي عن شيء، فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه. أخرجه الشيخان.

طريق معرفة سبب النزول

طريق معرفة سبب النزول، هو النقل الصحيح عن الصحابة الذين عاصروا النزول، ووقفوا على الواقع والملابسات، ولا مجال للعقل فيه، إلا بالترجيح بين الروايات، أو الجمع بينها فيما ظاهره التعارض منها. ولا يحل القول في أسباب النزول عن الرأي والاجتهاد، وما قاله الصحابة بأسباب النزول إلا بقرائن تحتف بالقضايا، وربما لم يجزم بعضهم فقال: أحسب هذه الآية نزلت في كذا، كما أخرجه الأئمة الستة عن عبد الله بن الزبير، قال: خاصم الزبير رجلا من الأنصار في شراج الحرة، فقال النبي ﷺ: اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك. فقال الأنصاري: يا رسول الله أن كان ابن عمتك؟ فتلون وجهه ﷺ ... الحديث. قال الزبير: فما أحسب هذه الآيات إلا نزلت في ذلك: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥).

وعلى هذا، فإن روى سبب النزول صحابي فهو مقبول، لأن قول الصحابي له حكم الحديث المرفوع فيما لا مجال للاجتهاد فيه. قال الحاكم في علوم الحديث: إذا أخبر الصحابي، الذي شهد الوحي والتنزيل عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا فإنه حديث مسند. أ. هـ.

عبارات سبب النزول:

والعبارات الدالة على سبب النزول بعضها نص فيه لا تقبل التأويل والاحتمال، وبعضها غير صريح في السببية، بل يحتملها ويحتمل تفسير المعنى وما تضمنته الآية من الأحكام.

فمن الأول قولهم: سبب نزول الآية كذا، مصرحا بلفظ سبب النزول، وقولهم حدث كذا وكذا فنزلت الآية، أو سئل رسول الله ﷺ عن كذا، فأنزل الله كذا، بلفظ الفاء الدالة على الترتيب: فتلك عبارات نص في بيان السبب.

ومن الثاني قولهم: نزلت في كذا، فإن العبارة تحتمل السبب، وتحتمل تفسير المعنى.

وطريق معرفة المراد من هذه العبارة هو القرائن، فتارة تحمل على التفسير، إن ذكر فيها معنى تدل عليه الآية، وتارة تحمل على سبب النزول إن ذكر فيها شخص من الأشخاص، أو حادثة من الحوادث. فمثلا قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (النساء: ٩٤).

فإنه إذا قيل: نزلت هذه الآية في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، مر بهم رجل من سليم، وهو يسوق غنما له، فسلم عليهم، فقالوا: ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا. فعمدوا إليه فقتلوه وأتوا بغنمه إلى النبي ﷺ. إذا قيل هذا حمل على أنه بيان لسبب نزولها. وإذا قيل: نزلت في معاملة الناس حسبما يظهر منهم، حمل ذلك على المعنى والتفسير.

وقد ترتب على اختلاف الروايات واختلاف العبارات صور يحتاج المفسر إلى بيان الحكم فيها.

الصورة الأولى: روايتان متعارضتان كل منهما نص في سبب النزول، إحداهما صحيحة والأخرى غير صحيحة، فإنه تعتمد الراوية الصحيحة وترد الأخرى.

مثالها: ما أخرجه الشيخان وغيرهما: «اشتكى رسول الله ﷺ. فلم يقم ليلة، أو ليلتين، فأتته امرأة فقالت: يا محمد. ما أرى شيطانك إلا قد

تركك. فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ (الضحى: ١ ـ ٣).

وأخرج الطبراني، عن حفص بن ميسرة، عن أمه، عن أمها ـ وكانت خادم رسول الله ﷺ ـ أن جرواً دخل بيت النبي ﷺ، فدخل تحت السرير فمات، فمكث النبي ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي. فقال: يا خولة ما حدث في بيت رسول الله؟ جبريل لا يأتيني. فقلت في نفسي: لو هيأت البيت وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت الجرو، فجاء النبي ﷺ، ترعد لحيته، وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة، فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَتَرْضَىٰ﴾ (الضحى: ٥). قال الحافظ بن حجر في شرح البخاري: قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة، لكن كونها سبب نزول الآية غريب وفي إسناده من لا يعرف، فالمعتمد ما في الصحيح.

الصورة الثانية: روايتان متعارضتان، كل منهما نص في سبب النزول، وهـ صحيحتان، لكن لإحداهما مرجح على الأخرى، ككونها أصح، أو كون راوي شاهدا للقصة دون راوي الثانية، فإنه يؤخذ في سبب النزول بالرواية الراجحـ وتهمل الرواية الأخرى.

مثالها ما رواه البخاري عن ابن مسعود، قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ بالمدينة، وهو يتوكأ على عسيب، فمر بنفر من اليهود. فقال بعضهم: لو سألتموه. فقالوا: حدثنا عن الروح. فقام ساعة ورفع رأسه، فعرفت أنه يوحى إليه، حتى صعد الوحي، ثم قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥). وأخرج الترمذي وصححه عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل، فقالوا: اسألوه عن الروح فسألوه، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...﴾ (الإسراء: ٨٥) الآية. فالحديث الأول يقتضي أنها نزلت بالمدينة، والحديث الثاني يقتضي أنها نزلت بمكة، وقد رجح الأول بأن ما رواه البخاري أصح، وبأن ابن مسعود كان شاهدا للقصة.

الصورة الثالثة: روايتان متعارضتان، كل منهما نص في سبب النزول، وهما مستويتان في الصحة، ولا مرجح لإحداهما، لكن يمكن الجمع بينهما، بأن كلا من

السببين حصل مع تقارب زمانيهما، ونزلت الآية عقيب حصولهما، فإنه يحمل الأمر على تعدد السبب لنازل واحد، كآية اللعان، فقد صح أن سبب نزولها، قصة هلال بن أمية، وصح أن سبب نزولها، قصة عويمر، وحيث أمكن الأخذ بكلتا الروايتين، لقرب زمانيهما، عمل بهما، باعتبار أن الآية نزلت إجابة للحادثتين معا، إذ لا جائز أن نردهما لأنهما صحيحتان، ولا جائز أيضا أن نأخذ بواحدة ونهمل الأخرى، إذ لا مرجح بينهما، فتعين الأخذ بهما معا.

الصورة الرابعة: روايتان متعارضتان كل منهما نص في سسبب النزول، وهما مستويتان في الصحة، ولا مرجح لإحداهما على الأخرى، ولا يمكن عَدُّ نزول الآية إجابة لحادثيهما معا، لبعد الزمان بينهما، فيحمل الأمر على تعدد النزول.

مثالها: ما ذكره الزركشي في البرهان من أن سورة الإخلاص نزلت مرتين. مرة جوابا للمشركين بمكة، ومرة جوابا لأهل الكتاب بالمدينة. أ. هـ. وجعل ابن القيم آية الروح من هذا القسم. واعترض على هذا، بأن تكرار النزول لا ينبغي أن يصار إليه، وأجيب بأن في التكرار حكمة التعظيم من شأن المكرر، والتذكير به للاهتمام بأمره خوف نسيانه، وما أكثر الآيات المكررة في القرآن.

الصورة الخامسة: روايتان مختلفتان في نازل واحد، إحداهما نص في سبب النزول والأخرى ليست نصا فيه، فإنه تعتمد الأولى على أنها لسبب النزول، وتحمل الثانية على بيان المعنى والتفسير، لأن النص أقوى، فيعمل به.

مثالها: أخرج مسلم عن جابر قال: كانت اليهود تقول: من أتى امرأة من دبرها في قبلها جاء الولد أحول، فأنزل الله: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ (البقرة: ٢٢٣). وأخرج البخاري عن ابن عمر قال: أنزلت ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ﴾ في إتيان النساء في أدبارهن. فيعتمد حديث جابر في سبب النزول، ويحمل قول ابن عمر على الاستنباط والتفسير.

الصورة السادسة: روايتان مختلفتان في نازل واحد، مختلفتان وكلتاهما ليست نصا في سبب النزول، واللفظ يحتملهما، فإنهما تقبلان معا على أنهما للتفسير والبيان.

هذا، وكما تتعدد الأسباب لنازل واحد، قد يتعدد النازل لسبب واحد، فينزل لهذا السبب آيتان فأكثر في موضعين فأكثر.

مثاله: ماروي عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله. تذكر الرجال ولا تذكر النساء، فأنزلت ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾(الأحزاب: ٣٥). وأنزلت: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ (آل عمران: ١٩٥).

عموم اللفظ وخصوص السبب

عني بهذا المبحث علماء الأصول، وأفاضوا فيه، لأن هدفهم الاستدلال بألفاظ الشارع على الأحكام، وهو أيضا من مهام المشتغل بالقرآن للوصول إلى فهم المعنى المراد، وما يدخل تحته من أفراد. والصور العقلية للعموم والخصوص بين اللفظ وسببه أربع، لأن اللفظ إما عام وإما خاص.

(١) فإن كان السبب عامًّا واللفظ عامًّا فلا إشكال، حيث يثبت الحكم العام لكل أفراد السبب العام ثبوتا نصيا باتفاق، نظرا للتساوي بين اللفظ والسبب عموما. مثاله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ (الفتح: ١٨).

(٢) وإن كان السبب خاصًّا واللفظ خاصًّا ثبت الحكم الخاص للفرد الخاص الذي كان سببا، نظرا للتساوي بين اللفظ والسبب خصوصا، بلا خلاف بين العلماء. مثاله قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ (المسد: ١ ـ ٥).

(٣) وأما أن يكون السبب عاما واللفظ خاصًّا، فتلك صورة فرضية، غير واقعة في القرآن، لأنها تتنافى وبلاغته، لعدم وفاء اللفظ للسبب، إذ السبب بمنزلة السؤال، واللفظ المنزل بمنزلة الجواب، وقصور الجواب عن مطلوب السؤال مخل بالبلاغة.

(٤) الصورة الرابعة (وهي موطن النزاع) أن يكون السبب خاصّا واللفظ عامّا، وهذه الصورة واقعة في القرآن في غير موضع، لأن في اللفظ حينئذ وفاء بالسبب وزيادة.

وفي تحرير دلالة لفظها والحكم المستفاد منها اختلف العلماء: هل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب؟ وبعبارة أخرى: هل اللفظ العام الوارد على سبب خاص يتناول بنصه الأفراد المشبهين للسبب؟ أو أنّ هذا اللفظ العام مقصود به الفرد الخاص، وهو السبب، ودخول غيره في حكمه إنما يكون بدليل آخر غير النص؟

ولزيادة التوضيح، نقول: أخرج البخاري عن ابن عباس أن هلال بن أبي أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سمحاء، فقال النبي ﷺ: «البينة أو حد في ظهرك». فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلا، ينطلق يلتمس البينة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ (النور: ٦)، حتى بلغ: ﴿إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (النور: ٩).

فهذه الآية نزلت بحكم اللعان بلفظ عام «الذين يرمون»، والموصول من صيغ العموم. وسبب نزولها خاص، وهو قذف هلال لزوجته. فهل لفظ هذه الآية العام يتناول بنصه أفراد القاذفين، ولسنا في حاجة إلى قياس ولا إلى اجتهاد، لسحب حكم اللعان على غير هلال، حيث لا اجتهاد ولا قياس مع النص، والعبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب؟ أو لفظ الآية العام قاصر على السبب الخاص، وهو حكم قذف هلال، وأما من على شاكلة هلال فسحب الحكم عليهم مصدره القياس أو الاجتهاد أو دليل، والعبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ؟

ذهب الجمهور إلى الأول؛ مستدلين بأدلة ثلاثة:

الأول: لفظ الشارع وحده هو الدليل، وهو الحجة، وليس السؤال والسبب، ولذلك قد يعدل الشارع بالجواب عن سنن السؤال، لحكمة يعلمها الله، وتنبيها للسائل أنه كان ينبغي له أن يهتم بما أجيب عنه، لا بما سأل، كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (البقرة: ٢١٥).

فظاهر السبب السؤال عن الشيء الذي ينفق، واهتمام الجواب كان بالجهات التي ينفق عليها. فلفظ الشارع هو أساس الاستدلال.

الثاني: أن الأصل في اللغة هو حمل الألفاظ على معانيها الأصلية المتبادرة منها، ما لم تقم قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي، واللفظ العام حقيقته والمتبادر منه، حمله على كل الأفراد التي يصدق عليها، فتخصيصه بفرد يحتاج إلى قرينة مانعة من شموله لكل أفراده، ولا قرينة يعتد بها، لأن خصوص السبب لا يمنع شمول اللفظ له ولبقية أفراده.

الثالث: أن الصحابة ومن بعدهم من المجتهدين أخذوا بعموم الآيات في تطبيق الأحكام، واستدلوا بالآيات العامة على وقائع غير أسباب نزولها، من غير استخدام قياس أو دليل آخر. فاستدلوا بآية السرقة، على قطع يد أي سارق بشروطه، مع أن سبب نزولها سرقة المجن أو رداء صفوان.

بل صرحوا بعموم اللفظ مع خصوص السبب. فقد روى ابن جرير: حدثني محمد بن أبي معشر أخبرني أبو معشر سمعت سعيدا المقبري يذكر محمد بن كعب القرظي، فقال سعيد: إن في بعض كتب الله أن لله عبادا ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر، لبسوا لباس منسوك الضأن من اللين، يجترون الدنيا بالدين. فقال محمد بن كعب: هذا في كتاب الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية (البقرة: ٢٠٤).

أما شبه القائلين بخصوص السبب، فهي ضعيفة جدا ومردودة؛ فقد قالوا:

(١) إن الرواة نقلوا أسباب النزول، واهتم بها علماء التفسير، ولا فائدة لذلك إلا أن تكون العبرة بخصوص السبب. ورد على هذه الشبهة، بأن لمعرفة أسباب النزول فوائد كثيرة غير اعتبار خصوص السبب، كالاستعانة على فهم المعنى ومعرفة حكم التشريع، وغير ذلك، مما هو مذكور في أول البحث.

(٢) وقالوا: أجمع الفقهاء على أنه لا يحنث من ذاكر الفقه بعد أن قال: والله لا أذاكر جوابا لمن قال له: ذاكر التفسير. ولو كانت العبرة بعموم اللفظ حنث، لأن قوله «لا أذاكر» يعم الفقه وغيره، فدل حكم الفقهاء هذا على أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ.

ورد على هذه الشبهة بأن التخصيص في هذا المثال إنما جاء من قرينة، وهي العرف، وكلامنا في اللفظ العام إذا لم توجد قرينة مخصصة، فإن وجدت قرينة مخصصة للفظ العام، كان المقصود هو الخاص باتفاق.

(٣) وقالوا: إن ربط الشارع نزول الآية بسببها، دليل على أن العبرة بخصوص السبب، إذ لو لم يكن كذلك لنزلت قبل أن يسأل عنها، أو قبل أن تحدث الحادثة التي تكلمت بشأنها، أو لتأخر النزول زمنا عن سببه، حتى يبعد الارتباط، فهذا التعاقب بين النزول وسببه، يؤيد أن العبرة بخصوص السبب.

وأجيب عن هذه الشبهة بأن هذا التعاقب إنما هو لتثبيت الحكم، وتوضيح المقصود، وإظهار حكمة التشريع وليس لقصر الحكم على السبب الخاص.

(٤) وقالوا: أجمع العلماء على أنه لا يجوز إخراج صورة السبب من العام، إذا ورد مخصص، ولو أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لجاز إخراج صورة السبب، لأنها حينئذ كأي فرد من أفراده، أما وأنه لا يجوز فذلك دليل على أن للسبب مزية على بقية أفراد العام، فكان دليلا على أن العبرة بخصوص السبب.

وأجيب عن هذه الشبهة بأن عدم جواز إخراج صورة السبب بالمخصص، إنما هو لمزية فيه، ودخوله في العام دخولا أوليا، وذلك لا يمنع من دخول غيره معه.

(٥) وقالوا: لو كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لكان اللفظ العام الذي هو بمنزلة الجواب، غير مطابق للسبب الذي هو بمنزلة السؤال، مع أن التطابق بين السؤال والجواب ضروري بحكم القواعد البلاغية، فهو ضروري في القرآن الذي جاء في أعلى مراتبها، وحيث إن السبب خاص فالتطابق لا يكون إلا لقصر اللفظ العام على هذا الخاص.

وأجيب عن هذه الشبهة بأن الممنوع بلاغة أن يقصر الجواب عن السؤال، أما أن يكون الجواب عامًا شاملا للسبب وغيره، فإنه لا يخل بأعلى مراتب البلاغة، إذ يحصل التطابق بذكر حكم الخاص، ولا يضر بيان حكم غيره ممن

يشبهه، بل في ذلك فائدة زائدة ترفع من قيمة الكلام، وحكمة منزله جل وعلا.

وحيث قد بطلت أدلة غير الجمهور وسلمت أدلته، صار الحكم له والاعتماد عليه.

ثمرة هذا الخلاف:

ولا شك في أن الجمهور وغير الجمهور، متفقون على أنه إذا قام دليل على قصر العام على سببه الخاص أو قام دليل على تحقق إرادة شمول أفراد العام وجب العمل بمقتضى الدليل.

ولا شك في أن الجمهور وغير الجمهور، متفقون على تعميم أحكام الآيات التي نزلت بلفظ عام على سبب خاص، حيث لم تقم قرينة مانعة من هذا التعميم.

ولا شك في أن دليل الحكم لصورة السبب هو النص عند الفريقين.

ولكن الخلاف على هذا ينحصر في دليل سحب حكم العام على غير أفراد السبب: هل ثبوت الحكم لغير أفراد السبب بالنص القطعي الثبوت، أو بالاجتهاد والقياس؟ وحيث إن الحكم على كل من الاعتبارين قائم وثابت بدليل شرعي بلا خلاف، فإن النزاع في دليله يجعل البحث من مهام خواص العلماء.

والله أعلم

المحكم والمتشابه في القرآن

ورد في القرآن ثلاث آيات :

إحداها تدل على أن القرآن محكم كله ، هي قوله تعالى : ﴿ الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود : ١) .

ثانيتها تدل على أن القرآن متشابه كله ، وهي قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ (الزمر : ٢٣) .

ثالثتها تدل على أن القرآن بعضه محكم ، وبعضه متشابه ، هي قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ (آل عمران : ٧) .

ولما كان للإحكام معان متعددة ، لغة واصطلاحا ، وللتشابه كذلك ، وبعض هذه المعاني تصلح في مكان لا تصلح فيه المعاني الأخرى ، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام ، لما كان الأمر كذلك حمل الإحكام في الآية الأولى على معنى الإتقان . قال في القاموس : وأحكمه أتقنه ، ومنعه من الفساد .

والقرآن كله بهذا المعنى محكم ، أي نظمت آياته نظما ، لا يطرأ عليه شيء يخل بفصاحته وبلاغته ، وذلك هو الإحكام من جهة اللفظ والصياغة . وهو بعد ذلك محكم كله من جهة المعاني لا يلحقه تناقض ، ولا يوصف خبر منه بكذب ، بل كل تشريع فيه منطو على مصلحة وحكمة .

ولما كان من معاني التشابه التماثل والالتباس ، حمل في الآية الثانية على المعنى الأول . فالقرآن الكريم كله متشابه ، في كونه أحسن الحديث ، وفي كونه مثاني ،

مكرر المواعظ والوعد والوعيد، يزداد بتكرار تلاوته حلاوة، حينما يمج كل حديث غيره إذا أعيد.

أما الآية الثالثة الدالة على أن بعض القرآن محكم، وبعضه متشابه، فهي موضوع البحث، وهي التي خاض فيها العلماء؛ فمن مقل، ومن مكثر، ومن باحث، ومن مفوض ممسك.

وسنحاول ضبط الشوارد، وحصر المنبسط، وتحديد الهدف والنتيجة، ليسهل التحصيل، وتتم الفائدة، وبالله التوفيق.

من الوضح أن المحكم والمتشابه، في الآية الثالثة متقابلان. وفي المقصود من كل منهما اختلف العلماء.

(١) فبعضهم يقول: المحكم: ما عرف المراد منه، ولو بالتأويل. والمتشابه: ما استأثر الله تعالى بعلمه، كقيام الساعة، وخروج الدجال، والحروف المقطعة في أوائل السور، فهي مما لا يهتدى العقل إليها، وكل ما لا يهتدي العقل إليه فهو متشابه غامض المعنى المقصود.

وهذا القول منسوب للحنفية، وجمهور أهل السنة. وهو يعني إمساكهم عن الكلام في هذه الأمور، وعدم البحث فيها، والوقوف عند الإيمان بأنها من عند الله، والوقوف عند اللفظ، ثم تسليم المعنى، وتفويضه لله؛ فيقولون عند كل من هذه الأمور: الله أعلم بمراده.

(٢) وبعضهم يقول: المحكم: الفرائض والحدود، والحلال والحرام، والوعد والوعيد وما يجب الإيمان والعمل به. والمتشابه: القصص والأمثال وما يجب الإيمان به، ولا يعمل به. وقد روي هذا عن عكرمة وقتادة ومجاهد.

وملحظ هذا الرأي حمل المتشابه على المتماثل في القرآن والكتب الأخرى. وليس على معنى التباس المقصود منه وخفائه.

(٣) وبعضهم يقول: المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا وجها واحدا، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ١) و ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾

(البقرة: ١٦٣) فيدخل فيه النص، والظاهر. والمتشابه ما احتمل أوجها في تفسيره وتأويله، ويدخل فيه المشترك اللفظي كالفرد واللمس.

(٤) وبعضهم يقول: المحكم الواضح المعنى الذي لا يتطرق إليه إشكال، والمتشابه الذي يحتاج إلى أمارة أو قرينة تحدد معناه.

وهذا الرأي قريب في حقيقته من سابقه.

(٥) وبعضهم يقول: المحكم ما استقل بنفسه، ولم يحتج إلى بيان، لأنه أصل من الأصول، والمتشابه ما يحتاج في فهمه إلى رده لبعض الأصول.

(٦) وقال الماوردي: المحكم ما كان معقول المعنى، والمتشابه بخلافه، كأعداد الصلوات، واختصاص الصيام برمضان دون شعبان. إلخ.

(٧) وقال الإمام الفخر الرازي:

إن اللفظ الذي جعل موضوعا لمعنى، إما ألا يكون محتملا لغيره، وإما أن يكون محتملا لغيره. الأول النص. والثاني: إما أن يكون احتماله لأحد المعاني راجحا ولغيره مرجوحا، وإما أن يكون احتماله لهما بالسوية. واللفظ بالنسبه للمعنى الراجح يسمى ظاهرا، وبالنسبة للمعنى المرجوح يسمى مؤولا. وبالنسبة للمعنيين المتساويين أو المعاني المتساوية يسمى مشتركا، وبالنسبة لأحدها على المعنيين يسمى مجملا. وقد يسمى اللفظ مشكلا إذا كان معناه الراجح باطلا، ومعناه المرجوح حقا.

إذا عرفت هذا، فاعلم أن المحكم ما كانت دلالته راجحة، وهو النص والظاهر، لاشتراكهما في حصول الترجيح، إلا أن النص راجح مانع من الغير، والظاهر راجح غير مانع. والمتشابه ما كانت دلالته غير راجحة وهو المجمل، والمؤول، والمشكل؛ لاشتراكهما في أن دلالة كل غير راجحة. وأما المشترك، فإن أريد منه كل معانيه، فهو من قبيل الظاهر، وإن أريد بعضها على التعيين فهو مجمل.

(٨) وقال الراغب في مفردات القرآن:

الآيات عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثة أضرب .

(١) محكم على الإطلاق .

(٢) ومتشابه على الإطلاق .

(٣) ومحكم من جه متشابه من موجه .

فالمتشابه بالجملة ثلاثة أضرب:

(أ) متشابه من جهة اللفظ فقط .

(ب) ومتشابه من جهة المعنى فقط .

(ج) ومتشابه من جهتهما .

(أ) فالمتشابه من جهة اللفظ فقط ضربان:

(١) متشابه يرجع إلى الألفاظ المفردة، إما من جهة الغرابة نحو «الأبّ» في قوله تعالى : ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ (عبس : ٣١) . وإما من جهة الاشتراك كاليد، واليمين .

(٢) ومتشابه يرجع إلى جملة الكلام المركب، إما بسبب اختصاره كقوله تعالى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ (النساء : ٣) . وإما بسبب بسطه : كقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى : ١١)، لأنه لو قال : ليس مثله شيء» كان أظهر للسامع . وإما بسبب نظمه ، كقوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ (الكهف : ١) . تقديره : أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا .

(ب) والمتشابه من جهة المعنى أوصاف الله تعالى وأوصاف القيامة.

(جـ) والمتشابه من جهتهما خمسة أضرب:

الأول: من جهة الكمية ، كالعموم والخصوص ، في قوله تعالى : ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ (التوبة : ٥) .

الثاني: من جهة الكيفية ، الوجوب والندب ، في الأمر في قوله تعالى : ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ (النساء : ٣) .

الثالث: من جهة الزمان، كالناسخ والمنسوخ، كقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ (آل عمران: ١٠٢). ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: ١٦).

الرابع: من جهة المكان، والأمور التي نزلت فيها، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ (البقرة: ١٨٩)، فإن من لا يعرف عادتهم في الجاهلية، وأنهم كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، وكأنهم يتحرجون من الدخول من الباب من أجل سقف الباب أن يحول بينهم وبين السماء. ومن لا يعرف عادتهم هذه يتعذر عليه تفسير هذه الآية.

الخامس: من جهة الشروط، التي يصح بها الفعل ويفسد، كشروط الصلاة والنكاح.

ثم قال: وهذه الجملة إذا تصورت، علم أن كل ماذكره المفسرون في تفسير المتشابه، لا يخرج عن هذه التقاسيم.

معرفة المتشابه وعدم معرفته

ويختلف العلماء في معرفة المتشابه. فبعضهم يرى أن الله استأثر بعلمه، وأنه لا سبيل إلى معرفته، وبعبارة أدق، أنه لا يجوز تتبعه والبحث والتشقيق فيه. ويعارضهم في هذا الرأي فريق آخر. وقبل الشروع في بيان وجهة نظر كل من الفريقين، ينبغي أولا تحرير موطن النزاع، وتحديد معنى المتشابه، الذي نغلق باب البحث فيه أو نفتحه.

وقد ذكرنا سبعة آراء في معنى المتشابه، وتركنا كثيرا من الآراء لضعفها، أو لغناء ما ذكر عنها.

والباحث فيما ذكرنا، والمحقق في موطن النزاع، يجد أن المتشابه المقصود بإغلاق أو فتح تأويله، هو ما يتعلق بقيام الساعة، وخروج الدابة، والدجال والحروف المقطعة، وما يوهم التشبيه من صفات الله تعالى، وأمثال ذلك، مما لا يرفع الجدل تشابهه والتباسه.

فالفريق الأول، وهو المختار عند أهل السنة، يمنعون التأويل، ويقفون عند قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ من الآية الكريمة ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧). ويبتدئون بقوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ إلخ، على أنها جملة مستأنفة.

والفريق الثاني ـ وعلى رأسه مجاهد وابن عباس، وأبو الحسن الأشعري، والمعتزلة، واختاره النووي ـ يفتحون باب التأويل، ويرون أنه يمكن الاطلاع على علمه، ويعطفون ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ على لفظ الجلالة، ويجعلون جملة ﴿يَقُولُونَ﴾ حالا.

أدلة الفريقين (القائلين بالمعرفة والقائلين بعدمها):

ولكل من الفريقين أدلته التي يعضد بها رأيه:

فأصحاب الرأي القائل بالمعرفة يستدلون:

(١) بما رواه ابن المنذر عن طريق مجاهد، عن ابن عباس. في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾. قال: أنا ممن يعلم تأويله.

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، قال: يعلمون تأويله ويقولون: آمنا به.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك، قال: الراسخون في العلم يعلمون تأويله، لو لم يعلموا تأويله لم يعلموا ناسخه من منسوخه، ولا حلاله من حرامه، ولا محكمه من متشابهه.

(٢) وبأن الله أورد هذا في مقام مدح العلماء، فلو كانوا لا يعرفون معناه لشاركوا العامة.

(٣) وبقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١).

فهذه الآية تدل على أن القرآن فصلت آياته وبينت.

(٤) وبقوله ﷺ: «وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس»، فدل على أن القليل من الناس يعلم المتشابهات، وهم الراسخون في العلم.

(٥) وبأنه لو أريد في الآية بيان حظ الراسخين مقابلا لبيان حظ الزائغين لكان المناسب أن يقال: وأما الراسخون فيقولون.

(٦) وبما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ، دعا لابن عباس فقال: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل. فلو كان التأويل مما لا يعلمه إلا الله تعالى لما كان للدعاء معنى.

(٧) وبأنه من المستبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته.

ثم قالوا: والحكمة في إنزال المتشابه إظهار فضل العلماء، لأنهم بهذا المتشابه يزداد حرصهم على الاجتهاد في تدبره، وتحصيل العلوم منه، واستنباط الأحكام المرادة به، فينالون بذلك الرضا من الله، والأجر العظيم.

وأصحاب الرأي الآخر يستدلون:

(١) بقراءة ابن مسعود: «وإن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به». ففي هذه القراءة لا يمكن عطف «الراسخون» على لفظ الجلالة لاختلافهما جرا ورفعا، فالواو للاستئناف قطعا.

وهذه الرواية وإن لم تثبت بها القراءة، فأقل درجتها أن تكون خبرا بإسناد صحيح.

(٢) وبما أخرجه الشيخان عن عائشة قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولُو الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧) قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمى الله، فاحذرهم»

(٣) وبما أخرجه الطبراني عن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا أخاف على أمتي إلا ثلاث خلال، أن يكثر لهم المال، فيتحاسدوا،

فيقتتلوا، وأن يفتح لهم الكتاب، فيأخذه المؤمن يبتغي تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله. . .» الحديث.

(٤) وبما أخرجه ابن مردويه عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ قال: «إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به».

(٥) وبما أخرجه ابن أبي حاتم عن عائشة، قالت: «كان رسوخهم في العلم أن آمنوا بمتشابهه ولا يعلمونه».

(٦) وبما أخرجه الدرامي من أن رجلا جعل يسأل عن متشابه القرآن، فأرسل إليه عمر، فضربه، ثم أمر أبا موسى الأشعري أن يمنعه من مجالسة أحد من المسلمين.

(٧) وبأن الآية دلت على ذم متبعي المتشابه، ووصفهم بالزيغ، وابتغاء الفتنة، وعلى مدح الذين فوضوا العلم إلى الله، وسلموا إليه، كما مدح الله المؤمنين بالغيب.

ثم قالوا: إن الحكمة في إنزال المتشابه على هذا، هي الابتلاء والاختبار، لئلا يستمر العالم في أبهة العلم وزهوه وعجبه، بل يعود إلى التذلل، والاستسلام، والاعتراف بالقصور.

الرأي المختار:

«أما بعد»، فلكل من الرأيين وجاهة ودليل، والباحث المحقق لا يميل إلى الرأي الأول كل الميل، ولا يميل إلى الرأي الثاني كل الميل.

لا يميل إلى الرأي بكل أطرافه، فيتخبط في تأويل الحروف المقطعة وفي متشابه الصفات، ويعتقد أنه أتى بالمعنى المراد، وعلم المتشابه.

ولا يميل إلى الرأي الثاني بكل جموده، فيمسك عن البحث خشية الزلل، ويغلق على العقل باب التفكير منذ البداية، فيضع كثيرا من آيات القرآن، في

غياهب الجهل وحبائل الشبهات .

ولكن ليبحث ، ويحاول الوصول ، ثم يسلم المراد إلى الله تعالى .

ولو تتبعنا موضوع النزاع ، وحققنا المتشابه ، الذي يعجز العقل عن الوصول لمعناه المراد ، لحصرناه في دائرة محدودة . ولذلك يعجبني قول الراغب :

إن جميع المتشابه على ثلاثة أضرب:

(١) ضرب لا سبيل إلى الوقوف عليه ، كوقت الساعة ، وخروج الدابة ونحو ذلك .

(٢) وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته ، كالألفاظ الغريبة ، والأحكام الغَلِقَة .

(٣) وضرب متردد بين الأمرين ، يختص بمعرفته بعض الراسخين في العلم ، ويخفى على من دونهم ، وهو المشار إليه بقوله ﷺ لابن عباس : «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» .

وإذا عرفت هذه الجهة ، عرفت أن الوقوف على قوله : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ ووصله بقوله : ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ جائزان ، وأن لكل منهما وجها ، حسبما دل عليه التفصيل المتقدم . أ . هـ والله أعلم .

متشابه الصفات ومذاهب العلماء فيها

يتجه لفظ المتشابه أول ما يتجه ، إلى ما ورد في القرآن والسنة ، من صفات الله تعالى ، يستحيل حملها على ظاهرها ، حتى كاد العلماء يخصون المتشابه بمتشابه الصفات .

وقد أفردها ابن اللبان بالتأليف في كتاب خاص سماه «رد الآيات المتشابهات إلى الآيات المحكمات» .

وقبل الكلام على المذاهب فيها ، نعرض جملة منها ثم نطبق عليها الآراء والتوجيهات . فمن هذه الصفات .

(١) وجه الله:

قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ (القصص: ٨٨). وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: ٢٦، ٢٧). وقال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الكهف: ٢٨). وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥). وقال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ (الإنسان: ٩). وقال: ﴿وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ﴾ (الليل: ١٩، ٢٠).

(٢) يد الله ويمينه:

قال تعالى مخاطبا إبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (ص: ٧٥). وقال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (الفتح: ١٠). وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ (يس: ٧١). وقال: ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ (الحديد: ٢٩). وقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (المائدة: ٦٤). وقال تعالى: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الزمر: ٦٧).

(٣) عين الله:

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور: ٤٨). وقال: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ (القمر: ١٣، ١٤). وقال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ (طه: ٣٩).

(٤) جنب الله:

قال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٥٦).

(٥) ساق الله:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (القلم: ٤٢).

(٦) قدم الله:

قال رسول الله ﷺ : «ما تزال جهنم يلقى فيها، وهي تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع الجبار فيها قدمه، فتقول: قط. قط» أي حسبي حسبي.

(٧) نفس الله:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ (المائدة: ١١٦). وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ آل عمران: ٢٨، ٣٠).

(٨) مجيء الله وإتيانه وذهابه:

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر: ٢٢). وقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ (الأنعام: ١٥٨) وقال: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا﴾ (المائدة: ٢٤).

(٩) فوقية الله:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ (الأنعام: ١٨). وقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ (النحل: ٥٠).

(١٠) قرب الله:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ١٨٦). وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٦).

(١١) معية الله وعنايته:

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ الحديد: ٤). وقال: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾ (الأنعام: ٣). وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ (الزخرف: ٨٤). وقال: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ (فصلت: ٣٨). وقال: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ

هُوَ﴾ (الأنعام: ٥٩).

(١٢) استواء الله على العرش:

قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ (طه: ٥).

(١٣) حب الله وكرهه، وغضبه ورضاه وفرحه وعجبه وحلمه وحياؤه، ومكره واستهزاؤه، وفراغه:

قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة: ٥٤). وقال: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣١). وقال ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». وقال تعالى في الحديث القدسي: «وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته».

وقال تعالى: ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ (النور: ٩). وقال: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (المائدة: ١١٩).

وقال ﷺ: «لله أشد فرحا بتوبة عبده». وقال تعالى ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ (الرعد: ٥).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا﴾ (البقرة: ٢٦). وقال ﷺ: «وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه».

وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ٥٤).

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (البقرة: ١٥).

وقال تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾ (الرحمن: ٣١).

تلك النصوص يستحيل حمل الصفات فيها على معناها الظاهر المتبادر للمخاطب لما فيها من المشابهة بالحوادث؛ المعارضة لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١).

وقد اتفق أهل السنة على أن العقائد إنما تؤخذ من الآيات المحكمات، أو

البراهين العقلية اليقينية. واتفقوا على أنه إذا وجد من الآيات والأحاديث شيء يخالف ظاهره ما علم من الآيات المحكمات، وشهدت بصحته الأدلة العقلية اليقينية وجب أن نعتقد فيه أن ظاهره ليس مرادا لله تعالى ولا لرسوله.

واتفقوا على أنه إن كان لهذا المتشابه تأويل واحد كان هو المراد، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد: ٤)، لأن الكينونة معهم بالعلم والقدرة.

وكقوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٥٦). فإن المراد منه في حق الله وما يجب له.

واختلفوا بعد ذلك فيما إذا كان للمتشابه أكثر من تأويل واحد.

(أ) فذهب السلف إلى:

(١) الإيمان بالمتشابهات، وأنها من عند الله تعالى.

(٢) واعتقاد أن الظاهر غير مراد، لقيام الأدلة القطعية على خلافه.

(٣) وتفويض معرفتها إلى الله تعالى ورسوله، ولا يبحثون في الكيفية والتفاصيل، ولا يفسرون، ولا يؤولون.

ويعبر عن هذا المذهب ما روى عن الإمام مالك حين سئل عن الاستواء، في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ (طه: ٥). فقال: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وفي رواية عنه قال: هو كما وصف نفسه، ولا يقال: كيف؟ وكيف؟

وروي عن أم سلمة قولها في الآية المذكورة: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به من الإيمان، والجحود به كفر.

وعن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، أنه سئل عن الآية نفسها، فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ المبين، وعلينا التصديق.

وقال الترمزي: المذهب عند أهل العلم من الأئمة، مثل سفيان الثوري، ومالك، وابن المبارك، وابن عيينة، ووكيع، وغيرهم، أنهم قالوا في رؤية الله

تعالى: نروي هذه الأحاديث كما جاءت، ونؤمن بها، ولا يقال كيف؟ ولا نفسر ولا نتوهم.

هذا مذهب السلف من أهل السنة.

أما الخلف فقد افترقوا فرقتين:

(ب) فرقة ذهبت إلى إثبات صفات لائقة به سبحانه وتعالى عقلا وشرعا وإن لم نعرف حقيقة تلك الصفات، وهي صفات زائدة على الصفات المعلومة دل عليها السمع لا العقل، فهي صفات سمعية. فيحمل الاستواء على إثبات صفة لله تعالى تسمى الاستواء، والله أعلم بحقيقتها. ومثل ذلك يقال في الوجه واليد وغيرهما.

(جـ) وفرقة ذهبت إلى حمل اللفظ إلى أقرب مجاز يصح، حيث تعذر استعماله في الحقيقة، لأنه ينبغي صرف اللفظ عن مقام الإهمال المؤدي إلى الحيرة.

وقد أطنبت وأسرفت هذه الفرقة في التأويلات، وكثير منها ما هو بعيد عقلا وشرعا كتفسير بعضهم لقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ إذ قال: إن التقدير: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ علا - أي ارتفع - كلام تم، ثم ابتدأ ﴿الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾. وهذا التفسير مردود، لأنه يجعل «على» فعلا، وهي حرف باتفاق، إذ لو كانت فعلا لكتبت بالألف، كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ (القصص: ٤). ولأنه رفع «العرش» ولم يرفعه أحد من القراء.

وكتفسير بعضهم للآية بأن الكلام تم عند قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ثم ابتداء بقوله: ﴿اسْتَوَىٰ ۝ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (طه: ٥، ٦). وهو مردود بأنه يغير نظام الآية، ولا يزيل نفس الإشكال في قوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ (الأعراف: ٥٤، يونس: ٣ . . . . . إلخ).

ومن التأويلات ما هو معقول مقبول، كقولهم: إن المراد من وجهه ذاته، ومن يده قدرته، ومن يمينه فضله، ومن عينه رعايته، ومن جنبه حقه، ومن الكشف عن الساق شدة الأمر وعظمته، ومن قدم الله أثر من خلقته، ومن نفس الله ذاته أو سره، ومن مجيء الله وإتيانه مجيء أمره أو جنده، ومن ذهابه ذهاب موسى بتوفيق ربه، ومن فوقيته علوه المعنوي وقهره، ومن قربه علمه وقدرته، ومن عنديته الزلفى

والرفعة، ومن حبه وكرهه وغضبه إلى غير ذلك من صفات الأعراض النفسية لازمها.

وقال الإمام فخر الدين: جميع الأعراض النفسانية، أعني الرحمة والفرح والسرور والغضب والحياء والمكر والاستهزاء لها أوائل ولها غايات. والغضب مثلا أوله غليان دم القلب، وغايته إرادة إيصال الضرر إلى المغضوب عليه، فلفظ الغضب في حق الله لا يحمل على أوله الذي هو غليان دم القلب، بل على غايته التي هي إرادة الإضرار. وكذا الحياء، أوله انكسار يحصل في النفس وغرضه ترك الفعل، فلفظ الحياء في حق الله يحمل على ترك الفعل، لا على انكسار النفس.

قال الحسين بن الفضل: العجب من الله إنكار الشيء وتعظيمه.

وخلاصة الفرق بين المذاهب الثلاثة لأهل السنة أن السلف يفوضون تفويضا مطلقا ويمسكون عن التفسير. والمذهب الأخير للخلف يؤول تأويلا مطلقا ويخرج الألفاظ عن معانيها الحقيقية إلى المعاني المجازية. أما المذهب الثاني، فهو وسط بين المذهبين، فهو ليس بالتفويض المحض، وليس بالتأويل المفرط، بل فيه تفسير يحمل اللفظ على صفة لائقة به تعالى، مع الإمساك عن تفصيلها، فيكون المراد من اللفظ معلوما من وجه، متشابها من وجه.

لكنه إلى مذهب السلف أقرب منه إلى المذهب الثالث.

وقد حاول ابن دقيق العيد أن يأخذ بالمذهب الأول والمذهب الثالث، فقال: إذا كان التأويل قريبا من لسان العرب لم ينكر، أو بعيداً توقفنا عنه، وآمنا بمعناه على الوجه الذي أريد به، مع التنزيه. أ. هـ.

فائدة إنزال المتشابه:

ولعلنا في نهاية المطاف يخطر ببالنا السؤال عن حكمة إنزال المتشابه ممن أراد لعباده البيان والهدى.

والجواب عن هذا السؤال يختلف باختلاف اختيارنا لأحد الرأيين: هل المتشابه مما يعلمه الراسخون في العلم، أو هو مما استأثر الله بعلمه؟

فلو قلنا بالأول كان من فوائد إنزاله :

(١) حث العلماء على النظر الموجب للعلم :

(٢) وظهور التفاضل بين العلماء وتفاوت الدرجات بينهم ، إذ لو كان القرآن كله محكما لا يحتاج إلى تأويل لاستوت منازل الخلق ، ولم يظهر فضل العالم على غيره .

(٣) فتح باب للأجر والمثوبة ، فإن بحث العلماء عن دقائقه من أعظم القرب ، وإن مزيد المشقة في الوصول إلى المراد يوجب مزيد الثواب .

(٤) فتح باب الجد والاجتهاد في العلوم . فإن القرآن باشتماله على المتشابه يحمل العلماء على تحصيل علوم كثيرة كاللغة والنحو والمعاني والبيان وأصول الفقه ليتمكنوا من التأويلات ، وترجيح بعضها على بعض .

(٥) تحريك العقول إلى الفكر والنظر للتخلص من ظلمة الجهل والتقليد .

ولو قلنا بالرأي الثاني وأن المتشابه مما استأثر الله بعلمه ، كان من فوائد إنزاله :

ابتلاء العباد واختبارهم : هل سيلتزمون بالوقوف عنده والتوقف فيه ، والتفويض والتسليم والتعبد بالاشتغال به من جهة التلاوة ، أو يتشككون ويثيرون به الفتن بين المسلمين؟

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران : ٧) .

المشكل وموهم الاختلاف

المراد من هذا البحث ، الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض والاختلاف . وينبغي قبل البحث أن نضع في حسباننا الحقائق الأساسية الآتية :

أولا : كلام الله تعالى منزه قطعا عن التناقض والتضارب ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء : ٨٢) .

ثانيا : أن ما يقع للمبتدئين وقليلي العلم من توهم تعارض بعض الآيات وتناقضها ، إما هو بسبب ضعفهم في معرفة الأساليب العربية ، وإما بسبب عدم تعمقهم في دراسة التفسير ، وقلة علمهم بحق الكلام الحكيم .

ثالثا : أن كل كلامين ظاهرهما التعارض إذا رفع تناقضهما بإضافة شيء إلى أحدهما فليسا متناقضين : وإنما المتناقضان ما تضادا من كل جهة . فمثلا :

أكل محمد ، ولم يأكل محمد ، ليسا متضادين ، إذا أضفنا مفعولا به مختلفا لكل منهما . بأن قلنا : أكل محمد الخبز ، ولم يأكل محمد التفاح .

أكل محمد التفاح ولم يأكل محمد التفاح ؛ ليسا متضادين إذا أضفنا مفعولا مطلقا مختلفا لكل منهما . بأن قلنا : أكل محمد التفاح أكلة واحدة ، ولم يأكل محمد التفاح أكلتين .

حتى إن اتفقا في المفعول به والمفعول المطلق فليسا متضادين إذا أضفنا حالا من الفاعل مختلفا لكل منهما ؛ بأن قلنا : أكل محمد التفاح أكلة واحدة واقفا ولم يأكل محمد التفاح أكلة واحدة جالسا .

حتى وإن اتفقا في المفعول به والمفعول المطلق وحال الفاعل فليسا متضادين إذا أضفنا حالا من المفعول مختلفا لكل منهما ، بأن قلنا : أكل محمد التفاح نيئا أكلة واحدة واقفا ولم يأكل التفاح ناضجا أكلة واحدة واقفا .

وهكذا إن أضفنا زمانا ، أو مكانا ، أو آلة ، أو غير ذلك من الجهات .

فإذا راعينا هذه الحقائق ، وتدبرنا كلام الله تعالى ، وجدناه خاليا من التناقض والتعارض . تعالى الله وكلامه عن النقائص .

وقال الإمام الزركشي في البرهان :

وللاختلاف أسباب :

الأول: وقوع المخبر به على أحوال مختلفة ، وتطويرات شتى ، كقوله تعالى في خلق آدم ﴿ **مِن تُرَابٍ** ﴾ (آل عمران : ٥٩) . ﴿ **مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴾ (الحجر : ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٣) . ﴿ **مِّن طِينٍ لَّازِبٍ** ﴾ (الصافات : ١١) . ﴿ **مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ** ﴾ (الرحمن : ١٤) .

وهذه الألفاظ مختلفة ، ومعانيها في أحوال مختلفة ، لأن الصلصال غير

الحمإ والحمأ غير التراب؛ إلا أن مرجعها كلها إلى جوهر وهو التراب ومن التراب تدرجت هذه الأحوال.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف: ١٠٧، الشعراء: ٣٢)، وفي موضع ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ (النمل: ١٠). والجان هو الصغير من الحيات، والثعبان هو الكبير منها، وذلك لأن خلقها خلق الثعبان المبين، واهتزازها وحركاتها وخفتها كاهتزاز الجان وخفته.

الثاني: اختلاف الموضوع كقوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ (الصافات: ٢٤)، وقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف: ٦)، مع قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ﴾ (الرحمن: ٣٩). فتحمل الآية الأولى على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل، والثانية على ما يستلزم الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه. (فالاختلاف في الموضوع المسئول عنه)

وقوله: ﴿وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (البقرة: ١٧٤)، مع قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الحجر: ٩٢، ٩٣). قيل: المنفى كلام التلطف والإكرام، والمثبت سؤال التوبيخ والإهانة فلا تتنافى.

وكقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ (الشورى: ٤٠)، مع قوله: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ (هود: ٢٠). الجواب أن التضعيف هنا ليس على حد التضعيف في الحسنات؛ بل هو راجع لتضعيف مرتكباتهم، فكان لكل مرتكب منها عذاب يخصه، فليس التضعيف من هذا الطريق على ما هو في الطريق الآخر، وإنما المراد هنا تكثيره بحسب كثرة المجترحات، لا أن السيئة الواحدة يضاعف الجزاء عليها، بدليل سياق تلك الآية، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَٰؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (هود: ١٨، ١٩). فهؤلاء الذين كذبوا على ربهم، وصدوا عن سبيله، وبغوها عوجا، وكفروا قد ارتكبوا مرتكبات يعذبون بكل مرتكب منها.

وكقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾(الأنعام ٢٣)،

مع قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٤٢). فإن الأولى تقتضي أنهم كتموا كفرهم السابق. والجواب من وجهين:

أحدهما: أن للقيامة مواطن، ففي بعضها يقع منهم الكذب، وفي بعضها لا يقع.

والثاني: أن الكذب يكون بأقوالهم، والصدق يكون من جوارحهم، حيث يأمرها الله بالنطق فتنطق بالصدق.

وكقوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ (الأنعام: ١٦٤)، مع قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

والجواب أن المراد لا تكسب شرا ولا إثما، بدليل سبب النزول، وهو أن الكفار، قالوا للنبي ﷺ: ارجع يا محمد إلى ديننا، واعبدْ آلهتنا، واترك ما أنت عليه، ونحن نتكفل لك بكل تبَاعَة تتوقعها في دنياك وآخرتك، فنزلت الآية.

والآية الأخرى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ ذكر فيها الأمران، ولهذا لما ذكر القسمين ذكر ما يميز أحدهما عن الآخر.

ومنه قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ (آل عمران: ١٠٢)، مع قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: ١٦).

فتحمل الآية الأولى على الوحيد، والثانية على الأعمال، والمقام يقتضى ذلك لأنه قال بعد الأولى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(آل عمران: ١٠٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ (النساء: ٣)، مع قوله تعالى في أواخر السورة: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ (النساء: ١٢٩). فالأولى تفهم إمكان العدل والثانية تنفيه.

والجواب أن المراد بالعدل في الأولى بين الأزواج، في توفية حقوقهن، وهذا ممكن الموقوع. والمراد به في الثانية الميل القلبي، والإنسان لا يملك ميل قلبه إلى بعض زوجاته دون بعض.

وقد كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه، ثم يقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تؤخذني بما لا أملك». يعني ميل القلب.

وكان عمر يقول: اللهم قلبي فلا أملكه، وأما ما سوى ذلك فأرجو أن أعدل.

وقد يحتاج الاختلاف إلى تقدير: فيرتفع به الإشكال، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ (النساء: ٩٥)، ثم قال سبحانه: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٥). والأصل في الأولى: وفضل الله المجاهدين على القاعدين من الأصحاء درجات وأجرا عظيما.

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ (الأعراف: ٢٨)، مع قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ (الإسراء: ١٦). فالأولى في الأمر الشرعي، والثانية في الأمر الكوني وهو القضاء.

السبب الثالث: الاختلاف في جهتي الفعل، كقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ (الأنفال: ١٧). نفي القتل عنهم باعتبار التأثير، وهو يسند إليهم على جهة الكسب والمباشرة.

ولهذا قال الجمهور: إن الأفعال مخلوقة لله تعالى، مكتسبة للآدميين، فنفي الفعل بإحدى الجهتين لا يعارضه إثباته بالجهة الأخرى.

وكذا قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ (الأنفال: ١٧)، أي ما رميت خلقا إذا رميت كسبا.

قال ابن جرير الطبري: ،وهي الدليل على أن الله خالق لأفعال العباد، فإن الله تعالى أضافه إلى نبيه، ثم نفاه عنه، وذلك فعل واحد، لأنه من الله تعالى التوصيل إليهم، ومن نبيه بالحذف والإرسال. وإذا ثبت هذا لزم مثله في سائر أفعال العباد المكتسبة، فمن الله تعالى الإنشاء والإيجاد. ومن الخلق الاكتساب.

السبب الرابع: الاختلاف في الحقيقة والمجاز، كقوله: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ (الحج: ٢). ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ (إبراهيم: ١٧).

وهو يرجع إلى قول المناطقة: الاختلاف بالإضافة، أي ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ﴾ بالإضافة إلى أهوال القيامة مجازا ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ بالإضافة إلى الخمر حقيقة.

السبب الخامس: الاختلاف بوجهين واعتبارين، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد: ٢٨)، مع قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الأنفال: ٢). فقد يظن أن الوجل خلاف الطمأنينة.

وجوابه: أن الطمأنينة إنما تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد، والوجل يكون عند خوف الزيغ، والذهاب عن الهدى، فتوجل القلوب لذلك.

وقد جمع بينهما في قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٣). فإن هؤلاء قد سكنت نفوسهم إلى معتقدتهم، ووثقوا به، فانتفى عنهم الشك.

وكقوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج: ٤)، مع قوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة: ٥). فهذا الاختلاف باعتبار حال المؤمن والكافر، بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (الفرقان: ٢٦). وقوله: ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ (المدثر: ٩، ١٠).

وكقوله: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ﴾ (البقرة: ٢٩)، مع قوله: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ (النازعات: ٢٧ ـ ٣٠).

فظاهر الآية الأولى أن خلق الأرض قبل السماء، وظاهر الثانية تأخر الأرض عن السماء، ولكن الفهم الصحيح يرفع التنافي: فالأولى تدل على أن الأرض وما فيها خلقت قبل السماء، وذلك صحيح، ثم دحيت الأرض بعد خلق السماء.

وكقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ (الأنعام: ٦١)، مع قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (السجدة: ١١)، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ (الزمر: ٤٢).

وجمع بينها بأن توفى ملك الموت بالدعاء والأمر، يدعو الأرواح فتجيبه، ثم يأمر أعوانه بقبضها ونزعها، وتوفى الله سبحانه وتعالى خلق الموت فيه.

انتهى كلام الإمام الزركشي بتصرف.

وقد ذكر في كلامه السابق خمسة أسباب للاختلاف وكان أساس رفع التعارض في جميعها هو أن التضاد ليس من جميع الوجوه، وبتقدير التغاير بين المتعارضين بوجه من الوجوه يرتفع التضاد والتناقض.

مجموعة أخرى من الآيات الموهمة الاختلاف والجمع بينها

(١) قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠١). وقال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (الصافات: ٢٧).

(٢) قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (الأنعام: ١٤٤). وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ (الكهف: ٥٧). وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ (البقرة: ١١٤).

فالاستفهام إنكاري بمعنى النفي. والمعنى: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا. لا أحد أظلم ممن أعرض، لا أحد أظلم ممن منع ذكر الله.

ورفع التعارض بتخصيص كل موضع بمعنى صلته، فكأنه قال: لا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله. لا أحد من المعرضين أظلم ممن ذكر فأعرض. لا أحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله.

وأجاب أبو حيان بأن نفى الأظلمية لا يستدعي نفي الظالمية؛ لأن نفى التفضيل ونفي الزيادة لا يستلزم نفي المساواة، ففي الآيات إثبات التسوية في الأظلمية، وإذا ثبتت التسوية فيها لم يكن أحد يزيد على الآخر، وصار المعنى: لا أحد أظلم من كذا وكذا وكذا، كما تقول: لا أحد أكبر من علي وبكر وخالد. وهو جواب حسن.

(٣) قال تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (البلد: ١). وقال: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ (التين: ١ ـ ٣).

فأخبر أولا أنه لا يقسم به، ثم أقسم به.

وأجيب بأن ﴿لا﴾ في قوله تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ﴾ زائدة ملغاة، وقيل؛ إنها رد لكلام سابق وبدء الكلام أقسم بهذا البلد.

(٤) قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الرعد: ١٦، الزمر ٦٢). وقال مخاطبا عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ (المائدة: ١١٠). وأجيب بأنه لا خالق غير الله، والمراد من خلق عيسى من الطين كهيئة الطير تصوير الطين وتشكيله على هيئة الطير، وليس بالإيجاد والإنشاء ابتداء وعلى أبدع وجه.

(٥) قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ (البقرة: ٥١). وقال: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ (الأعراف: ١٤٢).

والجواب أن الوعد كان ثلاثين ليلة، ثم بعد ذلك وعده بعشر أخرى، فتم ميقات ربه أربعين ليلة، فالآية الثانية إخبار تفصيلي، والآية الأخرى إخبار بما تم واستقر عليه الوعد.

(٦) قال تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ (الأنعام: ١٠٣)، وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢، ٢٣).

وأجيب بتخصيص النفي بالدنيا، والإثبات بالآخرة.

التعارض بين الآية والحديث:

وقد يقع التعارض الظاهري بين الآية والحديث، فيجمع بينهما بأوجه الجمع السابقة؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧) يعارضه أن النبي صلى الله عليه وسلم شج يوم أحد وكسرت رباعيته.

وأجيب بوجهين:

الأول: أن هذا كان قبل نزول الآية، لأن غزوة أحد كانت سنة ثلاث من الهجرة، وسورة المائدة من أواخر ما نزل بالمدينة.

الثاني: أن المراد العصمة من القتل، وفيه تنبيه على أنه ﷺ يجب عليه أن يحتمل من أنواع البلاء مادون النفس.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٣٢). يعارضه قوله ﷺ. «لن يدخل أحدا عمله الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا. إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة».

وأجيب بأن النجاة من النار بعفو الله، ودخول الجنة برحمة الله، وانقسام المنازل والدرجات بالأعمال. فالآية مراد منها المنازل والدرجات، والحديث مراد به أصل الدخول فلا تعارض.

والله أعلم.

النسخ

أهمية معرفة الناسخ والمنسوخ:

إن معرفة الناسخ والمنسوخ ضرورية لكل من تعرض لتفسير كلام الله ولكل من اشتغل بالفقه والأصول، لئلا تختلط عليه الأحكام، ويشكل عليه التأويل.

ولذا قال الأئمة: لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ. ويروى أن عليّا ـ كرم الله وجهه ـ رأى رجلا يشرح قصص القرآن للناس، فقال له: أتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: لا. فقال له: هلكت وأهلكت.

كما يروى عن ابن عباس ﵄ أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ (البقرة: ٢٦٩). قال: الحكمة معرفة الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه، والحرام والحلال.

ولهذه الأهمية عني به العلما والمجتهدون في كل عصر. ولما كنا في كلية أصول الدين بصدد إعداد حَمَلة كتاب الله للتصدي لتفسيره، كان حتما علينا أن نسلّحهم بهذا المبحث الذي لا غنى عنه لمفسر أو عالم، وبالله التوفيق.

تعريف النسخ

يطلق النسخ في اللغة على الإزالة والمحو والتعفية. تقول: نسخت الريح آثار القوم، أي أزالتها. ومنه قوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ (الحج: ٥٢).

كما يطلق على التحويل من شيء إلى شيء، على معنى فراغ الشيء الأول وصيرورة ما فيه إلى الشيء الثاني. قال السجستاني: والنسخ أن تحول ما في الخلية

من النحل والعسل إلى أخرى. ومنه تناسخ المواريث بمعنى تحويل الميراث من واحد إلى واحد، وتناسخ الأرواح (عند القائلين به) بمعنى انتقالها من بدن إلى بدن.

كما يطلق النسخ على تحديد الشيء وتكثير أمثاله، ونقل صورته مع بقاء أصله، ومنه نسخ الكتاب بمعنى نقل ما فيه، وحكاية خطه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية: ٢٩)، أي نسجله ونكتبه.

والنسخ في الاصطلاح رفع التلاوة أو الحكم الشرعي أو هما معا بخطاب شرعي. فخرج رفع الإباحة الأصلية، ورفع الحكم بالنوم أو الموت أو الجنون. كما أنه لا نسخ بعقل أو إجماع أو قياس على الصحيح كما سيأتي بيانه.

والعلاقة بين المعنى الاصطلاحي واللغوي واضحة على المعنيين الأولين، أما على المعنى الثالث فبعيدة.

الفرق بين النسخ والبيان

قال بعضهم: إن النسخ هو تأخير البيان. والتحقيق أن تأخير البيان أعم من النسخ، لأن تأخير البيان يشمل الجمل الشرعية التي لم تفهم تفصيلاتها ابتداء، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (البقرة: ٤٣). فإذا جاء وقت التكليف، بين لنا الحكم المراد منا تفصيلا بالهيئات والشروط بألفاظ غير الألفاظ الأولى المجملة.

كما يشمل العمل المأمور به في وقت، وقد سبق في علم الله أنه سيحيلنا عنه إلى غيره في وقت آخر، فإذا جاء ذلك الوقت، بين لنا تعالى ما كان مستورا عنا من التحويل عن ذلك العمل إلى غيره، وهو النسخ.

وبالجملة يمكن التفريق بين النسخ والبيان من وجوه:

الأول: أن بينهما عموما وخصوصا مطلقا. فكل نسخ بيان، وليس كل بيان نسخا كما سبق.

الثاني: أن البيان يقع في الأخبار وفي الأوامر، أما النسخ فيقع في الأوامر، ولا يقع في الأخبار، كما سيأتي توضيحه.

الثالث: أن البيان قد يقع موصولا بالمبين، أما النسخ فلا ينزل الناسخ موصولا بالمنسوخ، وإن اتصلا تلاوة وترتيبا في المصحف.

الفرق بين النسخ والتخصيص والاستثناء

ذهب قوم إلى أنها نوع واحد، والتبس عليهم الفرق بين النسخ والتخصيص والاستثناء.

قال الحافظ بن حزم: وهذا خطأ، لأن النسخ هو رفع حكم قد كان حقّا. وأما التخصيص، فهو أن يُخَصَّ شخص أو أشخاص من سائر النوع، كما خُصَّ عليه الصلاة والسلام بفرض التهجد، وإباحة تسع نسوة، وكما خص بنو هاشم وبنو عبد المطلب بتحريم الصدقة. وأما الاستثناء، فهو ما جاء بلفظ عام، ثم استثني منه بعض ما يقع عليه ذلك اللفظ. فالجملة المستثنى منها بعضها، لم يرد الله تعالى إلزامنا إياها بعمومها، ولا أراد إلا ما بقي منها بعد الاستثناء.

وأما النسخ، فالذي نهينا عنه اليوم قد كان مرادا منا بالأمس، أ. هـ بتصرف.

ويمكن حصر الفروق بين النسخ والتخصيص فيما يأتي:

أولا : أن حكم ما خرج بالتخصيص لم يكن مرادا من العام أصلا، بخلاف الحكم المنسوخ، فإنه كان مرادا في وقت من الأوقات.

ثانيا: أن التخصيص لا يأتي فيما إذا كان المأمور به واحدا، فإنه لا يعقل إخراج شيء منه، بخلاف النسخ، فإنه يتأتى إذا كان المأمور به واحدا، كنسخ بعض الأحكام الخاصة بالنبي ﷺ.

ثالثا: أن المنسوخ لا يجوز العمل به بعد النسخ، بخلاف العام بعد التخصيص فإن العمل به باق فيما بقي.

رابعا: أن النسخ لا يكون إلا بخطاب شرعي على الصحيح، لكن التخصيص يجوز بالدليل العقلي، وبالقياس، وبالإجماع.

خامسا: أن النسخ لا يكون إلا بخطاب متراخ، بخلاف التخصيص فإنه قد يكون بالمقارن.

سادسا: أن النسخ لا يكون في الأخبار، بل في الأوامر، أما التخصيص فإنه يكون في الأخبار.

هذا. ولما اشتبه البيان والتخصيص بالنسخ عند بعضهم أدخلوا صورا منهما في النسخ وأكثروا من تعداد المنسوخ. وسيأتي تحقيق الموضوع قريبا إن شاء الله.

الفرق بين النسخ والنسء

علمنا أن النسخ هو رفع الحكم الشرعي بسبب خطاب شرعي لا بسبب آخر. أما النسءُ فهو رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي لزوال علته. وبالمثل يتضح المقال.

قال ﷺ: «من ضحى منكم فلا يصبحن بعد ثالثة وفي بيته منه شيء». فلما كان العام القابل، قالوا: يا رسول الله: نفعل مثل ما فعلنا العام الماضي؟ قال: لا. كلوا وأطعموا وادخروا، فإن ذاك العام كان بالناس جهد أردت أن تعينوا فيها».

فقوله ﷺ: «كلوا وأطعموا وادخروا» خطاب شرعي، رافع لحكم منع الادخار الصادر في العام السابق لزوال علته، وهي المشقة والمجاعة. فالحكم الأول، وجب امتثاله في وقت لعلة أوجبته، فلما زالت العلة انتقل الخطاب إلى حكم آخر، بحيث لو عادت العلة عاد الحكم الأول، وهكذا كلما حصلت مجاعة ومشقة بجماعة من الناس تعلق بهم النهى عن الادخار. ولو لم يصدر لهم خطاب شرعي جديد، فهذا ما يسمى بالنسء.

أما النسخ، فهو زوال الحكم الأول بحيث لا يصار إليه إلا بخطاب شرعي آخر ناسخ لهذا الناسخ.

ومن النسء قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (آل عمران: ١٠٤). وآيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بعد قوله تعالي: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة: ١٠٥). فالمسالمة والتزام النفس كان في ابتداء الأمر، فلما قوى حال المسلمين وجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمقاتلة عليه. وحينما يقع الضعف بالمسلمين وجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمقاتلة عليه. وحينما

يقع الضعف بالمسلمين ويعود الإسلام غريبا، يعود الحكم الأول وهو المسالمة، والتزام النفس، وتغيير المنكر بالقلب، حيث يثبت العجز عن تغييره باليد واللسان. وفي ذلك يقول ﷺ: «فإذا رأيت هوى متبعًا، وشحًا مطاعًا، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك».

ويعود هذان الحكمان، أعني المقاتلة عند القوة، والمسالمة عند الضعف، بعودة أسبابهما. وليس حكم المجاهرة والمقاتلة ناسخا لحكم المسالمة، بل كل منهما يجب امتثاله في وقته.

ومن النسء أيضًا آية السيف، ومجاهدة الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، بعد آيات الأمر بالصبر على الأذى. فالمنسأ ـ أي المرجأ أو المؤجل (في حالة الضعف) هو الأمر بالقتال، فهو منسأ إلى أن يقوى المسلمون.

وبهذا التحقيق، يتبين ضعف ما ذهب إليه بعض المفسرين في القول بالنسخ في آيات كثيرة ليست من النسخ على الحقيقة.

وقد قرئ قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ (البقرة: ١٠٦). من النسيان، كما قرئ «أو ننسئها» من الإنساء. . . . والله أعلم.

الفرق بين النسخ والبَداء

البَداء هو الظهور بعد الخفاء، ومنه بدا لنا سور المدينة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (الزمر: ٤٧). ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الجاثية: ٣٣).

وبداء الآمر أن يأمر بالأمر وهو لا يدري ما يؤول إليه الحال فيبدو له وجه فيتحول عما أمر إلى غيره.

وأما النسخ فكما علمنا، تحويل العباد من حكم كان لحكمة ومصلحة في وقت، إلى حكم آخر، ولحكمة ومصلحة، وكلا الحكمين، المنسوخ والناسخ، وما يترتب على كل منهما من الحكم معلومة لله تعالى، ومعلوم له تعالى حين الأمر بالمنسوخ أنه سيحيله في وقت كذا، لحكمة ومصلحة.

ومثل ذلك الإحياء بعد الإماتة، والإماتة بعد الإحياء، والمرض بعد الصحة والصحة بعد المرض، والفقر بعد الغنى، والغنى بعد الفقر، كل ذلك يفعله جل شأنه بعلم وحكمة ومصلحة، وليس من البداء في شيء. وقد خفي الفرق بين النسخ والبداء على كل من اليهود والروافض، فغالى كل منهما في طرف؛ فاليهود قالوا باستحالته على الله ظنا منهم أن النسخ هو البداء، والروافض أجازوا البداء على الله وزعموا أن لا قدر، وأن الأمر أُنُف. تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

حكم النسخ (جوازه ووقوعه) وبيان المذاهب في ذلك

المذاهب في النسخ أربعة:

الأول: ذهبت طائفة من اليهود، تسمى «الشمعنية» إلى أن النسخ غير جائز عقلا، ولهم على ذلك ثلاث شبه:

الأولى: أنه لو جاز النسخ لكان إما لحكمة ظهرت لم تكن ظاهرة قبله، وإما لغير حكمة. والأول مستحيل على الله، لاستلزامه سبق الجهل، والثاني مستحيل كذلك لاستلزامه العبث.

ولرد هذه الشبهة نقول: إن كلا من حكمة الناسخ، وحكمة المنسوخ معلومة له تعالى من قبل، وليس هناك سبق جهل، وليس من باب البداء كما وضحنا من قبل، بل هو نقل للمكلفين من عبادة إلى عبادة أخرى لمصلحة معلومة ابتداء، كالطبيب ـ ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ﴾ (النحل: ٦٠) ـ يعطي المريض دواء، وهو عليم بتأثيره، عليم بأنه سيغيره بعد فترة من الزمن بدواء آخر لمصلحة المريض نفسه، ولا يقال حينئذ إن الطبيب أعطى الدواء الثاني، وأوقف الأول جهلا منه أو عبثا.

الثانية: قالوا: لو جاز النسخ لكان ذلك إما مع علم الباري باستمرار ذلك الحكم أبدا، أو مع علمه بأنه مؤقت. والأول مستحيل لأنه يلزم انقلاب العلم جهلا. والثاني باطل، لأن الحكم حينئذ ينتهي في الوقت الذي علم الله انتهاءه فيه، فلا يتأتى نسخه وإزالته، فنسخه والحالة هذه تحصيل للحاصل.

وأجيب عن هذه الشبهة باختيار الثاني، وأن الله علم أن هذا الحكم مؤقت وأنه ينتهي ببدل أو بدون بدل، في الوقت الذي حدده الله وأراده، وعلم وأراد أن يكون هذا الإنهاء بخطاب شرعي، فلا إشكال.

الثالثة: أن ما طلبه الله إنما طلبه لحسنه، فلو نهى عنه، لأدى إلى أن ينقلب الحسن قبيحا، وهو محال. وما نهى الله عنه، إنما نهى عنه لقبحه، فلو نسخ لأدى إلى أن ينقلب القبيح حسنا، وهو محال.

وأجيب عن هذه الشبهة، بأن الإحالة إنما تكون إذا اجتمع الأمر والنهى على فعل واحد، من مأمور واحد، في زمن واحد، وفرض المسألة غير ذلك.

وأيضا: إنما يتأتى هذا إذا كان الأمر والنهي، قد تواردا على حسن لا يقبل حسنه القبح، أو قبيح لا يقبل قبحه الحسن، كالإيمان والكفر، وفرض المسألة غير ذلك، فإن النسخ إنما يكون في الأفعال، التي يكون حسنها وقبحها باعتبار ما يترتب عليها.

المذهب الثاني لطائفة أخرى من اليهود، تسمى «العنانية»، وهي ترى أن النسخ جائز عقلا، ممتنع شرعا، أي غير واقع في الشرائع.

ويرد عليهم، وعلى الطائفة «الشمعنية» أيضا بأنهم هم أنفسهم، يعترفون بأن النسخ وقع بشريعة موسى.

فقد جاء في التوراة - بزعمهم - أن الله تعالى قال لنوح عند خروجه من السفينة: إني جعلت كل دابة مأكلا لك ولذريتك، وأطلقت ذلك لكم كنبات العشب، ما خلا الدم، فلا تأكلوه.

وهم في الوقت نفسه يعترفون أن الله حرم على موسى، وعلى بني إسرائيل كثيرا من الحيوان. ويعترفون بأن آدم عليه السلام كان يزوج الأخ من الأخت، وقد حرم الله ذلك في شريعة موسى عليه السلام.

فهذان الاعترافان منهم يثبتان وقوع النسخ بشريعة موسى.

ثم هم يقولون: إن الله أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده، ثم قال له: لا تذبحه، وهذا اعتراف منهم بوقوع النسخ في الشرائع السابقة.

ثم هم يقولون: إن الله أمر بني إسرائيل بأن يقتلوا منهم من عبد العجل، ثم أمر برفع السيف عنهم، وهذا اعتراف منهم بوقوع النسخ في شريعتهم.

المذهب الثالث: مذهب غير الطائفتين المذكورتين من أهل الشرائع السابقة، ومذهب جميع المسلمين، سوى «أبي مسلم بن بحر الأصفهاني» (وسيأتي بيان مذهبه ومناقشته قريبا). وينص المذهب الثالث على أن النسخ ممكن عقلا، واقع شرعا.

أما جوازه عقلا، فلأن أفعال الله لا تعلل بالأغراض، وكل من كان كذلك فله أن يأمر بالفعل في وقت، وينسخه بالنهي عنه في وقت آخر.

وعلى فرض أن أفعاله تعالى معللة بالأغراض ـ وهو غير مسلم ـ فإنه يقال: الله تعالى يجوز عليه أن يعلم استلزام الأمر لمصلحة في وقت، واستلزام النهي عن هذا الأمر لمصلحة في وقت آخر، وكل من كان كذلك جاز أن يأمر المكلف بالفعل في وقت، لعلمه بمصلحة فيه، وأن ينهاه عنه في زمن آخر، لعلمه بمصلحة فيه.

وأما وقوعه شرعا، فقد سبق في الرد على اليهود، إثبات وقوعه في شريعة موسى ووقوعه بها ووقوعه في غيرها من الشرائع.

ومن أدلة وقوعه في الشريعة الإسلامية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ١٠١، ١٠٢).

وقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ (البقرة: ١٠٦). وقد أجمع السلف على وقوع النسخ في الشريعة الإسلامية.

وسنعرض قريبا إن شاء الله الآيات القرآنية التي تناولها النسخ.

وذهب أبو مسلم: إلى أن النسخ وإن كان جائزا عقلا، لكنه غير واقع شرعا. وهو يرى أن الأحكام التي انتهت من غير شريعتنا كانت مقيدة بظهور شريعتنا، وكذلك الأحكام التي انتهت من شريعتنا، كانت مقيدة بظهور أحكام أخرى

تناقضها من شريعتنا، وليس هنا نسخ وإبطال، لقوله تعالى: ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٢). فأحكام القرآن لا تبطل أبدا.

وعليه، فالنسخ عنده من باب التخصيص في الزمان، فهو يرى انتهاء الشرائع المتقدمة، ويرى انتهاء الأحكام الإسلامية التي أجمع السلف على نسخها.

وعلى ذلك فالخلاف بينه وبين غيره لفظي؛ فما نطلق عليه نسخا يطلق هو عليه تخصيصا بالزمان.

(تنبيه) هناك طائفة من اليهود تسمى «العيسوية» ترى جواز النسخ عقلا، ووقوعه شرعا، وتعترف بنبوة سيدنا محمد ﷺ، ولكن للعرب خاصة.

والرد على هذه الفرقة بأنه متى سلمت رسالته وجب تصديقه في عموم دعوته.

الحكمة في وقوع النسخ

لا يخلو نسخ الحكم من أن يكون إلى بدل أشد، أو إلى بدل أخف، أو إلى بدل مساو، أو إلى غير بدل. وعلى كل، فهو انتقال إلى أخف، أو أشد أو مساو.

فإن كان إلى أخف كقوله تعالى: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٦٦).

إن كان كذلك فحكمته التيسير على الأمة، ورفع المشقة عنها، لتظهر منة الله تعالى، وفضله عليها، فتحمد وتشكر: فيعظم لها الأجر، وتزداد النعمة عليها.

وإن كان النسخ انتقالا من الأخف إلى الأشد، كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ (البقرة: ١٨٤). على القول بأنه منسوخ الحكم بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ (البقرة: ١٨٥).

إذ الآية الأولى تفيد بظاهرها تخيير من يطيق الصوم بين الصوم والفدية، والآية الثانية تفيد وجوب الصوم على المقيم؛ فهو انتقال من الأخف إلى الأشد، فالحكمة

في ذلك هي التدرج بالتشريع، ومعالجة النفوس وتقويمها شيئا فشيئا ولئلا ينفر القاسي منها والمزعزع.

والحكمة الجامعة للنسخة أنه مراعاة لمصالح العباد في أطوارهم وأزمانهم المختلفة حسبما تراه الحكمة الإلهية، كما يفعل الطبيب مع المريض.

أما نسخ الحكم مع بقاء التلاوة، فيزيد في الحكمة على ذلك بقاء التقيد بالتلاوة لزيادة الثواب، والتذكير بالحكم المنسوخ.

وأما رفع التلاوة مع بقاء الحكم، فهو لزيادة الثقة بالرسول ﷺ، وبيانه للشريعة، وللابتلاء والاختبار، ليعلم المصدق المطيع لحكم رفع ما يدل عليه، من المكذب العاصي الذي يعبد الله على حرف، وسيأتي مزيد من الإيضاح لهذه الحكمة عند الكلام على هذين النوعين، إن شاء الله.

موضوع النسخ

موضوع النسخ الأمر والنهي، سواء أكانا بصيغتهما الصريحتين، أم كانا بلفظ الخبر.

فالمواضع التي يداخلها النسخ: الأوامر والنواهي الصريحة وغير الصريحة.

مثال الأوامر التي في صورة الخبر قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ (آل عمران: ٩٦، ٩٧). فقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾: لفظه لفظ الخبر، ولكن معناه أمر لنا بأن نؤمِّن كل من دخله. ولا يصح أن يكون خبرا في المعنى، وإلا كان كذبا، لأنه قد قتل فيه ناس ظلما وعدوانًا.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ (آل عمران: ٩٧). معناه: لتحجوا أيها الناس إن استطعتم إلى الحج سبيلا.

وكذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ (البقرة: ١٨٣) معناه صوموا يا مؤمنون.

ومثال النهي في صورة الخبر قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ (البقرة: ٢٤٠). معناه لا تخرجوهن من مسكنهن.

وقوله تعالى: ﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ (النور: ٣). معناه لا تنكحوا الزانية أو المشركة.

فهذه الأوامر والنواهي التي جاءت في صورة الخبر يدخلها النسخ.

وصفوة القول: أن النسخ لا يقع إلا في الكلام الذي معناه الأمر أو النهي. أما الأخبار الخالصة، فلا يدخلها النسخ والتبديل والإزالة، لأن خبر الله على ما هو عليه، والرجوع عن الخبر تكذيب له، يستحيل صدوره منه عز وجل.

قال السيوطي: ومن الخبر الوعد والوعيد. أ. هـ. وقد ظن قوم أن الوعد والوعيد ينتسخ، في صورة ما إذا أمر الشارع بأمر، ورتب على فعله وعدا، أو على تركه وعيداً، ثم نسخ ذلك الأمر.

وقد رد عليهم الحافظ بن حزم بأنه لم ينسخ الوعد والوعيد في هذه الصورة لأنهما إنما كانا متعلقين بثبات ذلك الأمر. وإنما يصح أن يقال: الوعد والوعيد انتسخا، لو بقى ذلك الأمر، ثم جاء خبر بإسقاط ذلك الوعد أو الوعيد، وهذا ما لا سبيل إليه، بعد ورود الخبر به، ولا نسخ في الوعد والوعيد ألبتة، لأنه يكون كذبًا وإخلافًا، وقد تنزه الله عن ذلك أ. هـ.

قال السيوطي: وإذا عرفت ذلك عرفت فساد صنع من أدخل في كتب النسخ كثيرا من آيات الإخبار، والوعد والوعيد أ. هـ.

هذا، وليست جميع الأوامر والنواهي قابلة لوقوع النسخ فيها، فهناك الأوامر والنواهي المتعلقة بأصول العقيدة لا يدخلها النسخ، كقوله تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (النساء: ١٣٦). وقوله تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (النساء: ١٧١).

وهناك الأوامر والنواهي المتعلقة بالآداب الخلقية التي اتفقت عليها الشرائع،

كقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (لقمان: ١٧). وقوله تعالى: ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ (لقمان: ١٨).

وليس معنى أن النسخ لا يدخل هذه الأوامر والنواهي أن الله غير قادر على نسخها، ولكن المراد أننا حسب قواعد الشريعة لا نجوز وقوع النسخ فيها.

ويجوز نسخ الناسخ، فيصير الناسخ منسوخًا. قال الحافظ ابن حزم: ولا فرق بين أن ينسخ الله تعالى حكما بغيره، وبين أن ينسخ ذلك الثاني بثالث، وذلك الثالث برابع، وهكذا.

كل ذلك ممكن إذا وجد، وقام برهان على صحته. وقد جاء في بعض الآثار: أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال، وأحيل الصيام ثلاثة أحوال، فكان عاشوراء فرضا، ثم نسخ فرضه بصيام رمضان، بشرط أن من شاء صام، ومن شاء أطعم مسكينا وأفطر هو، ثم نسخ ذلك بإيجاب الصيام على الحاضر المطيق الصحيح البالغ العاقل أ. هـ.

واختلف في آية ينسخ بعضها، هل ينسحب النسخ على باقيها؟ أو يقصر على الجزء المنسوخ، ويبقى جزؤها الثاني محكما؟

مثلا قوله تعالى: ﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾ (النساء: ١٥). اشتملت هذه الآية على استشهاد أربعة شهداء في جريرة الزنا وعلى حبس الزانية حتى الموت، ثم نسخ الإمساك والحبس، فهل ينسخ معه استشهاده الأربعة؟ فيحتاج إثباته إلى دليل آخر؟ أو يبقى الاستشهاد مثبتا بهذا النص؟

التحقيق الثاني. قال الحافظ ابن حزم: إذا جمعت الآية أو الحديث حكمين فصاعدا. فجاء نص أو إجماع بنسخ أحد الحكمين أو تخصيصه أو إخراجه إلى الندب، وقف عنده، ولم يحل لمسلم أن يقول: إن الحكم الآخر منسوخ من أجل نسخ هذا الحكم المذكور معه في الآية أو الحديث، ولا إنه مخصوص، ولا إنه ندب، بل يبقى على حكمه كما كان، وعلى ما يوجبه ظاهره. ويلزم المخالف لهذا

الرأي أنه متى وجد في سورة واحدة آية منسوخة أن يقول: تلك السورة منسوخة كلها من أجل الآية المنسوخة منها. إذ لا فرق بين عطف حكم على حكم، وبين عطف آية على آية، ولا فرق بين ذكر حكمين في آية، وبين ذكرهما في سورة. انتهى بتصرف.

وقد قسم الإمام الزركشي في البرهان سور القرآن بحسب ما دخلها من النسخ وما لم يدخلها إلى أربعة أقسام:

(١) قسم ليس فيه ناسخ ولا منسوخ، وعده ثلاثا وأربعين سورة.

(٢) وقسم فيه ناسخ وليس فيه منسوخ، وعده ست سور.

(٣) وقسم فيه منسوخ وليس فيه ناسخ، وعده أربعين سورة.

(٤) وقسم اجتمع فيه الناسخ والمنسوخ، وعده إحدى وثلاثين سورة.

ثم قال: ومن غريب هذا النوع (أي القسم الرابع) آية أولها منسوخ، وآخرها ناسخ. قيل: ولا نظير لها في القرآن، وهي قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة: ١٠٥). يعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذا ناسخ لقوله ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أ. هـ.

ولا يخفى أن كل ما قاله الزركشي في هذا المقام محل خلاف كبير بين العلماء.

مراتب الأحكام التي ينتقل منها وإليها بالنسخ

الأحكام الشرعية خمسة:

(١) حرام: وهو ما عوقب على فعله، وأثيب على تركه.

(٢) فرض: وهو ما أثيب على فعله وعوقب على تركه.

وهذان الحكمان على طرفي نقيض، وبينهما ثلاثة أحكام.

(٣) مكروه: ويلي مرتبة الحرام، وهو ما أثيب على تركه، ولم يعاقب على فعله.

(٤) مندوب: ويلي مرتبة الفرض، وهو ما أثيب على فعله، ولم يعاقب على تركه، إذا لم يكن راغبا عنه.

(٥) مباح: وهو المرتبة الوسطى، وهو ما تركه وفعله سواء، إن فعله لم يؤجر ولم يأثم، وإن تركه لم يؤجر ولم يأثم.

فإن نسخ التحريم: فإن كان نسخه بلفظ «افعل» انتقل إلى الفرض، لأن هذه صيغة الفرض. وإن نسخ بلفظ «لا جناح» ونحوه انتقل إلى أقرب المراتب إليه، وهي الكراهة.

وإن نسخ الفرض: فإن كان نسخه بلفظ «لا تفعل» انتقل إلى التحريم، لأن هذه صيغة التحريم، وإن نسخ بلفظ «لا جناح» ونحوه انتقل إلى أقرب المراتب إليه، وهو الندب.

وإن نسخت الكراهة أو الندب: بلفظ «افعل» انتقلا إلى الفرض. فإن نسخا بلفظ «لا تفعل» انتقلا إلى التحريم. وإن نسخا بتخفيف انتقلا إلى الإباحة المطلقة، لأن الإباحة أقرب إليهما من الفرض والتحريم، لأن المكروه والمندوب إليه مباحان بشرط.

طرق معرفة الناسخ والمنسوخ

النسخ يتضمن رفع حكم تقرر من جهة الشارع وإثبات حكم، ومثل هذا لا يحل لمسلم أن يقول فيه إلا بيقين.

فمن قال في شيء: إنه منسوخ، فقد أوجب ألا يطاع هذا الأمر الصادر عن الله أو عن رسول الله ﷺ، ولا يجوز أن نسقط طاعة أمر أمرنا به الله تعالى ورسوله إلا ببرهان. وفي هذا يقول ابن الحصار: إنما يرجع في النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله ﷺ، أو عن صحابي يقول: آية كذا نسخت كذا. قال: ولا يعتمد في النسخ قول عوام المفسرين، بل ولا اجتهاد المجتهدين من غير نقل صحيح.

ثم قال: والناس في هذا بين طرفي نقيض، فمن قائل: لا يقبل في النسخ أخبار الآحاد العدول، ومن متساهل يكتفي فيه بقول مفسر أو مجتهد، والصواب خلاف قولهما أ. هـ.

توضيح البحث أنه لا سبيل إلى معرفة نسخ آية أو حديث غير أحد وجوه ثلاثة:

الوجه الأول: النص الصريح الصحيح بأن هذا الأمر ناسخ لكذا، أو أمر صريح بترك الأمر الأول، مثاله قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ (البقرة: ١٤٣). ثم قوله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ (البقرة: ١٤٤). فهذا دليل واضح على أن القبلة التي كانت قبل هذه منسوخة.

ومثل قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ (البقرة: ١٨٧). فهذا النص صريح في نسخ النهي عن الوطء في ليل رمضان.

الوجه الثاني: إجماع الأمة بلا خلاف يعتد به على أن أمر كذا منسوخ. ومن المعلوم أن الإجماع يستند دائما إلى دليل.

الوجه الثالث: تعارض الأدلة المتساوية تعارضا تاما مع معرفة الأمر المتقدم زمنا من المتأخر. وتفصيل المسألة أن النصين إما أن يتعارضا من جميع الوجوه أو من وجه دون وجه. فإن تعارضا من وجه دون وجه جمع بينهما. وإن تعارضا من جميع الوجوه: فإن كان أحدهما قطعيا، وكان الآخر ظنيا، أو كان أحدهما أقوى من الآخر في الثبوت عمل بالأقوى، وأهمل الآخر.

وإن تعارضا من جميع الوجوه، وتكافآ في الثبوت وعلم الأمر المتقدم منهما والمتأخر صرنا إلى النسخ.

أما إن تعارضا من جميع الوجوه، وتكافآ في الثبوت، ولم يعلم المتقدم والمتأخر، فلا يصار إلى النسخ بالاجتهاد، بل يجب التوقف عنهما أو التخير بينهما.

وعلى هذا، فلا يعتمد في النسخ على:

الاجتهاد من غير دليل.

ولا على أقوال المفسرين من غير سند.

ولا على مجرد التعارض الظاهري بين النصوص.

ولا على ثبوت أحد النصين في المصحف بعد الآخر، لأنه ليس على ترتيب النزول.

أنواع النسخ

قسم بعضهم النسخ إلى ثلاثة أضراب:

(١) نسخ المأمور به قبل امتثاله. وقد أنكرته جماهير المعتزله، وقالوا: إن نسخ الأمر قبل العمل به يلزمه عبث الآمر، لأن الأمر بالشيء طلب تحصيله، ولا يأمر الله بأمر قضى وأراد ألاّ ينفذ، ولا فائدة من هذا الأمر حيث لا أثر له في الخارج من المأمور.

والحق أن النسخ قبل العمل كالنسخ بعد العمل، كلاهما جائز وواقع. فمن النسخ قبل العمل أمر سيدنا إبراهيم الخليل بذبح ولده، فمن الواضح أن الذي أمر به نسخ قبل أن يكون، ومنه أمرنا بخمسين صلاة في ابتداء فرض الصلوات، ونسخ هذا الأمر بجعلها خمسا قبل أن يصلي أحد الخمسين، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ (المجادلة: ١٢)، على بعض الأقوال، وما خفي على المانعين من الحكمة في ذلك لا يمنع وقوعه.

فقد يكون المقصود إظهار امتثال المأمور للأمر، وخضوعه له، والأخذ في أسبابه. زيادة في أجره ورفعا لمنزلته.

وقد يكون المقصود إبراز فضل الله تعالى وامتنانه على المأمور، بما كان مقررا عليه قبل التخفيف فتعظم بذلك العبودية، ويزداد شكر النعمة منه ومن أتباعه.

وقد تكون الحكمة في الأمرين معا، على أن عدم العلم بالحكمة لا يلزم منه عدم وجود الحكمة بالفعل، فلله أفعال وأوامر نجهل حكمتها كمناسك الحج وتقبيل الحجر الأسود، وهو سبحانه العليم الحكيم.

(٢) الضرب الثاني: ما أوجبه الله تعالى على من قبلنا، وخففه عنا. ومن ذلك

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ (البقرة : ١٧٨) .

وهذا الضرب يسمى نسخا تجوزاً

(٣) الضرب الثالث : ما أمر الله به لسبب ، ثم يزول السبب ، كالأمر بالصبر والمغفرة حين الضعف ، ثم الجهاد حين القوة .

وقد سبق القول بأن مثل هذا ليس نسخا على الحقيقة ، وإنما هو من قبيل النسء .

النسخ إلى الأخف
والمساوى والأثقل

قسم بعضهم النسخ من وجه آخر إلى ثلاثة أنواع:

(١) نسخ الأثقل بالأخف ، وهو الغالب والكثير .

(٢) ونسخ المساوى بالمساوى ، كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة .

(٣) ونسخ الأخف بالأثقل ـ وهو قليل ـ ومنعه بعضهم بدعوى أن الله يريد بنا اليسر ، ولا يريد بنا العسر ، وبأنه تعالى يريد أن يخفف عنا ، كما قال جل شأنه : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴾ (النساء : ٢٨) .

والجواب عن هذه الشبهة أن العسر واليسر والخفة والثقل من الأمور الإضافية ؛ فما من أمر خفيف إلا وهو ثقيل بالإضافة إلى ما هو أخف منه ، وما من أمر ثقيل إلا وهو خفيف بالإضافة إلى ماهو أثقل منه . وكل ما أمر الله تعالى به فيه يسر لنا إذ فوقه ما هو عسير وعسير ، وكل ما نقلنا إليه من أحكام تخفيف علينا بالنسبة لما في علمه من مشاق . ولو أن المقصود التخفيف المطلق ، واليسر المطلق لكانت ركعة واحدة في الصلاة مثلا أخف بكثير مما هي عليه .

ثم إنه قد وقع النسخ بالأشد فلا سبيل إلى إنكاره ومنعه . من ذلك نسخ صيام عاشوراء ، بصيام رمضان ، ونسخ الموادعة بالقتال والجهاد ، وتحريم الخمر بعد إحلالها . ونسخ حبس الزواني بالجلد والرجم ، ولا شك في أن الضرب بالحجارة

حـتى الموت أثقل من الحـبس . فكل ذلك انتـقـال من الأخف إلى الأثقل بـالحس والمشاهدة .

النسخ إلى بدل أو إلى غير بدل

قسم النسخ أيضا من وجه آخر إلى قسمين:

(١) نسخ ببدل ـ وهو الكثير الغالب .
(٢) ونسخ من غير بدل ـ وهو قليل ـ ومنعه بعضهم استنادا إلى قوله تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ (البقرة : ١٠٦) . ورد بأن كل ما ثبت الآن في القرآن ، ولم ينسخ هو بدل مما قد نسخت تلاوته .

أما نسخ الحكم إلى غير بدل ، فلا يعارضه استدلالهم ، ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ (المجادلة : ١٢) . نسخ حكمه إلى غير بدل بقوله تعالى : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (المجادلة : ١٣) .

نسخ التلاوة أو الحكم أو هما معا

وهذا التقسيم هو أهم ما اشتغل به علماء هذا الفن ، وهو الذي يراد عند إطلاق تعبير «أنواع النسخ في القرآن» .

قال الزركشي في البرهان:
النسخ في القرآن على ثلاثة أضرب:

الأول: ما نسخ تلاوته وبقي حكمه ، فيعمل به إذا تلقته الأمة بالقبول ، كما روي أنه كان في سورة النور «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله» . ثم قال : وهنا سؤال : وهو أن يقال : ما الحكمة في رفع التلاوة مع بقاء الحكم ، وهلا أبقيت التلاوة ليجمع العمل بحكمها وثواب تلاوتها؟

وأجاب بأنه إنما كان كذلك ليظهر به مقدار طاعة هذه الأمة في المسارعة إلى بذل النفوس ، بطريق الظن ، من غير استفصال لطلب طريق مقطوع به ،

فيسرعون بأيسر شيء، كما سارع الخليل إلى ذبح ولده بمنام، والمنام أدنى طرق الوحي. أ. هـ.

وقد أنكر قوم هذا الضرب من النسخ، لأن الإخبار فيه إخبار آحاد، ولا يثبت القرآن بإخبار الآحاد.

ولا شك في أن لهذا الإنكار وجاهته بمقتضى القواعد التي قدمناها في القراءات والقراء.

الضرب الثاني: ما نسخ حكمه وبقي تلاوته، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ (البقرة: ٢٤٠). قال الزركشي كانت المرأة إذا مات زوجها لزمت التربص بعد انقضاء العدة حولا كاملا، ونفقتها في مال زوجها، ولا ميراث لها، وهذا معنى قوله: ﴿مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ الآية، فنسخ الله ذلك بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (البقرة: ٢٣٤). ولا يضر أن هذا الناسخ مقدم في النظم على المنسوخ.

ثم قال. وهنا سؤال. وهو أن يسأل: ما الحكمة في رفع الحكم وبقاء التلاوة؟ قال: والجواب من وجهين.

أحدهما: أن القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه، والعمل به، يتلى لكونه كلام الله، فيثاب عليه، فبقيت التلاوة لهذه الحكمة.

ثانيهما: أن النسخ غالبا يكون للتخفيف، فأبقيت التلاوة تذكيرا بالنعمة، ورفع المشقة أ. هـ.

وهذا الضرب هو الذي ألفت فيه الكتب، وكثر فيه القول، وكثر فيه عد الآيات الناسخة والمنسوخة.

وقد أنكر قوم هذا الضرب، بدعوى أن التلاوة والحكم متلازمان، فلا يصح رفع أحدهما مع بقاء الآخر، ورفع الحكم يجعل التلاوة خالية من الفائدة، فلا يجوز.

ثم إن نسخ الحكم مع بقاء التلاوة، يوهم بقاء الحكم، فيعرض المكلف للجهل والخلط في الشريعة والأحكام.

ورد على هذه الشبهة برد دعوى التلازم، والآية، بعد نسخ حكمها لا تكون خالية من الفائدة، بل معناها قائم عطل العمل به بآخر، وفي ثبوتها تذكير بنعمة الله تعالى إذا كان الحكم المنسوخ أشد، واختبار بالانصياع والتسليم إذا كان الحكم المنسوخ أخف، ثم في تلاوتها تعبد وأجر، كما سبق.

أما شبهة إيهام بقاء الحكم، وتعريض المكلف للجهل والخلط، فهي مردودة بأن النسخ لا يصار إليه إلا بدليل معلوم للمكلف، وإذا علم الدليل الناسخ زال الجهل وبعد احتمال الخلط في الأحكام.

الضرب الثالث: نسخ الحكم والتلاوة جميعا، فلا يجوز العمل بالحكم، ولا يجوز قراءة الآية على أنها قرآن.

قال الزركشي: كالتحريم بعشر رضعات، فنسخن بخمس. قالت عائشة «كان مما أنزل عشر رضعات معلومات، فنسخن بخمس معلومات، فتوفى رسول الله ﷺ، وهي مما يقرأ من القرآن» رواه مسلم.

ثم قال: وقد تكلموا في قولها «وهي مما يقرأ» فإن ظاهره بقاء التلاوة، وليس كذلك، فمنهم من أجاب بأن المراد قارب الوفاة، ومنهم من أجاب بأن التلاوة نسخت، ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة النبي ﷺ، فتوفى وبعض الناس يقرؤها. أ. هـ.

وقد أنكر قوم هذا الضرب أيضا، لأن الأخبار فيه أخبار آحاد، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها، ولظاهر وقوع هذا الضرب والذي قبله، والله أعلم.

نسخ القرآن والسنة بالقرآن والسنة

ينتظم نسخ كل من القرآن والسنة بكل من القرآن والسنة في أربعة أقسام:

القسم الأول: نسخ القرآن بالقرآن، وهذا القسم جائز بلا خلاف بين القائلين بالنسخ، لأن آيات القرآن متساوية في العلم بها. ووجوب العمل بأحكامها.

القسم الثاني: نسخ القرآن بالسنة، والآراء في هذا القسم تختلف باختلاف نوع السنة.

فالسنة الثابتة بالتواتر، أجاز نسخها للقرآن جمهور الأشاعرة والمعتزلة، ومالك وأصحاب أبي حنيفة، واستدلوا بأن الكتاب والسنة كلاهما وحي من الله لقوله تعالى في شأن رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ٣، ٤). غير أن القرآن وحي متلو، والسنة وحي غير متلو، ونسخ الوحي بالوحي جائز، لأنهما سواء.

ومنع نسخها للقرآن: الشافعي وأكثر أصحابه، وأحمد في إحدى روايتيه، واستدلوا بعدة أدلة:

الأول: قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ (البقرة: ١٠٦). والسنة ليست مثلا للقرآن، ولا خيراً منه، والتعبير بلفظ «نأت» يدل على أن ناسخ الآية يكون من قبل الله، لا من قبل الرسول ﷺ.

ورد هذا الاستدلال بأن الخيرية والمثلية في الآية مقصود منها الخيرية والمثلية في الحكم وفي عودة نفعه على المخاطبين، وإلا فالقرآن أيضا ليس بعضه خيرا من بعض. فمعنى الآية أن العمل بالناسخ خير من العمل بالمنسوخ قبل أن ينسخ، أو مساو له، وأن الثواب على العمل بالناسخ لا يكون أقل أجراً من العمل بالمنسوخ قبل أن ينسخ.

وأما التعبير بلفظ «نأت» فلا دلالة فيه، لأن السنة كذلك من قبل الله تعالى.

الدليل الثاني: على منع نسخ السنة للقرآن، قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ (يونس: ١٥) فقد نفى جواز تبديله من النبي ﷺ، والنسخ تبديل.

ورد هذا الاستدلال بأن السنة ليست من تلقاء نفسه، بل هي وحي من الله، والمنفى الإبدال بدون وحي. وهو ممنوع.

الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد: ٣٩). فدل على أن النسخ والمحو والإثبات من الله، فلا يسند إلى الرسول ﷺ.

وأجيب بنفس الجواب السابق، وأن نسخ السنة هي من قبيل نسخ الله ومحوه وإثباته لأنها وحي.

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٤٤)، قالوا، إن مهمة الرسول ﷺ مجرد البيان، ولا تتعداه إلى النسخ.

وأجيب بأن النسخ نوع من أنواع البيان، لأنه بيان ارتفاع الأمر المنسوخ وبيان إثبات الناسخ.

الدليل الخامس: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ (النحل: ١٠١). فالمبدِل هو الله تعالى، والمبدَل آية مكان آية.

وأجيب بأن الآية لا قصر فيها، فهي تثبت أن الله يبدل آية مكان آية ولا أحد ينكر هذا، لكنها لا تمنع نسخ السنة للآية.

الدليل السادس: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ (طه: ١١٤). قالوا، فإذا منعه الله تعالى من أن يبين القرآن من قبل أن يقضى إليه وحيه، فهو من نسخه أشد منعا.

وأجيب بأنه لم يقل أحد بجواز نسخ السنة للآيات قبل أن يقضى إليه وحي نسخها.

هذا. وأما السنة الأحادية غير المتواترة، فالأكثرون على منع نسخها للقرآن، لأن ثبوتها ظني، وثبوت القرآن قطعي، والظني لا يقوى على نسخ القطعي، وأجاز نسخها للقرآن بعضهم، بدعوى أن محل النسخ هو الحكم، ودلالة للقرآن عليه ظنية، كدلالة السنة عليه، فالناسخ والمنسوخ متساويان في الظنية.

وقالوا: إن الطاعة واجبة لما جاء به النبي ﷺ، كما هي واجبة لما جاء به القرآن، لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ٣٢).

ومثل المجوزون لنسخ القرآن بالسنة بأن آية الوصية للوالدين والأقربين، نسخت بقوله ﷺ. «لا وصية لوارث»

وبأن قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾ (النساء: ١٥)، نسخ بقوله ﷺ «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلا، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم».

قال الحافظ بن حزم: ومما نسخت فيه السنة القرآن، قوله عز وجل: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ (المائدة: ٦)، فإن القراءة بخفض أرجلكم وبفتحها كلاهما لا يجوز إلا أن يكون معطوفا على الرءوس في المسح ولابد، لأنه لا يجوز ألبتة أن يحال بين المعطوف والمعطوف عليه بخبر غير الخبر عن المعطوف عليه، لأنه إشكال وتلبيس وإضلال، لا بيان. لا تقول. ضربت محمدا أو زيدا، ومررت بخالد وعمر، وأنت تريد أنك ضربت عمر.

فلما جاءت السنة بغسل الرجلين، صح أن المسح منسوخ، وهكذا عمل الصحابة ﷺ فإنهم كانوا يمسحون على أرجلهم، حتى قال عليه الصلاة والسلام «ويل للأعقاب من النار» أ. هـ.

والتحقيق أن أمثلة نسخ السنة للقرآن غير مسلمة، وفيها كلام كثير، يرجع إليه في كتب التفسير.

القسم الثالث: نسخ السنة بالقرآن، وقد فهم بعضهم من كلام الشافعي منع هذا القسم، كالذي قبله. ونص عبارته:

وحيث وقع (النسخ) بالسنة فمعها قرآن، أو بالقرآن فمعه سنة عاضدة، تبين توافق الكتاب والسنة أ. هـ.

وقال بعضهم: إن مراد الشافعي من هذا النص، أنه لم يقع نسخ القرآن إلا بالقرآن، وإن كان هناك سنة ناسخة له، ولم يقع نسخ السنة إلا بالسنة، وإن كان هناك قرآن ناسخ لها، أي لم يقع النسخ لكل منهما بالآخر إلا ومعه مثل المنسوخ عاضد له. وبعبارة أوضح: إذا وقع نسخ للقرآن بالسنة جاء نص قرآني معضد للنسخ ومؤيد له وإذا وقع نسخ السنة بالقرآن جاء نص من السنة معضد النسخ ومؤيد له.

فمثلا قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (على القول بأنه منسوخ بقوله ﷺ: «لا وصية لوارث». فقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ﴾ (النساء: ١١). معضد السنة في نسخها.

وعلى هذا التفسير لقول الشافعي يلتقي مع الجمهور في جواز نسخ السنة بالقرآن.

ومن أمثلة هذا القسم: أن التوجه إلى بيت المقدس، كان ثابتا بالسنة، لأنه ليس في القرآن ما يدل علي وجوبه، وقد نسخ بالقرآن، بقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة: ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠).

ومنها: أن وجوب صوم يوم عاشوراء، كان ثابتا بالسنة. لأنه ليس في القرآن ما يدل عليه، وقد نسخ بالقرآن، بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ (البقرة: ١٨٥).

ومنها: أن حرمة الرفث في ليلة الصيام كانت ثابتة بالسنة، لأنه ليس في القرآن ما يدل عليها، وقد نسخت بالقرآن، بقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (البقرة: ١٨٧).

القسم الرابع: نسخ السنة بالسنَّة، والجمهور على جوازه، ومنع بعضهم نسخ السنة المتواترة بالسنة الأحادية، بنفس الشبهة التي منع بها نسخ القرآن بالسنة. ومن أمثلة هذا القسم قوله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها. ألا فزوروها».

نسخ الإجماع والقياس والنسخ بهما

والصور العقلية لهذا المبحث ست:

الأولى: نسخ الإجماع بالإجماع، أي نسخ حكم ثبت بالإجماع، نسخه بإجماع آخر. والحق عدم جوازه، لأنه يؤدى إلى أن الأمة كانت أولا مجمعة على خطإ.

الثانية: نسخ الإجماع بالنص، وهذه الصورة غير ممكنة، لأن النص إن كان ظنيا فلا ينسخ الإجماع لأنه قطعي. وإن كان النص قطعيّا، فلا يعقل وجوده بعد الإجماع، ضرورة تقدم النص على الإجماع.

الثالثة: نسخ الإجماع بالقياس، وهذه الصورة غير جائزة، لأن القياس إن كان ظنيّا بطل العمل به، لأن شرط وجوب العمل به عدم وجود راجح عليه، والإجماع قطعي كما سبق بيانه، فلا نسخ. وإن كان القياس قطعيّا بطل العمل به أيضا لأن شرط وجوب العمل به عدم وجود مساو له. فلا نسخ أيضا.

الرابعة: نسخ القياس بالقياس، وهو غير جائز، لأن الناسخ والمنسوخ إن كانا قطعيين أو ظنيين بطل العمل بكل منهما لوجود المساوي، وإن كان أحدهما قطعيّا والآخر ظنيّا بطل العمل بالظني لأنه مرجوح، فلا نسخ. وأجازه بعضهم بحجة أنه مستند إلى نص فكأن الناسخ له النص، وهو ضعيف.

الخامسة: نسخ القياس بالإجماع، وهو غير جائز، لأن القياس إن كان ظنيا فواضح بطلان العمل به، لأنه حينئذ مرجوح. وإن كان قطعيا فكذلك لوجود المساوي، ولأنه يلزمه أن يكون الإجماع على خلاف القطعي. فلا نسخ.

أما قولهم: هذا الحكم منسوخ إجماعا، فالمراد منه أن الإجماع انعقد على أنه نسخ بدليل آخر، لا أن الإجماع هو الناسخ له.

وخلاصة القول وتحقيقه: أن الإجماع لا يكون ناسخا ولا منسوخا، خلافا لبعض المعتزلة الذين يجوزون النسخ بالإجماع.

السادسة: نسخ القياس بالنص، وهو غير جائز على المختار، لأنه لا قياس مع النص، فلا نسخ. والله أعلم.

مسلك العلماء في الناسخ والمنسوخ

للعلماء في الناسخ والمنسوخ ثلاثة مسالك:

(١) فبعضهم يكثر منه، فيعد منه:

أ ـ ما شرع لسبب ثم زال السبب، كآيات العفو والصبر، مع آيات القتال.

ب ـ رفع ما كان عليه أهل الجاهلية، أو رفع شرائع من قبلنا، كإبطال نكاح نساء الآباء، ومشروعية القصاص والدية، وحصر الطلاق في ثلاث.

جـ ـ ما كان من قبيل التخصيص مثل الآيات التي خصصت بالاستثناء كقوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٧).

والآيات التي خصصت بالغاية، كقوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ (البقرة: ١٠٩).

د ـ ما كان من قبيل البيان كقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء: ٦). فإن بعضهم توهم أنه ناسخ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ (النساء: ١٠).

هـ ـ ما يوهم التعارض ولا تعارض فيه في الحقيقة، كقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ (المنافقون: ١٠). توهم بعضهم أنه منسوخ بآية الزكاة، مع أن الجمع بينهما ممكن

(٢) وبعضهم حصر الآيات المنسوخة وضيق نطاقها إلى حد كبير.

(٣) وبعضهم ينصف، فيتوسط، ولا يدخل في النسخ ما ليس منه، ولا يغالي في رده، والتكلف في تأويله.

وقد أفرد السيوطي ما يصلح للنسخ من آيات القرآن في مؤلف خاص، بسط القول فيه، وفي أدلته، وأورده في الإتقان مختصرا محررا. ولعموم النفع نذكره موضحين بعض ما خفي منه وبالله التوفيق. قال:

(١) من البقرة قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ (البقرة: ١٨٠) الآية منسوخة. قيل: بآية المواريث وقيل: بحديث «لا وصية لوارث». وقيل بالإجماع، حكاه ابن العربي.

(٢) وقوله تعالي: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ (البقرة: ١٨٤). قيل:

منسوخة بقوله ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ (البقرة: ١٨٥). وقيل: محكمة، و«لا» مقدرة، والأصل وعلى الذين يطيقونه.

(٣) وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٧). ناسخة لقوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٣). لأن مقتضاها الموافقة فيما كان عليهم من تحريم الأكل، والوطء بعد النوم. ذكره ابن العربي، وحكى قولا آخر، أنه نسخ لما كان بالسنة.

(٤) وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ (البقرة: ٢١٧). الآية. منسوخة بقوله ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً...﴾ (التوبة: ٣٦). الآية. أخرجه ابن جرير عن عطاء بن ميسرة.

(٥) وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾ (البقرة: ٢٤٠). الآية. منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (البقرة: ٢٣٤).

(٦) والوصية للوالدين والأقربين منسوخة بالميراث.

(٧) وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٨٤)، منسوخ بقوله بعده: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦).

(٨) ومن آل عمران قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ (آل عمران: ١٠٢)، قيل: إنه منسوخ بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: ١٦). وقيل: لا. بل هو محكم. وليس فيها آية يصح فيها دعوى النسخ غير هذه الآية.

(٩) ومن النساء قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ (النساء: ٣٣) منسوخ بقوله: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ (الأنفال: ٧٥).

(١٠) وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (النساء: ٨)، قيل: منسوخ، وقيل: لا، ولكن تهاون الناس في العمل بها.

(١١) قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾ (النساء: ١٥)، منسوخ بآية النور.

(١٢) ومن المائدة: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ (المائدة: ٢)، منسوخ بإباحة القتال فيه.

(١٣) وقوله تعالى: ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ (المائدة: ٤٢). منسوخ بقوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ (المائدة: ٤٩).

(١٤) وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ (المائدة: ١٠٦). فقوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ منسوخ بقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ (الطلاق: ٢).

(١٥) ومن الأنفال قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (الأنفال: ٦٥)، منسوخ بالآية بعدها.

(١٦) ومن براءة قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً﴾ (التوبة: ٤١) منسوخ بآيات العذر، وهو قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ....﴾ (النور: ٦١)، الآية.

(١٧) ومن النور قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً...﴾ (النور: ٣). الآية. منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾ (النور: ٣٢)

(١٨) وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (النور: ٥٨). الآية: قيل: منسوخة، وقيل: لا ولكن تهاون الناس في العمل بها.

(١٩) ومن الأحزاب قوله تعالى: ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ (الأحزاب: ٥٢). الآية. منسوخة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ (الأحزاب: ٥٠). الآية.

(٢٠) ومن المجادلة قوله تعالى: ﴿يأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ (المجادلة: ١٢)، منسوخ بقوله: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ﴾ (المجادلة: ١٣).

(٢١) ومن الممتحنة قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا﴾ (الممتحنة: ١٠)، قيل: منسوخ بآية السيف، وقيل: بآية الغنيمة، وقيل محكم.

(٢٢) ومن المزمل قوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ (المزمل: ٢ ـ ٤) منسوخ بآخر السورة، ثم نسخ الآخر بالصلوات الخمس.

وفي بعض هذه الآيات خلاف.

وقد نظم السيوطي الآيات المنسوخة في الأبيات الآتية:

قد أكثر الناس في المنسوخ من عدد ... وأدخلوا فيه آيا ليس تنحصر
وهاك تحرير آي لا مزيد لها ... عشرين حررها الحذاق والكبر[1]
آي التوجه حيث المرء كان، وأن ... يوصى لأهليه عند الموت محتضر
وحرمة الأكل بعد النوم مع رفث ... وفدية لمطيق الصوم مشتهر
وحق تقواه فيما صح في أثر ... وفي الحرام قتال للألى كفروا
والاعتداد بحول مع وصيتها ... وأن يدان حديث النفس والفكر
الحلف والحبس للزاني وترك أولى ... كفر وإشهادهم، والصبر والنفر
ومنع عقد لزان أو لزانية ... وما على المصطفى في العقد محتظر
ودفع مهر لمن جاءت، وآية نجواه ... كذاك قيام الليل مستطر
وزيد آية الاستئذان من ملكت ... وآية القسمة الفضلى لمن حضروا

(١) زاد آيات ونقص آيات في النظم عما ذكره من قبل اعتمادا على الخلاف بين العلماء.

أمثال القرآن

قال الزمخشري: المثل في الأصل المثل، أي النظير. يقال: مَثَل (بفتح الميم والثاء) ومِثْل (بكسر الميم وسكون الثاء) ومثيل، كشبه وشبه وشبيه.

وقال ابن العربي: المِثْل (بكسر فسكون) عبارة عن شبه المحسوس، وبفتح الميم والثاء عبارة عن شبه المعَاني المعقولة.

ولما كان المثل السائر شيئا فيه غرابة، استعير لفظ المثل للحال أو الصفة الغريبة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة.

أما استعارته للحال، فكقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾ (البقرة: ١٧). أي حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد نارا.

وأما استعارته للوصف، فكقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ...﴾ (الفتح: ٢٩). أي صفتهم العظيمة كصفة زرع.... إلخ.

وأمثال القرآن أفردها بالتصنيف الإمام أبو الحسن الماوردي، وقال: من أعظم علم القرآن علم أمثاله، والناس في غفلة عنه.

وقد عدها الشافعي مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن.

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن القرآن نزل على خمسة أوجه، حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال، فاعلموا بالحلال، واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال».

أقسام أمثال القرآن

وتنقسم أمثال القرآن إلى:

(١) مصرح فيها بذكر المثل.

(٢) وغير مصرح فيها بذكر المثل، بل هو كامن مطوي.

فمن أمثلة القسم الأول قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ⑰ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٧، ١٨).

وقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (الرعد: ١٧).

عن قتادة قال: هذه ثلاثة أمثال، ضربها الله في مثل واحد. يقول: كما اضمحل هذا الزبد فصار جفاء لا ينتفع به، ولا ترجى بركته، كذلك يضمحل الباطل عن أهله. وكما مكث هذا الماء في الأرض فأسرعت وربت بركته، وأخرجت نباتها، وكذلك الذهب والفضة، حين أدخل النار، فأذهب خبثه، كذلك يبقى الحق لأهله. وكما اضمحل خبث هذا الذهب والفضة حين أدخل النار، كذلك يضمحل الباطل عن أهله.

وكقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (الجمعة: ٥). فإن الغرض منه تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة، بحال الحمار الذي يحمل كتب الحكمة، وليس له من حملها إلا النقل والتعب من غير فائدة.

وكقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ (الكهف: ٤٥). الآية.

وكقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ (النور: ٣٩).

ومن هذا القسم ما طوى فيه المشبه، وجيء به على طريق الاستعارة، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ (فاطر: ١٢).

وكقوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ (الزمر: ٢٩).

أما القسم الثاني الذي طوى فيه المثل، وصار كالقول الذي له شأن وغرابة، ويشبه فيه مضربه بمورده، فهو الذي تذهب إليه النفس أول ما تذهب عند إطلاق لفظ الأمثال. وأمثلته في القرآن كثيرة:

فقد سئل الحسن بن الفضل عن أمثال من القرآن تعطى من الأهداف والمعاني ما تعطي بعض أمثال العرب، فجاء بها على الفور.

سئل: هلا تجد في كتاب الله: خير الأمور أوساطها؟

قال: نعم في أربعة مواضع: قوله تعالى: ﴿ لاَّ فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ (البقرة: ٦٨).

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (الفرقان: ٦٧).

وقوله تعالى: ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ (الإسراء: ٢٩).

وقوله تعالى: ﴿ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾ (الإسراء: ١١٠).

وسئل: هل تجد في كتاب الله: من جهل شيئا عاداه؟

قال: نعم. في موضعين: قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾ (يونس: ٣٩).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ (الأحقاف: ١١).

وسئل: هل تجد في كتاب الله: اتق شر من أحسنت إليه؟

قال: نعم. قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ (التوبة: ٧٤).

وسئل: هل تجد في كتاب الله. ليس الخبر كالعيان؟

قال: نعم. قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠).

وسئل: هل تجد في كتاب الله: كما تدين تدان؟

قال: نعم. قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ (النساء: ١٢٣)

وسئل: هلا تجد في كتاب الله: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين؟

قال: نعم. قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ (يوسف: ٦٤).

وسئل: هل تجد في كتاب الله: من أعان ظالما سلط عليه؟

قال: نعم. قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (الحج: ٤).

وسئل: هل تجد في كتاب الله: لا تلد الحية إلا حية؟

قال: نعم. قوله تعالى﴿وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (نوح: ٢٧).

وسئل: هل تجد في كتاب الله: للحيطان آذان؟

قال: نعم. قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٤٧).

وسئل: هل تجد في كتاب الله: الجاهل مرزوق؟

قال: نعم. قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ (مريم: ٧٥).

تلك أمثلة لمعادلة بين بعض الأمثال العربية، وبعض الآيات القرآنية التي تؤدى مؤداها وزيادة.

وهناك من ألفاظ القرآن جمل جرت مجرى الأمثال. من ذلك قوله تعالى:

(١) ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ (النجم : ٥٨). يضرب لعظم الحالة وبلوغ الطامة، وإعلان للعجز عن العلاج، والالتجاء إلى الله.

(٢) ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٩٢). يضرب لمن يقصد الرديء في الإعطاء لحثه على قصد الأفضل.

(٣) ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ (يوسف: ٥١). يضرب لظهور الحق بعد خفائه.

(٤) ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ (يس: ٧٨). يضرب لمن يقول ما لا يفعل. أو يطلب القليل ويتغاضى عن الكثير الذي يلزمه.

(٥) ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ (الحج: ١٠). يضرب لمن نال عقوبة يستحقها.

(٦) ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (يوسف: ٤١). يضرب للتيئيس، وسد باب الجدل.

(٧) ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود: ٨١). يضرب لتحكيم الواقع القريب مع الاطمئنان للنتيجة.

(٨) ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (سبأ: ٥٤). يضرب للتشفي ممن حرم آماله بسبب أعماله.

(٩) ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر: ٤٣). يضرب تهديدا لمن يكيد لغيره بأنه الذي سيقع في مكيدته.

(١٠) ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ (الأنعام: ٦٧). يضرب لنهاية الأنباء الكاذبة وأن مصيرها الكشف، وأن لكل دعاية نهاية.

(١١) ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ (الإسراء: ٨٤). يضرب للعمل الجاري على الأصل، وأن كل إناء ينضح بما فيه.

(١٢) ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة: ٢١٦). يضرب للتسلية عند الشدائد، وأن مانراه شرا قد يجعل الله فيه خيرا كثيرا.

(١٣) ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر: ٣٨). يضرب للتهديد للمجازاة، وأنه لن يفلت الجاني من العقوبة.

(١٤) ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ (المائدة: ٩٩). يضرب للتخلص من تبعة التبليغ، وإلقاء مسئولية الخبر المبلغ على قائله.

(١٥) ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ (التوبة: ٩١). يضرب لدرء المؤاخذة على التقصير في أمر كله تطوع.

(١٦) ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ (الرحمن: ٦٠). يضرب لطمأنة المحسنين على حسن الجزاء ـ جزاء وفاقا.

(١٧) ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٤٩) يضرب لبيان أن العبرة بالروح والعقيدة وتأييد الله ليست بكثرة العَدد والعدة.

(١٨) ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ (يونس: ٩١). يضرب لمن حاول العمل بعد فوات الأوان وأنه لا يجديه.

(١٩) ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ﴾ (الحشر: ١٤). يضرب للتجمع الظاهري مع التفكك في الحقيقة والواقع.

(٢٠) ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (فاطر: ١٤) يضرب للتوثيق من الخبر، وأن المخبر به عليم.

(٢١) ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم: ٣٢). يضرب لبيان أن كل واحد يعجب بما عنده أكثر من مثيله عند غيره، وكل فتاة بأبيها معجبة، والقرد في عين أمه غزال، والخنفساء رأت أولادها على الحائط، قالت: عقد لؤلؤ منظوم في خيط.

(٢٢) ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ﴾ (الأنفال: ٢٣) يضرب لليأس من صلاح من طبع على الشر وعلى عدم الخير.

(٢٣) ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٣). يضرب لبيان قلة المحسنين بالنسبة للمسيئين، وفي نفس المعني قولهم: إن الكرام قليل.

(٢٤) ﴿لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ (المائدة: ١٠٠). يضرب للتفرقة بين الصالح والطالح.

(٢٥) ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج: ٧٣). يضرب للتحقير من شأن مدعي القوة والتهوين من شأن المخلوق.

فوائد الأمثال في القرآن

قال الزركشي في البرهان:

إن الأمثال تخرج ما لا يقع عليه الحس إلى ما يقع عليه، وما لا يعلم ببديهة العقل إلى ما يعلم بالبديهة، وما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة، وما لا قوة له من الصفة إلى ماله قوة. أ. هـ.

وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير والوعظ، والحث والزجر، والاعتبار والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره بصورة المحسوس، فإن المتمثل كالصانع الذي يقدر صناعته، وكأن المثل سمي مثلا، لأنه يمثل في الخاطر، ويثبت معناه في النفس، فيظل ماثلا حاضرا مؤثرا.

وقد ضرب الله الأمثال في سائر كتبه، وروي أن من سور الإنجيل سورة تسمى سورة الأمثال.

ولكن كثرة الأمثال في القرآن، كانت فضلا من الله ورحمة بالأمة الإسلامية، حتى تستقر المعاني في قلوب أجيالها الطويلة. قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٣)

وقال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الزمر: ٢٧). وقال في معرض الامتنان وإسباغ النعمة ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ (إبراهيم: ٤٥).

إعجاز القرآن

خص هذا الموضوع بالتأليف بعض العلماء، منهم: الخطابي والرازي والباقلاني وغيرهم. وأهمية هذا البحث تتضح في أنه متى ثبت إعجاز القرآن، ثبت أنه ليس من كلام محمد، وثبت أنه كلام الله وحده، وثبتت نبوة محمد ﷺ، وثبت كل ما جاء به القرآن، بل ثبتت الأديان الصحيحة، والكتب الإلهية كلها، لأن القرآن هو الشاهد الخالد بها.

ومن المعلوم أن المعجزة أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة، يظهر على يد النبي ﷺ.

والمعجزة إما حسية، وإما عقلية. وأكثر معجزات الأنبياء عليهم السلام، قبل محمد ﷺ كانت حسية: كيَد موسى وعصاه، وإبراء عيسى الأكمه والأبرص وإحيائه الموتى بإذن الله. لكن المعَجزة الخالدة لمحمد ﷺ، كانت عقلية، وهي القرآن الكريم.

والشأن في المعجزات الحسية، أن توجه إلى قوم تكثر فيهم البلادة وقلة الإدراك حتى يؤمنوا عن طريق المحسوس بما لم يؤمنوا به بطريق النظر والتفكير. والشأن في المعجزة العقلية أن توجه إلى قوم عرفوا بالذكاء؛ واشتهروا بالنبوغ ودقة الفهم، حتى يدركوا أسرارها ببصائرهم، ويؤمنوا بها عن طريق إعمال عقولهم وعلومهم.

ولما كان محمد ﷺ خاتم المرسلين، وكانت رسالته عامة لأهل الأرض جميعا وشاءت حكمة الله أن تكون معجزته باقية على مر السنين، كانت معجزته عقلية، لأن المعجزة الحسية لا يؤمن بها إلا من يراها في زمانها ومكانها، بخلاف العقلية الصالحة لكل زمان ومكان. لذا قال ﷺ: «ما من الأنبياء إلا أعطى ما مثله آمن

عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا» رواه البخاري.

قال الحافظ بن حجر في شرحه للحديث: معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم، فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، لخرق العادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر بها أنه سيكون يدل على صحة دعواه. أ. هـ.

واليقين الذي لا يقبل الجدل أن العرب في عهد النبي ﷺ كانوا أفصح الفصحاء، وأبلغ البلغاء لا يجاريهم في إتقان لغتهم العربية، وفهم أسرارها، من سبقهم ولا لحقهم.

واليقين الذي لا يقبل الجدل، أن النبي ﷺ تحداهم بالقرآن كما قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور: ٣٤). ثم تحداهم بعشر سور من مثله، في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود: ١٣). ثم تحداهم بسورة واحدة وكرر هذا التحدي في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ (البقرة: ٢٣).

واليقين الذي لا يقبل الجدل، أن هذا التحدي بلغ أقصاه، بقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء: ٨٨). وأن رسول الله ﷺ ظل قرابة ثلاثة وعشرين عاما، يحتج عليهم بالقرآن، ويدعوهم صباحا ومساء إلى أن يعارضوه، ولو بآيات يسيرة، وأن القوم كانوا حريصين على معارضته لأن إتيانهم بسورة واحدة مثله كان كافيا في تكذيبه، وأفسد لأمره وأسرع في تفريق أصحابه من بذل النفوس في الحروب، وإنفاق الأموال الكثيرة، وأنهم عجزوا فلم يعارضه خطيب ولا شاعر ولا فصيح. إذ لو عارضه أي منهم لظهر ذلك. ولوجد من يستحسن قوله ويذيعه ويحامي عليه. ويكابر فيه، ولنقل إلينا.

فدل ذلك على عجز العرب. وإذا ثبت عجز قريش والعرب، وهم أولو الرأي والعقل والبلاغة والفصاحة، وهم أشد الخلق أنفة، وأكثرهم مفاخرة، ثبت عجز من دونهم من باب أولى، وثبت أن القرآن معجزة الله الخالدة، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وجه الإعجاز

اقتطف العلماء وجوها كثيرة، ومظاهر عديدة، لإعجاز القرآن. وهذه الوجوه تختلف قوتها باختلاف متذوقها والناظر فيها، كالوردة يختلف المعجبون بها، والباحثون في محاسنها وإبداعها، باختلاف أحاسيسهم واتجاهاتهم؛ فمنهم من يعجب بريحها الطيب، ومنهم من يتعشق لونها الجميل، ومنهم من يتلذذ بطعمها، ومنهم من تأخذه روعة تركيبها، إلى غير ذلك من النظرات المختلفة في أوجه الحسن المتوافرة.

(١) فقال قوم: إن وجه إعجاز القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب ماضيها وحاضرها، ومستقبلها. فكل ما لا يعلمه محمد ﷺ من تلقاء نفسه، ولا يعقل أنه علمه من غيره من الخلق، يعد غيبا بالنسبة له. فغيب الماضي في القرآن يمثله قصص الأنبياء والأمم السابقين. ومن المعلوم من حال النبي ﷺ أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، ولم يكن يعرف شيئا عن كتب السابقين وأقاصيصهم، فإذا أخبر عن الحوادث المهمة من حين خلق الله لآدم عليه السلام، إلى حين مبعثه، دل ذلك على أنه أتى بالخارق للعادة المعجزة للأمة.

نعم. فمن أين لمحمد ﷺ أو لأمثاله، أخبار خلق آدم من تراب، وخروجه من الجنة واستقراره في الأرض وتوبته، وعداء إبليس له ولذريته؟ من أين لمحمد ﷺ قصة نوح؟ وما كان بينه وبين قومه، وما انتهى إليه أمره وأمرهم؟

من أين لمحمد ﷺ علم أخبار الملوك والفراعنة، ومواقف الأمم من أنبيائهم؟

إن شئت فاقرأ قول الله تعالى في قصة نوح: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ (هود: ٤٩).

وقول الله تعالى في قصة موسى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (القصص: ٤٤ ـ ٤٦).

وقول الله تعال في قصة مريم: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (آل عمران: ٤٤).

أليس في هذا برهان على أن القرآن أتى بالغيب الماضي المعجز لمحمد ولأمثاله من العرب؟

أما غيب الحاضر، فالمقصود به ما يتصل بالله تعالى وصفاته، وبالملائكة والجن، والجنة والنار، إلى غير ذلك من أسرار الكائنات التي لا سبيل لمحمد ولا لأمثاله بعلمه.

اقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٢ ـ ١٤).

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ (يونس: ٥).

وقوله تعالى في هتك أستار المنافقين وكشف أسرارهم: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ (المنافقون: ٧).

أما غيب المستقبل فهو كثير في القرآن ودلالته على الإعجاز أقوى من غيب الماضي والحاضر، لأنه لا يحتمل مراء ولا جدالا، حين يماري ويجادل في غيب الماضي، أنه تعلمه من غيره، وفي غيب الحاضر أنه افتراه، أو أعانه على معرفته

آخرون، كما روى القرآن الكريم، في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ④ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الفرقان: ٤، ٥).

نعم غيب المستقبل الذي أخبر القرآن به، ووقع حسبما أخبر دليل واضح على خرقه للعادة وإعجازه لجميع البشر.

لقد قرأ العرب قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ (الروم: ٢ ـ ٤). وترقبوا صدق الخبر، وتحدوه بالرهان، لأن انتصار الروم كان مستبعدا وقت البشارة. لكن الله أنجز وعده، وتحققت المعجزة التي نطق بها القرآن.

وقرأ المسلمون قوله تعالى في سورة القمر المكية: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر: ٤٥). فجعل عمر يقول حين نزلت: أي جمع هذا؟ فلما كان يوم بدر، سمع رسول الله ﷺ يرددها.

لما اشتد تمرد قريش وأذاهم لرسول الله ﷺ وأصحابه، دعا عليهم بسنين كسني يوسف، أي بالجوع والقحط الشديدين، عسى أن يتوبوا، فأجيب بقوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ⑩ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ⑪ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ⑫ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ⑬ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ⑭ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ⑮ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ (الدخان: (١٠ ـ ١٦). سمع الكفار بهذه الآيات فأخذوا يسخرون ويستهزئون. فأصيبوا بالقحط حتى أكلوا الجيف والعظام، وجعل الرجل منهم ينظر إلى السماء فيرى كهيئة الدخان من شدة الجوع. وتضرعوا إلى الله أن يكشف عنهم العذاب ليؤمنوا، فكشف الله عنهم، فعادوا للكفر والجحود، حتى انتقم الله منهم يوم بدر، فبطش بهم البطشة الكبرى.

وقرأ المخلفون قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ (الفتح: ١٦). فدعاهم أبو بكر وعمر لقتال العرب والفرس والروم.

وقرأ المسلمون أهل بدر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ (الأنفال: ٧). . ويتحقق وعد الله الذي لا يخلف الميعاد.

وأمثلة أنباء الغيب في القرآن كثيرة لا تحصى.

فإن قيل: أليست التوراة والإنجيل كالقرآن من ناحية تضمنهما الإخبار بالمغيبات؟ قلنا: بلى، ولكننا لسنا بصدد إعجازهما بأخبارهما بأخبار الغيب، بل بصدد إثبات الإعجاز للقرآن، باشتماله على ذلك.

على أننا لم نجد أهل التوراة والإنجيل ادعوا الإعجاز لكتابهم، ولا ادعى لهم المسلمون ذلك. وحيث كان من خصائص المعجزة اقترانها بالتحدي، ولم يثبت التحدي بالتوراة والإنجيل من هذه الناحية، ثبت أن الإعجاز بهذا التفسير مما يختص به القرآن الكريم.

(٢) وقال القاضي أبو بكر: إن وجه إعجاز القرآن ما فيه من النظم والتأليف والترصيف، وأنه خارج عن جميع النظم المعتادة في كلام العرب.

قال الإمام فخر الدين: وجه الإعجاز الفصاحة وغرابة الأسلوب والسلامة من جميع العيوب.

قال الزملكاني: وجه الإعجاز راجع إلى التأليف الخاص به.

وقال ابن عطية: الصحيح والذي عليه الجمهور والحذاق في وجه إعجازه، أنه بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه.

وقال حازم في منهاج البلغاء: وجه الإعجاز في القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه، من جميع أنحائها في جميعه استمرارا لا يوجد له فترة، ولا يقدر عليه أحد من البشر. وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر البلاغة والفصاحة في جميع أنحائها في العالي منه إلا في الشيء اليسير المعدود، ثم تعرض الفترات الإنسانية فينقطع طيب الكلام ورونقه، فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه، بل توجد تفاريق وأجزاء منه.

وكل هذه الأقوال متقاربة الهدف. ولتوضيح المقام، نذكر أن كل متكلم له

طريقته الخاصة في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه. ومن المعروف أن مفردات اللغة العربية، منها متآلف الحروف ومتنافرها، وواضح مألوف وخفي غريب، وعذب الصوت على الأسماع وثقيل بغيض، وكذلك التراكيب العربية، ولكل كلمة مع صاحبتها مجال، ولكل مقام مقال. وللقرآن في هذا المضمار إعجازه، فقد بلغ من ترابط أجزائه وتماسك كلماته وجمله، وآياته وسوره، مبلغا لا يدانيه فيه أي كلام آخر، مع مراعاة مقتضيات الأحوال.

وهذا الوجه من الإعجاز، لا يلمسه إلا ضليع في لسانه وبيانه، فلا يعرف غير العربي إعجاز القرآن من هذا الوجه. كذلك لا يستطيعه من كان من أهل لسانه لكن لم يبلغ الحد الكافي في الفصاحة والبلاغة ووجوه تصرف الكلام العربي.

فإن صناعة الكلام العربي كأي صناعة لا يميز بينها إلا أهلها، والخبيرون بخصائصها ووقائعها. وإذا كان نُسَّاج الثياب مثلا، هم الذين يستطيعون أن يميزوا بين الأنواع المتشابهة، بعدد العقد وبسمك الخيط، والمواد الداخلة فيه، وأصباغه ومدى فتله، وآلة نسجه، وكمية سبكه، إلى غير ذلك من الصفات الدقيقة، التي لا يقدر عليها غيرهم. فإن صناعة الكلام العربي، والتمييز بين ألفاظه وتراكيبه، وفصاحته وإعجازه، لا يقدر عليها إلا فحول البيان، وأساطين البلاغة. وصدق الشاعر حين يقول:

للحرب والضرب أقوام لها خلقوا ... وللدواوين كتاب وحساب

والكلام عن هذا الوجه من الإعجاز يتطلب منا الإجابة عن ثلاثة أسئلة، هي:

(١) هل القرآن كله بدرجة واحدة من الفصاحة والبلاغة، أو يفوق بعضه بعضا؟

(٢) ما القدر المعجز؟ أهو القرآن كله؛ أو جزء منه؟

(٣) هل عجز العرب عن معارضة القرآن والإتيان بمثله كان لذات القرآن وخاصيته، أو لانصرافهم عنه، وعدم تمكين الله لهم عن محاكاته؟

وللجواب عن السؤال الأول، قال القاضي أبو بكر: ونحن نعتقد أن الإعجاز في بعض القرآن أظهر، وفي بعضه أدق وأغمض. أ. هـ.

يعني أن البليغ لا يفتقر في النظر في حال بعضها إلى تأمل كثير، ويفتقر في بعضها إلى نظر دقيق، حتى يقع على البلاغة والإعجاز، وأدقه وأخفاه معجز، فقد اتفقوا على أنه في أعلى مراتب البلاغة، بحيث لا توجد في التراكيب ما هو أشد تناسبا، ولا اعتدالا في إفادة ذلك المعنى منه.

وعلى هذا الرأي أيضا أبو نصر القشيري، إذ قال: لا ندعي أن كل ما في القرآن على أرفع الدرجات في الفصاحة.

وقال غيره: في القرآن الأفصح والفصيح.

ومال إلى هذا الرأي الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ثم تساءل: لم لم يأت القرآن جميعا بالأفصح؟ وأجاب عن هذا السوال موهوب الجزري فقال ما حاصله: لو جاء القرآن على ذلك، لكان على غير النمط المعتاد في كلام العرب من الجمع بين الأفصح والفصيح، فجاء على هذا الوضع ليتم ظهور العجز عن معارضته.

وقد كره بعض العلماء المفاضلة بين آيات القرآن، فقال أبو حيان التوحيدي: سئل بندار الفارسي عن موضع الإعجاز من القرآن، فقال: هذه مسألة فيها حيف على المعنى؛ وذلك أنه شبيه بقولك ما موضع الإنسان من الإنسان؟ فليس للإنسان موضع من الإنسان، بل متى أشرت إلى جملته فقد حققته، ودللت على ذاته. كذلك القرآن لشرفه لا يشار إلى شيء منه، إلا وكان ذلك المعنى آية في نفسه، ومعجزة لمحاوله، وليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كلامه، وأسراره في كتابه.

واختار القاضي منع التفاوت، وقال: إن كل كلمة فيه موصوفة بالذروة العليا، وإن كان بعض الناس أحسن إحساسا له من بعض أ. هـ.

وللجواب عن السؤال الثاني (القدر المعجز من القرآن) نقول: ذهب بعض المعتزلة إلى أن الإعجاز متعلق بجميع القرآن، واحتجوا بظاهر قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ (الإسراء: ٨٨). ولا دليل لهم في الآية لأن القرآن يطلق على كله وعلى بعضه، ويردهم قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود: ١٣). فقد وقع التحدي مع العجز بعشر سور، ثم قوله

تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٣، ٢٤). فقد وقع التحدي بعشر سور فعجزوا، ثم وقع بسورة واحدة فكان عجزهم أشنع وأقبح.

وقال قوم: يتعلق الإعجاز بقليل القرآن، وكثيره لقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور: ٣٤). ورد هذا القول بأن الآية لا دلالة فيها على ما ادعوا، لأن قبلها تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (الطور: ٣٣). وهم لم يدعوا أن محمدا تقول آية منه، بل ظاهره ادعاؤهم تقول محمد القرآن، ولذا حملها بعضهم على أن التحدي فيها كان بالقرآن لا ببعضه، ثم تنزل في التحدي إلى عشر سور، ثم تنزل إلى سورة.

وقال القاضي: في رد استدلالهم بالآية: إن الحديث التام المتحدى به لا تتحصل حكايته في أقل من كلمات سورة قصيرة.

وقال قوم: إن الإعجاز لا يكون إلا بآيات كثيرة.

وقال القاضي: يتعلق الإعجاز بسورة طويلة كانت أو قصيرة تشبثا بظاهر قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ (البقرة: ٢٣). فكل سورة برأسها معجزة.

وأحرى الآراء بالقبول أن الإعجاز منوط بأقصر سورة منه، أو بقدرها من الكلام، بحيث يتبين فيه تفاضل قوى البلاغة. ونقل هذا عن أبي الحسن الأشعري، وقال: فإذا كانت الآية بقدر حروف سورة وإن كانت سورة الكوثر، فذلك معجز. وقال: ولم يقل دليل على عجزهم عن المعارضة في أقل من هذا القدر.

وللجواب عن السؤال الثالث (الإعجاز بنفس القرآن أو بصرفهم عن معارضته)، نقول: زعم النظّام من المعتزلة أن إعجازه بالصرفة، بمعنى أن الله تعالى صرف العرب عن معارضته، مع أنه في مستوى بلاغتهم، وفي مقدورهم الإتيان بمثله، كما يصرف الله تعالى الإنسان عن عمل من أعماله الاختيارية التي في مقدوره وطاقة لسبب من ثلاثة:

(١) ضعف البواعث والدوافع لهذا العمل.

(٢) إصابته بفتور الهمة وشعوره بالخمول والكسل.

(٣) حدوث عارض مفاجئ لا قبل له به. يعترض طريقه وإرادته، ويعطل مواهبه، ويقف حائلا بينه وبين ما يحرص عليه وينشط له.

وعلى ذلك، فإن عدم إتيان العرب بمثل القرآن لم ينشأ من أنه بلغ حد الإعجاز، وفوق الطاقة البلاغية والبيانية، بل لأنهم صرفوا بأحد هذه الأمور الثلاثة، أو بجميعها.

وهذا القول فاسد من وجوه:

أولا : ثبت بالتواتر قيام دواعي المعارضة وتوافرها لدى العرب. فقد أثار حميتهم للمعارضة وتحداهم غير مرة، وهم مضرب المثل في الحمية والأنفة.

ثانيا: ثبت بالتواتر أن القوم لم يتركوا سبيلا يمكنهم من القضاء عليه إلا سلكوه. فقد آذوا رسول الله ﷺ، وعذبوا أصحابه، وقاطعوه وقاطعوا أهله، واتهموه بالسحر والجنون، وشددوا عليه، وتآمروا على قتله، حتى أخرجوه من بلده، ثم حاربوه بالسيف في سبع وعشرين غزوة وثمان وأربعين سرية، مما يدل دلالة قاطعة على أنهم لم يركنوا إلى الخمول، ولم يزهدوا في المعارضة.

ثالثا: لو كان عدم إتيانهم بمثله لطارئ أصابهم، فعطل مواهبهم، وأضعف بلاغتهم وبيانهم، لأثر عنهم ضعف فصاحتهم بعد نزول القرآن، عما كانت عليه قبل نزوله، وهذا باطل.

رابعًا: قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨). فهذه الآية تدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره.

خامسا: انعقد الإجماع على إضافة الإعجاز إلى القرآن، وما كانت هذه الإضافة لتصح لو لم تكن فيه صفة الإعجاز. قال القاضي أبو بكر الباقلاني: ومما

يبطل القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة، لم يكن الكلام معجزا، فلا يتضمن أفضلية على غيره في نفسه.

سادسا: انعقد الإجماع على أن القرآن هو معجزة الرسول العظمى الباقية، والقول بالصرفة يؤدى إلى زوال الإعجاز بزوال زمن التحدي، وخلو القرآن من الإعجاز.

قال القاضي أبو بكر: وليس القول بالصرفة بأعجب من قول فريق منهم: إن الكل قادرون على الإتيان بمثله، وإنما تأخروا عنه لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلموه لوصلوا إليه به. ولا بأعجب من قول آخرين: إن العجز وقع منهم، وأما من بعدهم ففي قدرته الإتيان بمثله. قال: وكل هذا لا يعتد به.

(٣) الوجه الثالث من وجوه الإعجاز بعد الإخبار بالغيب، وبعد الفصاحة والبلاغة، ما ذكره الخطابي من أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، متضمنا أصح المعاني من توحيد الله تعالى وتنزيهه في صفاته؛ ودعائه إلى طاعته، وبيان طريق عبادته من تحليل وتحريم، وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساويها، واضعا كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أحسن منه. ولا يتوهم في صورة العقل أمر أليق منه، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله، ثم صار المعاندون له يقولون مرة: إنه شعر، ومرة: إنه سحر.

وحاصل هذا الوجه أن الإعجاز إنما هو فيما تناوله القرآن من تشريع، مع دقة الألفاظ الدالة عليه.

(٤) الوجه الرابع: هو صنيعه في القلوب، وتأثيره في النفوس، إذا قرع السمع خلص إلى القلب، له لذة وحلاوة عند ذوي الروعة والمهابة: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (الزمر: ٢٣). وله قرع يرهب النفوس الجائرة، ويخضع العتاة الجبابرة: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ (الحشر: ٢١). مات جماعة عند سماع آيات منه، وأسلم جماعة عند سماع آيات

منه، كما وقع لجبير بن مطعم سمع النبي ﷺ يقرأ في صلاة المغرب بسورة الطور. قال: فلما بلغ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ (الطور: ٣٥ ـ ٣٧)، كاد قلبي أن يطير. قال: وذلك أول ما وقر الإسلام في قلبي. كما وقع للوليد بن المغيرة، فقد رق قلبه لما سمع من القرآن، فقال لعشيرته: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو ولا يعلى عليه.

نعم ألهب شعاع القرآن قلوب الكافرين، وأنار طريق السالكين، وجذب إلى أسماع الصغير والكبير، والرجال والنساء، حتى إن المشركين كانوا يخرجون في ظلام الليل يتسمعون القرآن خلسة من بيوت المسلمين.

وإلى هذا الوجه من الإعجاز يشير القرآن نفسه بقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ (المائدة: ١٥). ولقد ذعر الكفار ذعرا شديدا من تأثير القرآن في نفوس سامعيه، فتواصوا على ألا يسمعوه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت: ٢٦).

(٥) الوجه الخامس أن قارئه لا يمله، وسامعه لا يمجه، بل إن الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة، وغيره من الكلام يعادى إذا أعيد، ويمل مع الترديد، ولهذا وصفه ﷺ بقوله: «لا يخلق على كثرة الرد».

(٦) الوجه السادس جمعه لعلوم ومعارف لم يجمعها كتاب من الكتب، ولا أحاط بعلمها أحد، في كلمات قليلة، وأحرف معدودة. ففضلا عن وفائه بحاجات البشر، من حيث إصلاح العقائد والعبادات والأخلاق، وإصلاح المجتمع سياسيا وماليا وحربيا وسلميا، فضلا عن وفائه بموضوعه الأصلي، وهو هداية النفس، تكلم عن علوم ومعارف كثيرة، تكلم عن أصول علم الاجتماع وعلم النفس، وعلم الوراثة، والزراعة، إلى غير ذلك مما يتضح أسراره بالتعمق فيها، والتضلع بتفسير القرآن الكريم.

«أما بعد»، فنختم هذا البحث المهم بقول ابن سراقة: اختلف أهل العلم في وجه

إعجاز القرآن، فذكروا في ذلك وجوها كثيرة، وكلها حكمة وصواب، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءا واحدا من عشر معشاره؛ فقال قوم: هو الإيجاز مع البلاغة. وقال آخرون: هو البيان والفصاحة، وقال آخرون: هو الرصف والنظم. وقال آخرون: هو كونه خارجا عن جنس كلام العرب من النظم والنثر والخطب، مع كون حروفه في كلامهم، ومعانيه في خطابهم، وألفاظه من جنس كلماتهم، حتى إن من اقتصر على معانيه، وغير حروفه أذهب رونقه، ومن اقتصر على حروفه، وغير من معانيه، أبطل فائدته، فكان في ذلك أبلغ دلالة على إعجازه. وقال آخرون: هو كون قارئه لا يكل، وسامعه لا يمل، وإن تكررت عليه تلاوته. وقال آخرون: هو ما فيه من الإخبار عن الأمور الماضية. وقال آخرون: هو ما فيه من علم الغيب. وقال آخرون: هو كونه جامعا لعلوم يطول شرحها، ويشق حصرها. أ. هـ.

وقال الزركشي في البرهان: أهل التحقيق على أن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال، لا بكل واحد على انفراد، فإنه جمع ذلك كله، فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده، مع اشتماله على الجميع، بل وغير ذلك مما لم يسبق.

والله أعلم.

القصص القرآني

القصص إتباع الخبر بعضه بعضا، وأصله في اللغة المتابعة. قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ (القصص: ١١)، أي تتبعي حركاته وسلوكه وأحواله.

وقال تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (الكهف: ٦٤)، أي رجعا من الطريق الذي سلكاه، يقصان آثارهما ويتبعانها.

وسميت الحكاية قصة (بكسر القاف) لأن الذي يقص حديثها يذكر أجزاءها جزءا فجزءا. وجمع القِصة قِصص (بكس القاف أيضا) كعنبة وعنب.

فقصص القرآن أخباره عن أحوال الأمم الماضية، والأنبياء السابقين، والأمور الواقعة.

والقَصص القرآني يحكي أمورا واقعة ومفاهيمها صادقة، وجميع الأسماء الواردة فيه معبرة عن ذوات حقيقية.

وقد شغل القصص جزءا كبيرا من القرآن الكريم، لأنه ركن من أركان الدعوة، ووسيلة من وسائلها، وحجة من حججها، فكان لزاما على المشتغل بالقرآن وعلومه أن يدرس أساليبه وخصائصه، وما دخله من دخيل وما يهدف إليه من أهداف، وأن يدفع الشبه الواردة عليه.

وموضوع القصص القرآني طويل متشعب، خليق بالمؤلفات والمجلدات، جدير بالدراسة في عدة سنوات، ولكن مجاله في كتابنا محدود، وزمنه في التدريس ضيق، وسنبذل الوسع في تحصيل أكبر قدر من النفع في أضيق نطاق.

وسنعرض نماذج من قصص الأنبياء ونماذج من قصص أخرى ثم نتكلم عن:

(١) أنواع القصص في القرآن.
(٢) والفرق بين القصص القرآني وغيره من القصص.
(٣) وأسلوب القرآن في قصصه.
(٤) ودفع زعم أن القصة في القرآن رمز أو خيال.
(٥) والإسرائيليات في القصص القرآني.
(٦) وفوائد ذكر القصص في القرآن.

وسنبدأ بقصة آدم عليه السلام، وبالله التوفيق.

أهداف ذكر قصة آدم في القرآن

لقد عني القرآن بفترة خاصة من قصة آدم عليه السلام، وهي فترة خلقه، وموقف إبليس منه، وما ترتب على ذلك من لعن إبليس وطرده، ثم من عداوته لآدم وذريته، وأكل آدم من الشجرة وهبوطه إلى الأرض.

ولم يعن بحياة آدم بعد ذلك، لا بكيفية تناسله، ولا بكيفية إعماره الأرض، ولا بما كان من أمر أبنائه، اللهم ما تعلق بقتل قابيل لأخيه هابيل. كذلك لم يعن بإبراز الشقاء الذي لقيه على الأرض، بعد أن ذاق في الجنة لذة النعيم. نعم عني بالجانب الأول من القصة، ولم يعن ببقية جوانبها، لأن الهدف من سياقها - وقد سيقت لكفار قريش بمكة - هو الحث على الإيمان، وطلب الانصياع لدعوة الحق، والتصديق بالبعث بعد الموت.

وهكذا نجد ما ذكر من القصة يهدف إلى أمور أربعة:

الأول: أن يتذكر عتاة الكفار أصل خلقتهم، وأنها الطين والتراب، فلا يغتر المغترون، ولا يتجبر المتجبرون. وفي هذا يقول جل شأنه: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (السجدة: ٧، ٨).

الثاني: أن يضعوا نصب أعينهم أصل العداوة بين الشيطان وبينهم، وتوعده لهم منذ بدء الخليقة بإضلالهم، وإبعادهم عن الهداية والرشاد، لعلهم يتحركون نحو

عداوته ومكايدته بالإيمان، كما قال جل شأنه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ (الأعراف: ٢٧).

الثالث: أن يعلموا أن فترة الحياة الدنيا هي فرصة للعمل والإعداد للحياة الأبدية، وأن الموت ليس نهاية الإنسان، بل بعده البعث والنشور. قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ (الأعراف: ٢٥).

الرابع: أن يشكروا نعمة الله عليهم، إذ أكرمهم، وفضلهم على كثير من خلقه، وسوَّى أباهم آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلمه أسرار أسمائه وأمر ملائكته بإعزازه والسجود له. والنعمة على الآباء نعمة واجبة الشكر على الأبناء وأقل ما يجب نحو شكر هذه النعمة هو الإيمان والعبادة والخضوع لله تعالى، واتباع رسوله ﷺ.

آيات القصة:

وقد ذكرت قصة آدم في مواضع متفرقة من القرآن.

(١) ففي «سورة البقرة»: (٣٠ ـ ٣٩) يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. ينوه جل شأنه بخلق آدم وذريته، ويخبر ملائكته بالأمر قبل وقوعه إشعارا بعظمته. ويستكشف الملائكة حكمة هذا الخلق، وقد رأوا إفساد الجن للأرض من قبل: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي فإن كانت حكمة هذا الخلق أن يعبدوك، فنحن قائمون بعبادتك وتعظيمك وتنزيهك بالليل والنهار. لا نسأم ولا نفتر، فما الحكمة يا ربنا في خلق من يفسد في الأرض ويسفك عليها الدماء؟ قال جل شأنه: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾. وخلق آدم ونفخ فيه من روحه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾. أسماء الدواب والطير، والجمادات وأسماء المخلوقات كافة، حتى الصحفة والقدر، ثم جمع الملائكة، ليظهر عجزهم، وشرف آدم عليهم: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ﴾. عرض هذه المسميات على الملائكة فقال لهم: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ﴾ المخلوقات

﴿إن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في معرفتكم للأمور، وما يفسد منها، وما يصلح. ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ فإن الله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. قال الحسن وقتادة: كانوا يكتمون في أنفسهم أن الله لن يخلق خلقا إلا كانوا أعلم منه، وأكرم عند الله منه. ويذكر الله رسوله ﷺ بموقف إبليس من خلق آدم، بعد أن أخبره بموقف الملائكة منه. وفي تذكير الرسول ﷺ، تذكير للأمة، فيقول جل شأنه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ شجرة الحنطة، أو شجرة الكرم، أو شجرة النخلة، أو شجرة التين، أو شجرة لا نظير لها في دنيانا، وكلها أقوال الله أعلم بحقيقتها، ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ إلى الأرض ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى أمد محدود قدره الله. ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ علمه إياها ليدعو بها، وهي: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك. رب إني ظلمت نفسي، فاغفر لي، إنك خير الغافرين. اللهم لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي، فاغفر لي، إنك خير الراحمين. اللهم لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك. رب إني ظلمت نفسي، فتب علي، إنك أنت التواب الرحيم. كذا روي. فقالها آدم ﴿فَتَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. ويختم الله هذا الطرف من القصة، ويبرز أهم أهداف سياقها، ويرشد الأمة إلى اتباع الرسول ﷺ، ويبين عاقبة المستجيبين وعاقبة المكذبين فيقول: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

(٢) وقال تعالى في سورة «آل عمران: ٥٩»: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

(٣) وقـال في «سـورة النسـاء: ١»: ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾.

(٤) وقـال في «سـورة الأعـراف: ١١ ـ ٢٧»: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ أي خلقنا أباكم آدم، ثم صورناه ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾.

ويختم الله هذا الطرف من القصة، بإبراز الهدف الأول من سياقها، فيقول: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾.

(٥) وقال في السورة نفسها (١٨٩): ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾.

(٦) وقال في «سورة الحجر: ٢٦ـ٤٨»: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾.

(٧) وقال في «سورة الإسراء: ٦١ ـ ٦٥»: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾.

(٨) وقال في «سورة الكهف: ٥٠»: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾.

(٩) وقال في «سورة طه: ١١٥ ـ ١٢٤». ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾.

(١٠) وقال في «سورة المؤمنون: ١٢، ١٣»: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾.

(١١) وقال في «سورة السجدة: ٧، ٨»: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾.

(١٢) وقال في «سورة ص: ٧١ ـ ٨٨»: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾.

(١٣) وقال في «سورة الزمر: ٦، ٧»: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾

(١٤) وقال في «سورة الرحمن: ١٤، ١٥»: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾.

وهكذا يجد المتتبع لآيات قصة آدم أنها تركز على الأهداف الأربعة التي ذكرناها، وتكرر هذا الجانب من القصة (جانب أصل الخلقة، وتكريم آدم عند الملائكة، وموقف إبليس منه ومن ذريته، وهبوطه إلى الأرض، وتحذيره وتحذير ذريته من إبليس وجنده).

ولم يتعرض القرآن للجوانب الأخرى من القصة، فلم يتعرض لكيفية خلق حواء، ولا لأوصاف آدم وزوجه، ولا لمدة إقامتهما بالجنة، ولا لمكان هبوطهما من الأرض، ولا لمدة إقامتهما بها، ولا لأطوار حياتهما فيها. لم يتعرض القرآن لهذه الجوانب من القصة، لأن هدفه لم يكن في قصة من قصص التلاعب بالعواطف، وتسريح الخيال، وشغل الوقت، وإثارة الانفعال، كما يفعل القصاصون ومؤلفو الرويات، وإنما شأنه دائما مخاطبة العقول والقصد إلى الأهداف السامية، ولو كان في ذكر شيء من تلك الجوانب مصلحة تعود إلينا لذكرها فهو الحكيم الخبير، وهو الذي يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨).

ولكن غريزة حب الاستطلاع تدفعنا إلى تتبع هذه الجوانب. ولو عن طريق بعض الأحاديث أو الآثار، بل ولو عن طريق ما يعزى إلى كتب السابقين والإسرائيليات. وسنعرض موجزا لهذه الجوانب، منبهين على ما يقبل من أخبارها وما لا يقبل. وبالله التوفيق.

خلق حواء:

ليس في القرآن ولا في الحديث الصحيح، تصريح بأن حواء خلقت من ضلع آدم، وكل ما جاء بهذا المعني منقول عن التوراة التي بأيدي الناس، أما القرآن

فصريح في أن حواء خلقت من آدم، من غير تعرض لمكان ولا لكيفية خروجها منه. قال تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ (النساء: ١).

والذي ورد في الحديث الصحيح قوله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيرا، فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرا». وقد رأى بعض العلماء أن في الحديث إشارة إلى أن حواء خلقت من ضلع آدم، ولكن المحققين يرون أن قوله «خلقن من ضلع» إشارة إلى أنهن خلقن من شيء يشبه الضلع في الاعوجاج، فطبيعتهن غير سهلة، وقيادتهن صعبة. وعليه فالحديث لا يتعرض لخلق حواء.

أما الآثار، فقد حكى السدى عن ابن عباس وابن مسعود، وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا: أخرج إبليس من الجنة، وأسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وحده، ليس له بها زوج يسكن إليها، فنام نومة، فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة، خلقها الله من ضلعه، فسألها: من أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إليّ. فقالت له الملائكة (ينظرون ما بلغ من علمه) ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء. قالوا: ولم كانت حواء؟ قال: لأنها خلقت من شيء حي. أ. هـ.

وذكر ابن إسحاق عن ابن عباس أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر، وهو نائم، ولأم مكانه لحما. أ. هـ.

ومن الواضح أن هذه الآثار لا تكسب علما، وموقفنا منها هو نفس موقفنا من الإسرائيليات، لا نصدقها، ولا نكذبها، ولا يضرنا هذا التوقف في ديننا، لأن هذا الأمر لا يتعلق بثبوته ولا بنفيه غرض ديني.

والذي أحب أن أنبه إليه أن الأثر الأول يفيد أن آدم سكن الجنة وحده قبل خلق حواء وفي هذا تعارض مع قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: ٣٥).

لأن سياق هذه الآية وغيرها من الآيات يقتضي أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة. اللهم إلا أن يقال: إن معنى ﴿ اسْكُنْ ﴾ استمر في السكن وهو خلاف الظاهر.

حقيقة الجنة التي سكنها آدم وزوجه:

اختلف العلماء في حقيقة الجنة التي أسكنها الله آدم وحواء، هل هي جنة الخلد؟ أو جنة أعدها الله لهما في السماء؟ أو جنة أعدها الله لهما في الأرض؟

أقوال ثلاثة ورابعها للتوقف، وعدم الخوض في حقيقتها.

أما القول الأول: وأنها جنة الخلد، فهو قول الجمهور، ويؤيده ظاهر الآيات والأحاديث، كقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (البقرة: ٣٥). فالألف واللام ليست للعموم، وليست للعهد اللفظي، وإنما لمعهود ذهني، والمعهود الذهني للجنة أنها هي المستقر شرعا، وهي جنة المأوى.

وكقوله ﷺ فيما رواه مسلم: «يجمع الله الناس، فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة، فيأتون آدم، فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم»؟

فهذا ظاهر في الدلالة على أنها جنة المأوى.

وأما القول الثاني: وأنها ليست جنة المأوى، وإنما هي جنة أعدها الله لهما، فهو محكى عن أبي بن كعب، وعبد الله بن عباس، ووهب بن منبه، وسفيان بن عيينة، واختاره ابن قتيبة، وحكى عن أبي حنيفة وأصحابه، ونقله القرطبي عن المعتزلة والقدرية (لموافقته مذهبهم في أن جنة الخلد لم تخلق بعد، وأنها غير موجودة الآن).

وهذا القول هو نص التوراة التي بأيدي أهل الكتاب.

ويؤيده أن آدم وحواء كلفا فيها بعدم الأكل من الشجرة، وجنة الخلد لا تكليف فيها، وقد روى أن آدم نام فيها، وأخرج منها ودخل عليه إبليس فيها وهذا مما ينافي أن تكون جنة المأوى.

وأما أنها في السماء، فلقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (البقرة: ٣٦)، إذ لفظ الهبوط في أصل وضعه للنزول من أعلى إلى أسفل، وقوله ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ يدل على أنهم لم يكونوا في الأرض.

وأما القـول الثالث: وأنهـا ليست جنة المأوى، وإنما هي جنة أعدها الله لهـما في الأرض، فإنه يستند إلى أن آدم خلق من الأرض، ولم ينقل أنه رفع إلى السماء، ثم إنه خلق ليكون في الأرض بدليل إعلام الله الملائكة بذلك قبل خلقه، حيث قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، فلو أن الجنة كانت في السماء لحصل الالتباس عليهم وسألوا.

وأما لفـظ الهبـوط فقـد استعـمله القـرآن من الانتـقال في غير علو وسفل حيث قال تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ (هود: ٤٨)، ولم يكن نوح في السماء، وإنما كان في السفينة على الأرض، حين استقر على الجودي وحيث قال تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ (البقرة: ٦١).

على أنه لا مانع أن تكون الجنة التي أسكنها الله آدم وحواء كانت على أرض مرتفعة عن سائر البقاع، وأنها كانت ذات أشجار وثمار وظلال ونعيم ونضرة وسرور، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ﴾ (طه: ١١٨، ١١٩).

فلما كان منه ما كان من أكله من الشجرة، أمر بالهبوط إلى أرض الكد والتعب، والكدر والشقاء.

وعلى كل الأقوال الثلاثة يرد السؤال الآتي:

لا شك في أن الله سبحانه وتعالى طرد إبليس من الجنة بقوله: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ الأعراف: ١٨). ومن غير الجائز أن يحل بالمكان الذي طرد منه، لا على سبيل الاستقرار، ولا على سبيل المرور. ومعلوم من ظاهر الآيات أنه وسوس لآدم بقوله له: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ﴾ (طه: ١٢٠). وبقوله له ولحواء: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف: ٢٠، ٢١).

وهذا ظاهر في اجتماعه معهما في الجنة.

فكيف نوفق بين هذين الأمرين المتعارضين؟

وأجيب بأنه لا مانع من أن يكون قد خاطبهما وهو على سور الجنة، أو بابها. أما القول بأنه دخل مختبئا في جوف الحية، فهو مردود، لأن الله الذي أخرجه وطرده، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

هذا . . . ولم يرد حديث صحيح عن المدة التي قضاها آدم في الجنة. وكما سبق القول، لا يتعلق بالعلم بها غرض ديني، وقد روى ابن عساكر عن الأوزاعي عن حسان بن عطية أن آدم مكث في الجنة مائة عام، وفي رواية ستين عاما.

وهذان الأثران لا يعتد بهما.

لباس آدم وحواء في الجنة:

جاء في التوراة التي بين أيدي أهل الكتاب، أن الذي دل حواء على الأكل من الشجرة هي الحية، وكانت من أحسن الأشكال وأعظمها، فأكلت حواء عن قولها، وأطعمت آدم عليه السلام (وليس فيها ذكر لإبليس) فعند ذلك انفتحت أعينهما، وعلما أنهما عريانان، فوصلا من ورق التين، وعملا مآزر. وفي التوراة أن آدم وحواء كانا عريانين. وهذا وإن وافق ظاهر قوله تعالي: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ (الأعراف: ٢٢)، إلا أن القرآن في موضع آخر صريح في أنهما كان عليهما لباسهما، حيث يقول جل شأنه: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ﴾ (الأعراف: ٢٧).

فهذه الآية تدل على أن سوآتهما كانت مواراة مغطاة.

أما بأي لباس أو بأي نوع كانت مغطاة؟ فالأثر الوارد في ذلك لا يعتمد، وهو قول وهب بن منبه: كان لباسهما نورا على فرجه وفرجها.

أصل إبليس وغوايته:

قال تعالى: ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾

(الرحمن: ١٤، ١٥). ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ (الحجر: ٢٦، ٢٧).

فهذه الآية ظاهرة في أن الجان خلقت قبل آدم، وأن أصل خلقتها النار.

والخلاف في إبليس الذي وسوس لآدم، هل كان من الملائكة؟ أو كان من الجن؟

فذهب جماعة إلى أنه كان الملائكة، لأن الأمر بالسجود قد شمله والأمر صادر للملائكة، ولو لم يكن من الملائكة لما عصى بامتناعه، لكنه عُدَّ عاصيا مخالفا للأمر، حيث يقول تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ (الأعراف: ١٢).

وأما قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ (الأعراف: ١٢). والمعلوم أن الملائكة مخلوقة من النور، فقد قالوا عنه: إنه تعبير عن الأصل: إذ أصل النور النار.

وأما قوله: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ (الكهف: ٥٠) فقد قالوا: إن معناه إلا إبليس صار من الجن بعصيانه.

والأرجح أن أصله من الجن، وأن الأمر شمله باعتبار أنه عاش مع الملائكة وعبد الله كما يعبدون، بل بالغ في العبادة حتى دعي بطاووس الملائكة، فكأن الأمر بالسجود لآدم توجه إلى الملائكة ومن على شاكلتهم.

وصريح القرآن على أن إبليس منظر إلى يوم القيامة، محنة للعباد، واختبارا وابتلاء منه جل شأنه لعباده، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ (سبأ: ٢١).

وصريح القرآن على أن لإبليس جنودا من الجن، إذ يقول تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ٢٧).

وغواية الشيطان لبني آدم لا يعارض فيها إلا مكابر، لأن الآيات والأحاديث الواردة بخصوصها لا يمكن إنكارها، ولا يسهل تأويلها، ولولا ضيق المجال لسقنا هنا كثيرا منها.

إسرائيليات مشوهة في قصة آدم لا يعتد بها:

روي عن ابن عباس أن آدم أهبط إلى الأرض بين مكة والطائف. وعن الحسن: أهبط بالهند، وعن ابن عمر: أهبط بالصفا.

وكل هذه الآثار منقولة عن الإسرائيليات التي لا سند لها.

وأبعد هذه الإسرائيليات عن القبول ما رواه أحمد عن ابن عباس قال: لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ: «إن أول من جحد آدم إن أول من جحد آدم، إن أول من جحد آدم، إن الله لما خلق آدم، ومسح ظهره، فأخرج منه ما هو ذراي إلى يوم القيامة، فجعل يعرض ذريته عليه، فرأى فيهم رجلا يزهر، قال: أي رب. من هذا؟ قال: هذا ابنك داود. قال: أي رب. كم عمره؟ قال ستون عاما. قال: أي رب. زد في عمره قال: لا. إلا أن أزيده من عمرك، وكان عمر آدم ألف. فزاده أربعين عاما، فكتب الله عليه بذلك كتابا، وأشهد عليه ملائكته، فلما احتضر آدم، أتته الملائكة لقبضه، قال: إنه قد بقى من عمري أربعون عاما، فقيل له: إنك قد وهبتها لابنك داود. قال: ما فعلت. وأبرز الله عليه الكتاب، وشهدت عليه الملائكة.

كل ما جاء بهذا الحديث لا يليق بالنبي أبي البشر عليه السلام، ولا يقبل مؤمن بالله ورسله اتهام آدم عليه السلام بالكذب والجحود، وتأكيد ذلك ثلاث مرات.

ومتى كان هذا الكذب وهذا الجحود؟ إنه عند الموت وساعة حضور ملائكة الروح.

ومن هذا الذي يجحد ليزيد عمره في الدنيا، دار الشقاء؟ إنه النبي الذي سكن الجنة، وعلم بالحس البون الشاسع بين نعيمها ونكد الدنيا، وإنه الذي اطمأن لمغفرة ربه، واطمأن لعودته بالموت إلى الجنة. أفيطمع مثل هذا في زيادة أيام الكد والتعب، ويحرص على البقاء في دار الهوان حرصا يدفعه إلى الكذب والجحود؟

إن ديننا لينزه آدم عليه السلام عن هذه الوصمة التي يرفع عنها عامة المؤمنين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أما بعد، فغني عن إعادة القول: إن هذه الجوانب التي لم يتعرض لها القرآن،

لا يتعلق بها غرض ديني، ولا يتوقف على العلم بها أمر أخروي ولا يؤثر إهمالها. وعدم الخوض فيها على كمال الإيمان، بل التمسك بالكثير منها يوقع المسلم في حرج التشكيك في الدين، والطعن في مصدره وقائله.

وليقف المسلم منه موقفه من أخبار بني إسرائيل، لا يصدقها لكثرة ما ورد عنهم من كذب، ولا يكذبها لجواز أن يكون صدقا. والله أعلم بالصواب.

قصة نوح عليه السلام

هي قصة من لون آخر. تحكي الصراع بين الحق والباطل ألف سنة إلا خمسين عامًا. تبدأ بالدعوة الهادئة، والموعظة الحسنة، وتنتهي بدعوة الهلاك والدمار. ويكفينا أن نسوق آياتها، لنفهم الأهداف السامية من قصها.

(١) ففي (سورة الأعراف: ٥٩ ـ ٦٤). يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾.

(٢) وفي (سورة يونس: ٧١ ـ ٧٣). يقول تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾.

(٣) وفي (سورة هود: ٢٥ ـ ٤٩). يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾

فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ
أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن
كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ
(٢٨) وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا
رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ
(٣٠) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ
تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا
يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم
بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ
اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ
إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ
آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ
ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن
تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ
وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ
اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا
بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ
وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ
جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ
مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ
وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ
أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ
غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي
أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧)

قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

(٤) وفي (سورة الأنبياء: ٧٦، ٧٧). يقول تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

(٥) وفي (سورة المؤمنون: ٢٣ ـ ٣٠). يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾.

(٦) وفي (سورة الشعراء: ١٠٥ ـ ١٢٢). يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

(٧) وفي (سورة العنكبوت: ١٤، ١٥). يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

(٨) وفي (سورة: الصافات: ٧٥ ـ ٨٢). يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾.

(٩) وفي (سورة القمر: ٩ ـ ١٧). يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

(١٠) وقد أنزلت سورة بكمالها في قصة نوح (نوح: ١ ـ ٢٨)، وفيها يقول تعالى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾

قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (٢٤) مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا ﴾ صدق الله العظيم .

أهداف قصة نوح

بعد هذا العرض لآيات قصة نوح، نجدها عنيت بجانب خاص من جوانب حياته الطويلة عليه السلام، جانب الدعوة إلى الله، وإقامة الحجة والموعظة الحسنة ومقابلة السفه والأذى بالصبر الجميل، ثم تصوير العقوبة والانتقام من المكذبين أبدع تصوير، مع شيء من الإسهاب يبعث على الخوف والإزجار.

فهي تحكي صنع السفينة وفتح أبواب السماء بماء منهمر، وتفجير عيون الماء، ليلتقي ماء السماء وماء الأرض على ما قدر الله، وجريان السفينة في موج كالجبال، لم ينج منه إلا نوح وأصحاب السفينة، وأغرق الله جميع المكذبين.

كما تحكي صراع العاطفة الأبوية، وخشية الأب على ابنه وحرصه على مصلحته، إذ نادى نوح ابنه: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ (هود: ٤٢، ٤٣). . . . ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (هود: ٤٥).

وهذا الجانب الذي عرضته الآيات، وكررته في السور المتعددة، إنما يركز على أهداف خاصة، لها مغزى بعيد المدى يتناسب مع مقام سوقها، ومعاندة قريش وتكذيب الكافرين.

وإذا كانت قصة آدم قد استهدفت أهدافا أربعة، ذكرناها في موضعها، فإن قصة نوح تستهدف أهدافا غير أهداف قصة آدم. فهي:

(١) تسلي رسول الله ﷺ على تكذيب قومه له، كما قال جال شأنه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ...﴾ (الحج: ٤٢).

(٢) وتخفف عنه صدود قومه عن الإسلام، وكثرة الكافرين منهم، وقلة المؤمنين به. فلئن كانت دعوته ﷺ بمكة لم تنتج في بضع سنين سوى عشرات من المسلمين، فإن دعوة نوح لم تنتج إلا قريبا من هذا العدد في ألف سنة إلا خمسين عاما.

(٣) وتضمد جراح الأذى والاستهزاء والسخرية التي لحقت به من قومه. فإن ما أصابه أصيب به نوح وغيره وما يقال له إلا ما قد قيل للرسل من قبله. فإذا عجب قومه أن جاءهم منذر منهم. فقد قال قوم نوح لنبيهم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ (هود: ٢٧). وإذا تولوا عنه وقالوا معلم مجنون، فقد تولى قوم نوح عنه وقالوا: ﴿مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ (القمر: ٩). وقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (المؤمنون: ٢٥).

وإذا قال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه، وإذا طلبوا منه أن يطرد الضعفاء كعمار وصهيب وبلال، فقد قال قوم نوح: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ (هود: ٢٧). وطلبوا منه كما طلب من محمد ﷺ أن يطردهم. وإذا كان الله قد أنزل عليه: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف: ٢٨)؛ وأنزل عليه: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام: ٥٢)؛ فإنه قد أوحي إلى نوح أن يقول لقومه: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (هود: ٢٩ ـ ٣١).

(٤) وتهدئ من أسفه ﷺ على عدم إيمان أعمامه، وأقرب الناس إليه، فإن ابن نوح كان من المغرقين.

(٥) وتدعو كفار مكة إلى نبذ الأصنام التي عبدها قوم نوح، وتلفت نظرهم إلى البراهين الساطعة الداعية إلى الإيمان، التي ساقها نوح إلى قومه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ (نوح: ١٥ ـ ٢٠). الآيات.

(٦) وتنذرهم بمثل عقاب المكذبين من قوم نوح فليسوا خيرا من أولئكم، وليس لهم براءة في الزبر، وليسوا جمعا ينتصر ولا يهزم، بل سيهزمون أمام المسلمين، ويولون الدبر، والساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر.

ترتيب حوادث القصة الواحدة

ذكرنا لونين من القصص القرآني، لكل لون منهما أهدافه الخاصة، لكنهما يشتركان في أن آياتهما تناولت جانبا واحدا من حياة كل منهما.

أما اللون الذي نحن بصدده، فهو وإن كانت له أهدافه الخاصة، إلا أنه يزيد ع قبله أنه يتناول جوانب مختلفة من حياة الرسول ﷺ، والجوانب ذكرت مفرقة في القرآن، ولم يراع فيها الترتيب التاريخي لحياة صاحب القصة.

وعلى المشتغل بالتفسير وعلوم القرآن، أن يجتهد في ترتيبها الزمني، وأن يضع أجزاء الصورة في مواضعها، لتبدو قصة متناسقة متكاملة.

ولا يقال: لم لم يقم القرآن الكريم بهذه المهمة؟ ولم فرق أحداث القصة الواحدة، بل قدم في الذكر بعض الفصول المتأخرة في التاريخ؟ لأننا نقول ـ ونكرر القول ـ بأن القرآن إنما يعنى بمخاطبة العقول لا العواطف، ويعمد إلى المقاصد والأهداف لا إلى إثارة الانفعالات، ولكل جانب من جوانب القصة التي ذكرت مفرقة أحداثها أهداف مستقلة، مقصودة لذاتها، ووضع الحدث بجوار الهدف وجزء القصة أمام الغرض في سياقه، أدخل في النفس، وأقوى في التأثير، مما لو ذكرت كاملة عند هدف واحد، أو عند أهداف متباينة، ومناسبات مختلفة.

وهذا النمط من القصص يتجلى في قصة إبراهيم الخليل، وفي قصة موسى الكليم عليهما السلام، وسنعرض قصة كنموذج لما يتبع في أمثالها.

قصة إبراهيم الخليل عليه السلام

(١) قال تعالى في (سورة البقرة: ١٢٤ ـ ١٣٢): ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

(٢) وقال تعالى في (السورة نفسها: ٢٥٨): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

(٣) وقال تعالى في (السورة نفسها: ٢٦٠): ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(٤) وقال تعالى في (سورة آل عمران: ٩٦، ٩٧): ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾.

(٥) وقال تعالى في (سورة الأنعام: ٧٤ـ٨٦): ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

(٦) وقال تعالى في (سورة هود: ٦٩ ـ ٧٦): ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾.

(٧) وقال تعالى في (سورة إبراهيم: ٣٥ ـ ٤١): ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

(٨) وقال تعالى في (سورة الحجر: ٥١ ـ ٦٠): ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

(٩) وقال تعالى في (سورة النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣): ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

(١٠) وقال تعالى في (سورة مريم: ٤١ ـ ٥٠): ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾

وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ .

(١١) وقال تعالى في (سورة الأنبياء: ٥١ ـ ٧٣): ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ .

(١٢) وقال تعالى (في سورة الحج: ٢٦ ـ ٢٩): ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ .

(١٣) وقال تعالى (في سورة الشعراء: ٦٩ ـ ٨٩): ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾

قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

(١٤) وقال تعالى في (سورة العنكبوت: ١٦ ـ ٢٧): ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وفي نفس (السورة: ٣١، ٣٢): ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

(١٥) وقال تعالى في (سورة الصافات: ٧٩ ـ ١١٣): ﴿سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴿٨٢﴾ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾.

(١٦) وقال تعالى في (سورة الذاريات: ٢٤ ـ ٣٤): ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾.

وهكذا نجد آيات القرآن الكريم، قد تناولت جوانب مختلفة، من حياة إبراهيم ودعوته عليه السلام، فقد تناولت:

(١) بناءه البيت الحرام ودعوته الناس للحج .
(٢) ومحاجته للذي آتاه الله الملك .
(٣)وطلبه رؤية إحياء الله الموتى .
(٤) ودعوته لأبيه آزر .
(٥) وبراهينه لعبدة الشمس والقمر والكواكب .
(٦) وتبشير الملائكة له بإسحاق .
(٧) ودفاعه وجداله في قوم لوط .
(٨) وإسكانه هاجر وإسماعيل بمكة ودعاءه للبلد الحرام .
(٩) وموقفه من الأصنام، وبراهينه على بطلان عبادتها .
(١٠) تحريقه بالنار، وإنجاء الله له .
(١١) ورؤياه ذبح ولده، وتصديقه لهذه الرؤيا .

وفي ترتيب هذه الجوانب تاريخيا، يقال :

إن إبراهيم عليه السلام هو ابن تارخ الذي عاش ٢٥٠ سنة ابن ناحور الذي عاش ١٤٨ سنة، ابن ساروخ الذي عاش ٢٣٠ سنة، ابن راعو الذي عاش ٢٣٩ سنة، ابن فالغ الذي عاش ٤٣٩ سنة، ابن عابر الذي عاش ٤٦٤ سنة، ابن شالح الذي عاش ٤٣٣ سنة، ابن أرفخشة الذي عاش ٤٣٨ سنة، ابن بسام الذي عاش ٦٠٠ سنة، ابن نوح عليه السلام (ذكره ابن كثير نقلا عن نص التوراة) .

والمشهور عند أهل السير أن إبراهيم عليه السلام يقال إنه ولد بمدينة بابل من بلاد العراق على نهر الفرات جنوبي بغداد .

فلما آتاه الله رشده بدأ بدعوة أبيه إلى نبذ الأصنام وعبادة الله وحده، فلم يستمع أبوه له، ولم يقبل نصحه، بل طرده وتوعده وهدده، وطلب منه أن يهجره . ثم انتقل إلى قومه، فجادلهم في عبادة الشمس والقمر والكواكب، وبين لهم أنها لا تصلح للألوهية، وأنها مخلوقة مربوبة، مسيرة تجري في أفلاك لها، تطلع وتغيب وتضيء وتأفل، والإله لا يغيب .

كما سفه أحلامهم لعبادتهم الأصنام، ووضح لهم بالحسنى أن القدوة بالآباء ليست هي طريق الحق، وأن التماثيل لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، وأن

الحقيق بالعبادة هو الذي يطعم ويسقى، ويمرض ويشفي ويميت ثم يحيي. فلما لم تنفع الحجة والبرهان، ولما لم يؤثر فيهم البيان باللسان، عزم على إقامة الحجة العملية، والإلزام بالأمر الواقع، فانتهز فرصة خروجهم من البلدة لعيدهم، وراغ إلى أصنامهم وبين أيديها ما قدموه لها من طعام وشراب، فقال لها ساخرا منها: ألا تأكلون؟ ما لكم لا تنطقون؟ ثم راغ عليها ضربا باليمين، فكسرها بفأسه ولم يبق منها إلا صنما كبيرا علق الفأس برقبته، لعل قومه يرجعون بعقولهم إلى الصواب، وإلى عبادة الله، وترك عبادة الأصنام، التي لم تستطع دفاعا عن أنفسها، والعاجز عن دفع الضر عن نفسه عاجز عن جلب الخير أو دفع الضر عن غيره من باب أولى.

ولما عجزوا عن مقاومة الحجة بالحجة، والبرهان بالبرهان، حاولوا استخدام القوة، وتحريق إبراهيم بالنار، فأنجاه الله من النار، وجعلها بردا وسلاما على إبراهيم. وأرادوا به كيدا، فجعلهم الله من الأخسرين.

ولما خرج من النار منتصرا بنصر الله، عزيزا بعزة الله، قويا بقدرة الله طلب النمرود حاكم البلاد مجادلة إبراهيم بنفسه، وحاجه في دعوته. قال له: من ربك؟ قال ربي الذي يحيي ويميت. قال ملك البلاد الذي آتاه الله الملك: أنا أحيي وأميت. ثم جاء بمستحق الإعدام فعفا عنه، وببريء فأعدمه. وأدرك إبراهيم أن مكابرة النمرود ستدخل به في جدل ونقاش إن استمر في دليله الأول، فعدل إلى دليل ملزم مسكت، فقال له: إن ربي يأتي بالشمس من المشرق، فإن كنت ربا فأت بها من المغرب، ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨). عندئذ طلب النمرود من إبراهيم أن يخرج من البلاد، وفضل إبراهيم الخروج من الأرض التي لم تقبل دعوته إلى أرض يرجو فيها صلاحا وفلاحا.

فخرج هو ولوط (ابن أخيه) الذي آمن له ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ معك ﴿إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (العنكبوت: ٢٦). فوصلا مدينة حران في شمالي العراق، على طريق الموصل والشام، فمكثا فيها ما شاء الله لهما أن يمكثا، وفيها تزوج إبراهيم «سارة» ابنة ملك حران، كما قال السدي.

لكنهم لم يطب لهم المقام في هذه الأرض، فارتحلوا إلى فلسطين، وضرب إبراهيم قبته شرقي بيت المقدس.

وحدثت في فلسطين مجاعة وقحط وشدة، فارتحل إبراهيم ولوط وسارة إلى مصر. وذكر الكتابيون قصة سارة مع ملك مصر، وأن الله صانها وحفظها من ذاك الجبار، وأنه وهبها أنعاما ودواب وأموالا وجارية قبطية اسمها هاجر، وطلب منها ومن إبراهيم ولوط مغادرة الديار.

فعادوا إلى بيت المقدس، واستقروا بها، ونزل لوط بقريته سدوم. ولما يئست «سارة» من الحمل، وأحست رغبة إبراهيم في الذرية، وهبته جاريتها «هاجر» وطلبت منه أن يدخل عليها. فحملت بإسماعيل، فدبت الغيرة في قلب سارة، وأمر الله إبراهيم أن يرحل بهاجر وابنها إسماعيل إلى جبال فاران (أرض مكة الآن). فأسكنهما بواد غير ذي زرع عند البيت المحرم، وسأل الله لهما ما سأل. ثم عاد من حيث أتى.

وشاء الله الذرية الصالحة لسارة وإبراهيم، فأرسل ملائكته تبشرهما بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، وتنبئ بإهلاك قوم لوط.

وعاش إبراهيم بقية حياته في فلسطين، غير أنه كان بين الحين والحين يذهب إلى جبال فاران، حيث أودع أمانته وتركته، يتعهدها بالسؤال عنها، والاطمئنان عليها.

وفي إحدى هذه الزيارات كانت قصة الذبيح التي حكاها الله في سورة الصافات، وفي أخرى كان بناء البيت، بوأ الله مكانه لإبراهيم، فقام يرفع قواعده ويساعده في بنائه إسماعيل عليهما السلام.

ومات إبراهيم عليه السلام وله من العمر مائتا عام، في أصح الأقوال المروية عن أهل الكتاب، ودفن ببلدة «حبرون» وهي البلدة المعروفة الآن باسم «الخليل».

قال ابن كثير: وهذا الخبر تلقى بالتواتر، أمة بعد أمة، وجيلا بعد جيل، من زمن بني إسرائيل إلى زمننا هذا. والله أعلم.

أهداف قصة إبراهيم:

ومن الواضح أن قصة إبراهيم تشترك مع قصة نوح في بعض الأهداف كالطعن في الأصنام، والدعوة للإله الواحد، وتخفيف الأسى والحسرة على عدم إيمان أقرب الناس إلى الرسول إلخ، لكنها ترمي إلى أهداف أخرى منها:

(١) أن عين الله ترعى رسله، وأن عصمة الله لهم محققة، ولو عن طريق إحباط المسببات العادية، وتخلفها عن الأسباب، بل عن طريق قلب طبائع الأشياء وخصائصها، وتحويل النار إلى برد وسلام.

(٢) وتأليف قلوب اليهود والنصارى، بإبراز فضل إبراهيم الخليل. وثناء الله عليه، إذ هم يقدسونه كالمسلمين، لأنه أب لأبيهم إسحاق، فإبراهيم عليه السلام أب للأنبياء، من لدنه إلى محمد، عليهم جميعا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

(٤) وتهيئة الرسول ﷺ للهجرة، وإشعاره أن من الأنبياء من ترك الأهل والوطن في سبيل الدعوة، وأن عدم الإجابة في مكان لا يمنع من حصولها في مكان آخر، وأن الناس كالأرض، منها الخصب، ومنها صفوان عليه تراب.

(٥) وتهيئة المؤمنين للهجرة، وطمأنتهم على رعاية الله لهم، ولو سكنوا القفار والجبال، وفي رعايته لهاجر وإسماعيل عبرة لأولي الألباب.

(٦) وتقوية انصياعه ﷺ لأمر ربه، مهما شق الأمر على نفسه، فليس هناك ما هو أصعب على النفس البشرية من ذبح ولدها، وفلذة كبدها، وخصوصا إذا رزقته على الكبر ولم ترزق سواه.

تكرار القصة وفوائده

القصص الثلاث السابقة مثل للقصة المتكررة في القرآن، سواء ركزت على جانب واحد، وكررته كآدم ونوح، أو تعددت جوانب القصة وتكررت، كقصة إبراهيم.

وهناك من قصص القرآن ما لم يتكرر، بل ذكر في موضع واحد من القرآن الكريم، وهذا النوع إما أن يتناول جانبا واحدا كقصة لقمان وأصحاب الفيل وإما أن يتناول جوانب مختلفة كقصة يوسف.

ولتكرار القصة أو جانب القصة في القرآن فوائد منها:

(١) شدة العناية بالقصة، أو الجانب المكرر.

(٢) تمكين العبرة والعظة، وإيقاظ الهمم، إذ بالتكرار ينتبه غير المنتبه، ويزداد إدراكا وتعمقا من أدرك.

(٣) التصرف في الأسلوب، وتأكيد إعجاز القرآن، لأن كل قصة كررت حصل في ألفاظها زيادة ونقصان وتقديم وتأخير، وكلها في أعلى درجات البلاغة.

(٤) جذب النفوس إلى سماع القصة بالمغايرة بين أساليب القصة الواحدة.

(٥) استيفاء القصة في موضع لم تستكمل فيه في الموضع الآخر.

هذا ويلاحظ أن القصة الواحدة لم تكرر في سورة واحدة، مهما بلغ طولها، وإنما تتكرر في سور متعددة، مما يتفق وحكم التكرير التي ذكرناها آنفا.

قصة يوسف عليه السلام وأهدافها

وقصة يوسف عليه السلام مثل فريد، ليس له ما يشبهه من قصص القرآن. فهي تتناول جوانب مختلفة من حياة الرسول، في سورة واحدة (سورة يوسف) مع تتابع هذه الجوانب تتابعا تاريخيا.

وهذا الوضع، وإن كان يصادر ما قلناه من قبل، من حكمة تقطيع القصة، وعدم سوق حوادثها مرتبة حسب أزمانها، إلا أنه لو عرف سبب سوق قصة يوسف على هذا النحو لزال الإشكال، وبطلت المصادرة.

فقد روي أن بعض كفار مكة تباحثوا مع بعض اليهود، في شأن محمد صلى الله عليه وسلم، فقال لهم اليهود، سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر واطلبوا منه أن يقص عليكم قصة يوسف.. فنزلت.

وروي أن بعض الصحابة ودوا أن يستمعوا قصة متتابعة الحوادث، على نمط القصة العربية، لتروح عن نفوسهم، وتمتع مشاعرهم، وتثير انفعالاتهم، خصوصا أن بعض زعماء الشرك كانوا يستأجرون القُصاص، ليصرفوا الناس عن القرآن لسماع القصص.

ولهذا افتتحت قصة يوسف بقوله تعالى (٣): ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

كما جاء في مقدمتها قوله تعالى (٧): ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾.

والباحث بعمق في قصة يوسف يجدها تركز على الهدف في كل جانب من

جوانبها. فهي إن كانت مسايرة لنظام القصة العربية، وإن كانت جامعة لخصائصها، استجابة للنوازع الواردة في سبب نزولها، إلا أنها حرصت على إبراز الأهداف وتعميقها، لئلا تنساب العاطفة وراء الأحداث، ويهمل المتعقل استنباط الأحكام والحكم.

(١) فهي حين تحكي نهي يعقوب لابنه عن قص رؤياه تضغط على التحذير من الشيطان ووساوسه، إذا يقول جل شأنه (٥): ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

(٢) وحين تحكي مأساة التخلص من يوسف، ومجيء إخوته بدم كذب على قميصه، تضغط على واجب المسلم عند المصائب، إذ يقول جل شأنه (١٨): ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

(٣) وحينما تحكي التقاط يوسف من الجب وبيعه تضغط على عناية الله ورعايته حين تفتقد الرعاية، فيقول جل شأنه: (٢١، ٢٢). ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

(٤) وحينما تحكي تغليق الأبواب، وتهيؤ امرأة العزيز، تبرز دوافع انصراف يوسف عنها وأنها مراقبة الله، وإخلاصه للعبادة قبل المراودة، ومعرفته لله في الرخاء، حيث يقول جل شأنه: (٢٣، ٢٤): ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.

(٥) وحينما تحكي غلبة الباطل، وانتصاره على الحق في البداية، تضغط على العدالة الإلهية، وإقامة الشاهد للمغلوب من حيث لا يحتسب، ليجيء الحق ويزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، حيث يقول جل شأنه: (٢٦): ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ الآية.

(٦) وحينما تحكي سجن يوسف، واستفتاء صاحبي السجن عن رؤياهما، تبرز حرص يوسف على نشر الوحدانية، والدعوة للإيمان بالله واليوم الآخر حتى في سجنه، وقد أوقف جواب الاستفتاء، وأجله حتى يغرس دعوته في قلوب سائليه، فقال تعالى: (٣٧ ـ ٤٠): ﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾. ثم أول الرؤيا لهما بعد ذلك بقوله (٤١): ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

(٧) وحينما تحكي تمكين يوسف: ﴿فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ (٥٦)، تلفت النظر إلى الآخرة، لئلا يعتمد على تفضيل الله على بعض عباده بخير الدنيا ويظن أنه دليل على خير الآخرة، فيقول جل شأنه: (٥٦، ٥٧)﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

(٨) وهكذا.. وهكذا.. حتى تختم القصة بالتوجه إلى الله، وإسناد كل خير إليه (١٠١): ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

(٩) ثم تبرز الهدف الأسمى من القصص القرآني، وأنه إثبات الإعجاز، وإثبات رسالة محمد ﷺ، فيقول جل شأنه (١٠٢، ١٠٣): ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

قصة أصحاب الكهف ومقاصدها

ما سبق من القصص كان أمثلة من قصص الأنبياء في القرآن. وهناك كثير من قصص غير الأنبياء في القرآن، وسنكتفي منه بقصة أصحاب الكهف. وكان سبب نزولها، هي وقصة ذي القرنين ما ذكره ابن اسحاق وغيره، من أن قريشا بعثوا إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ، ويسألونه عنها، ليختبروا ما يجيب به لهم، فقالوا: سلوه عن أقوام ذهبوا في الدهر، فلا يدري ماصنعوا، وعن رجل طواف في الأرض، وعن الروح، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٨٥). ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً﴾ (الكهف: ٨٣). وقال عن الأقوام الذين ذهبوا: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (الكهف: ٩).

ومع أن القصة ذكرت إجابة لمطلب الكفار، ولم يكونوا يطلبون سوى الأحداث والوقائع، فإنها عنيت بإبراز العظات، وتعميق الآثار، واستنباط الحكم والأحكام، فوق تفصيل الحوادث، وتصوير القصة تصويرا يحس معه السامع أنها ماثلة بين يديه، وأنه حاضر مشاهد لمجرياتها مما لا يدع مجالا للمعاندين أن يطعنوا، ولا للذين يتحدون ويعاندون أن يتمادوا في ضلالهم وعنتهم، وتؤكد أن ما ذكره القرآن هو الحق الذي ليس بعده حق فيقول جل شأنه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ (الكهف: ١٣).

ثم تحكي أنهم كانوا فتية آمنوا بالله وحده، ونبذوا ما كان قومهم يعبدون من الأصنام والأوثان، فكشف الله عن قلوبهم الظلمة، وألهمهم الرشد، فهاجروا إلى غار في جبل، لعلهم يعبدون الله دون رقيب. ثم يمضي القرآن في تصويرهم في كهفهم أبدع تصوير، فباب الكهف في الجهة الشمالية، تزوره الشمس من يمينه من جانبه الشرقي زيارة خفيفة في مطلعها، وتودعه وداعا خفيفا من شماله من جانبه الغربي عند مغيبها، وهم في فجوة منه، وكلبهم باسط ذراعيه على بابه، تحسبهم أيقاظا، لتفتح عيونهم، وتقلبهم ذات اليمين، وذات الشمال، وهم رقود في الحقيقة، نيام نوما عميقا طويلا، ثلثمائة سنين تزيد تسعا، لا يأكلون فيها ولا

يشربون. ثم يشاء الله لهم اليقظة، فيسأل بعضهم كم ساعة لبثنا نياما؟ ويجيبون: لبثنا يوما أو جزء يوم، يقول أحدهم: دعونا من البحث في مدة النوم، فإننا نحس بالجوع، والله أعلم بما لبثنا، فأرسلوا واحدا منا متخفيا إلى البلدة، ليشتري لنا طعاما، وليتلطف في دخوله ومحادثته، لئلا ينكشف أمره وأمرنا، لأنهم إن اكتشفوا أمرنا يرجمونا أو يعيدونا إلى ملتهم ومعبوداتهم، والثانية أدهى وأمر، لأنها تحرمنا من الفلاح الأبدي.

وخرج أحدهم من الكهف واتجه نحو البلدة، فرأى المناظر قد تغيرت، فيعجب ثم يمضي حتى يصل إلى أبواب المدينة، فيحس كأنه غريب عنها، الناس غير الناس الذين عهدهم، والبيوت غير البيوت، والطرقات غير الطرقات، والأسواق التي يعرفها قد تبدلت، ونظرات الناس إليه تكاد تلتهمه، وهو لا يدري أن منظره يثير العجب، ويبعث على الفرار منه، ويملأ النفس بالفزع والرعب: الشعر غريب طويل منتفش، والأظافر طالت إلى حد مخيف والوجه شاحب، والملابس غير معهودة. لا يدري أنه تحفة أثرية لها أكثر من ثلاثمائة سنة. ولكن ماذا يعنيه من نظرات الناس؟ إنه جاء ليشتري طعاما، وهذا هو الطعام: وضع يده في جيبه فأخرج عملة عفا عليها الزمان، وتغيرت بتغير الملوك، وناولها للبائع طالبا بها خبزا، وسأله البائع مندهشا عن مصدر هذا الرزق. ويتجمع الناس حوله، ويقودونه شاكين في أمره إلى الحاكم، فيضطر للإفصاح عن حاله وحال زملائه، فيبعثون في نفسه الأمن والطمأنينة، بأن الله بدل حكم الظلم والطغيان وبأنه وأصحابه في عزة ومنعة. ويتحرك أهل المدينة إلى الكهف، ليشهدوا البعث بعد الرقاد الطويل. ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ (الكهف: ٢١).

واعتز بهم الناس وعظموهم وقرروا أن يبنوا على قبرهم مسجدا تبركا بهم.

تلك أحداث القصة في تصويرها الرائع، الذي يأخذ بالمشاعر والأحاسيس، وكان من الممكن أن يكتفي بهذا السرد، ولكننا قلنا ونكرر القول بأن القصة القرآنية (مهما كان الطالبون لها) لم يكن هدفها إشباع النفس التواقة للقصص، ولا مجرد إفادة الوقائع التاريخية، بل الاستفادة منها أتم استفادة، والانتفاع من كل جزئية فيها.

ولذلك نجد القرآن الكريم يفتتح القصة بإبراز عقيدتهم، والثناء عليهم، فيقول: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾. (الكهف: ١٠ ـ ١٦).

وعند العثور على أصحاب الكهف يبرز الهدف والحكمة الداعية إليه، فيقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ (الكهف: ٢١).

ويرشد رسول الله ﷺ إلى أن الكفار يريدون الدخول في جدل لا أصل له، وفي معارضة هدفها التكذيب والتهريج والتشويش، ﴿سَيَقُولُونَ﴾ في عددهم ﴿ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، وسيقولون: بل ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، وهذا رجم بالغيب لا أصل له، ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾، ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ سهلا ولا تتكلف الجدال، ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ﴾ في أمرهم ﴿أَحَدًا﴾ (٢٢)، منهم، وإن جادلوك في مدة لبثهم، فقل ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. ما أعظمه من سميع وبصير، يضع الأمور في نصابها، ويقول وقوله الحق، وله الملك، ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦).

أنواع القصص في القرآن

بعد هذا الاستعراض لنماذج من قصص القرآن، يمكن تقسيمه من حيث قصص الأنبياء وغير الأنبياء إلى نوعين:

الأول: قصص يتعلق بأحوال الأنبياء، وما كان منهم، كقصة آدم ونوح وهود وصالح وشعيب، وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ويوسف وأيوب

ويونس وموسى وهارون وداود وسليمان وزكريا وعيسى عليهم وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام.

ويلحق بهذا النوع ما جاء من قصص أشخاص، أو أشياء تابعة لقصة نبي من الأنبياء، كقصة إبليس، وقصة قابيل وهابيل التابعين لقصة آدم عليه السلام، وكقصة فرعون، وقصة العجل، وقصة البقرة، وقصة الخضر، وقصة قارون، التابعات لقصة موسى عليه السلام.

الثاني: قصص يتعلق بغير الأنبياء، كقصة أهل الكهف، وقصة ذي القرنين، وقصة الرجلين المؤمن والكافر، التي في سورة الكهف، وقصة لقمان وقصة أصحاب الجنة، وقصة أصحاب الأخدود، وقصة سبإ، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهو ألوف حذر الموت، وقصة الذي مر على قرية هي خاوية على عروشها وقصة أصحاب الفيل.

جوانب القصة:

كما يمكن تقسيم القصص القرآني من حيث جوانب القصة إلى نوعين:

الأول: قصص تناولت جانبا واحدا من حياة صاحب القصة، وكثيرا ما كان هذا الجانب متعلقا بالدعوة وبنجاة المؤمنين، وهلاك الكافرين، إنذارا لكفار قريش، وتبشيرا للمسلمين وتسلية لرسول الله وتثبيتا لفؤاده ﷺ، كقصة هود وصالح وشعيب ولوط ويونس عليهم السلام. وأحيانا كان هذا الجانب يتعلق بجزئية من جزئيات الدعوة كقصة أيوب، وقصة أهل الكهف، وقصة لقمان، وقصة أصحاب الجنة.

الثاني: قصص تناولت جوانب مختلفة كقصة يوسف عليه السلام.

تكرار القصة وتجزئتها:

كما يمكن تقسيم القصص القرآني من حيث استيفاء القصة في مكان واحد أو توزيعها إلى نوعين:

الأول: قصص جاءت مستوفاة في مكان واحد من سورة واحدة، سواء كانت متعلقة بجانب واحد، كقصة ذي القرنين، وقصة أصحاب الجنة وقصة أصحاب الفيل، أو كانت متعلقة بجوانب مختلفة كقصة يوسف عليه السلام.

الثاني: قصص تكررت ووزعت أجزاؤها في سور مختلفة وهذا النوع هو الغالب والكثير في قصص الأنبياء عليهم السلام.

طلب القصة أو عدم طلبها:

كما يمكن تقسيم القصص القرآني من حيث نزول القصة استجابة للطلب أو نزولها: بغير طلب إلى نوعين:

الأول: قصص نزلت بناء على طلب من الصحابة أو غيرهم، سواء عرف هذا الطلب عن طريق سبب النزول المفهوم من الآثار، كقصة يوسف وقصة أصحاب الكهف، أو صرح به في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ (الكهف: ٨٣).

الثاني: قصص أنزلت من غير طلب في مناسبات ولظروف وحكم يعلمها الحكيم الخبير، وهذا النوع هو الغالب والكثير.

تسمية السورة باسم القصة أو عدم تسميتها:

كما يمكن تقسيم القصص القرآني من حيث تسمية السورة باسم القصة أو عدم تسميتها إلي قسمين:

الأول: قصص سميت السورة باسمها، وهذا القسم ثلاثة أنواع:

(أ) نوع تمحضت السورة للقصة، فلم يذكر فيها ما لا يتعلق بها كقصة نوح وقصة يوسف، وقصة أصحاب الفيل.

(ب) ونوع شغلت القصة جانبا كبيرا من السورة، فكان واضحا تسمية السورة باسمها، كسورة الكهف، وسورة مريم، وسورة لقمان.

(ج) ونوع كان الجزء المذكور من القصة في سورته أقل مما ذكر في غيرها أو قليلا

بالنسبة لآيات السورة. ومع ذلك، سميت السورة باسم هذا الجزء الصغير، اهتماما واعتناء به، كقصة البقرة، وآل عمران، والمائدة، ويونس، وهود وإبراهيم، والنحل والإسراء والنمل.

الثاني: ، قصص لم تسم باسمها سورة من السور، كآدم، ولوط، وإسماعيل وأيوب، وموسى، وهارون، وداود، وسليمان، وعيسى، وزكريا، وأصحاب الأخدود. ومن هذا النوع ما كانت القصة غالبة على السورة ولكن جعل الاسم لغيرها، كسورة البروج، وأكثرها في قصة أصحاب الأخدود، وسورة القصص، وأكثرها في قصة موسى عليه السلام.

وينبغي أن نتذكر ما قلناه في أول الكتاب من أن أسماء السور توقيفي على الصحيح، وأن أساس التسمية لم يكن الكثرة الموضوعية فيها والله أعلم.

الفرق بين القصص القرآني وغيره من القصص

يختلف القصص القرآني عن غيره من القصص من حيث الموضوع، ومن حيث سرد حوادث القصة ومن حيث الهدف منها، ومن حيث أسلوبها.

فالقرآن يتخير من الموضوعات ما فيه العظة والعبرة، وما يتفق ومستوى المخاطبين. وأما غيره من القصص فكثيرا ما يكون موضوعه شريرا داعيا إلى الانحراف، باعثا على القتل أو السرقة أو الزنا أو الفسوق والفساد.

ثم إن القرآن كما قلنا لا يعنى بسرد حوادث القصة سردا تاريخيا، بقدر عنايته بأثر كل جزئية من جزئياتها، وما يترتب عليها من منافع أو مضار، فكثيرا ما يجزئ القصة، ويكرر حوادثها في سورة مختلفة، ويذكر طرفا منها، ويشير إلى آخر ويهمل باقيها.

يخلاف القصاصين الذين يعنون بالتلاعب بالعواطف، وإثارة الانفعالات لا لهدف سوى قتل الوقت والتسلي بالخيال.

ثم إن القرآن ـ كما وضحنا في قصة يوسف أو قصة أهل الكهف ـ يركز على الأهداف عقب الحوادث ويبرز الغاية عقب سرد الوقائع، ويخاطب العقول، ويستحث أولى الألباب أن يتعمقوا ويتدبروا ويتعظوا.

أسلوب القرآن في قصصه

ومما هو جدير بالذكر أن يعلم أن جميع ما قصه الله تعالى في القرآن، حكاية عن غير أهل اللسان العربي، من القرون الخالية، إنما هو معرب عن معانيهم، وليس بحقيقة ألفاظهم.

فالقرآن إذ يحكي عن قوم كانوا يتكلمون بالسريانية مثلا، وينقل أقوالهم ومجادلتهم، فإنه يعرب عن معاني ألفاظهم، ويحكي مضامين كلامهم باللغة العربية.

فهي ترجمة كاملة لا نقص فيها ولا زيادة، وهي ترجمة دقيقة، لا تحريف فيها ولا اختلال، لأنها من خالق اللغات، ومن العليم بدقائق الكون وأسرار الكائنات.

ولهذا يقول جل شأنه ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾. (يوسف: ٣)، وحسن قصصه في حسن أداء عباراته، لما فيه من المقاصد والحقائق، والعبر والحكم والعجائب، وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً﴾ (النساء: ٨٧).

قصص القرآن حقيقة لا خيال

من القصص البشري ما يحكي واقعا، ويصور حقائق ثبت وجودها، ومنه ما هو من نسج خيال مؤلفه. أما القصص القرآني فجميعه حقيقة لا خيال، لأنه كلام العليم الخبير. والقصص الخيالي إنما يلجأ إليه من أعوزته الحقائق. أو عجز عن تصويرها، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ويحاول بعض المستشرقين التشكيك في حقيقة القرآن، بالتشكيك في بعض قصصه، ووصفها بأنها رمزية لا واقعية، وأنها خيالية لا وجود لحوادثها.

وهذا الصنف من المستشرقين لم يستطع اتهام جميع القصص القرآنية بالخيالية. لأن الكثير منها ثابت في الكتب المقدسة الأخرى، وإنما حاول الطعن في واقعية بعض القصص، كقصة أهل الكهف، وزعم أنها رمز لاضطهاد المسيحية، وأن فترة

هذا الاضطهاد كانت ثلاثة قرون، وأنه لم ينم أحد ثلاثمائة سنة، زاعما أن عدم ذكر الأسماء، وعدم ذكر الأمكنة، وعدم ذكر التواريخ، بل عدم الجزم بالعدد، دليل على عدم الواقعية. وهذا الافتراء الآثم لا يجوز على أصحاب العقول من البشر الذين يؤمنون بوجود الله وأنه الصادق فيما يقول ولا أحد أصدق من الله حديثا.

وإن ادعاء الخيالية للقصة القرآنية، يؤدي إلى أحد أمرين: إما الطعن في القرآن والإيحاء بأنه من عند محمد ﷺ، وليس من عند الله، وإما الطعن في أخبار الله بالكذب، لأن قوله تعالى مثلا: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ (الكهف: ١٨)، هذا القول إن لم يكن له حقيقة واقعة، وإذا لم يكن هناك رقود وتقلب، وإن لم يكن هناك كلب باسط ذراعيه بالوصيد، إن لم يكن شيء من ذلك في واقع الأمر، لكان الخبر غير مطابق للواقع، وكل خبر لا يطابق الواقع فهو كذب، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

هذا، ومما لا تستريح إليه النفس قول بعض المفسرين، في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا...﴾ (الكهف: ٣٢). قال بعض المفسرين: هذا مثل مضروب، وليس من قبيل القصة، ولا يلزم أن يكون واقعا، كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ...﴾ (النحل: ١١٢)، وجمهور المفسرين والعلماء على خلافه. وعلى أنه أمر قد وقع، والله أعلم.

الإسرائيليات والقصص القرآني

أنزل الله التوراة على موسى عليه السلام، وكانت كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٥٤).

وظل اليهود متمسكين بها بعض الزمان، لكنهم ما لبثوا أن شرعوا في تحريفها وتبديلها وتغييرها وتأويلها، وإبداء ما ليس منها، كما قال الله فيهم: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٧٨).

فأخبر الله تعالى أنهم يقسرونها ويتأولونها، ويضعونها على غير مواضعها، وهذا محل إجماع من علماء المسلمين.

وأما النصارى فإن أناجيلهم الأربعة ـ من طريق مرقس ولوقا ومتى ويوحنا ـ أشد اختلافا، وأكثر زيادة ونقصا، وأفحش تفاوتا من التوراة.

ولهذا نبه المسلمون إلى الحيطة من الأخذ عن أهل الكتاب، فقد روى البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون».

وكان رسول الله ﷺ لا يحب الاستدلال على شيء من ألسنة أهل الكتاب. فقد روى أحمد بسند صحيح عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ، قال: فغضب وقال: «أمتهوكون فيها يا بن الخطاب؟ أي أمتحيرون في ملة الإسلام أنتم يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني».

وروى البخاري عن ابن عباس أنه قال: «كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على رسوله أحدث الكتب بالله؟ تقرءونه غضا لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا هو من عند الله، ليشتروا به ثمنا قليلا. ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذي أنزل عليكم». قال ابن كثير: أما الأخبار الإسرائيلية، فيما يذكره كثير من المفسرين والمؤرخين، فكثيرة جدا. ومنها ما هو صحيح موافق لما وقع، وكثير منها بل أكثرها مما يذكره القصاص، مكذوب مفترى، وضعه زنادقتهم وضلالهم. وهي ثلاثة أقسام: منها ما هو صحيح لموافقته ما قصه الله في كتابه أو أخبر به رسول الله ﷺ، ومنها ما هو معلوم البطلان لمخالفته كتاب الله وسنة رسوله، ومنها ما يحتمل الصدق والكذب فهذا الذي أمرنا بالتوقف فيه، فلا نصدقه ولا نكذبه. أ. هـ.

وقد ذكرنا في قصة آدم عليه السلام خبرا إسرائيليا، وبينا وجه فساده، ونسوق هنا بعض الهذيانات الإسرائيلية، لنرى مدى تغلغل الخرافات في قصص وتفسير القرآن الكريم.

جاء في تفسير ابن جرير: فلما فرغ نوح من صنع السفينة، ونبع الماء، وصار في السكك خشيت أم الصبي عليه، وكانت تحبه حبا شديدا، فخرجت به إلى الجبل، حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت به، حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها، فغرقا، فلو رحم الله من قوم نوح أحدا لرحم أم الصبي.

ويزعم بعض المفسرين أن عوج بن عنق، كان موجوداً من قبل نوح، وبقى حيا إلى زمان موسى. ويقولون: إنه كان كافرا متمردا جبارا عنيدا. ويقولون: ولدته أمه عنق بنت آدم من زنا، وأنه كان يأخذ ـ من طوله ـ السمك من قرار البحر، ويشويه في عين الشمس، وأنه كان يقول لنوح، وهو في السفينة، ما هذه القصعة التي لك؟ يعنى السفينة، ويستهزئ به، ويذكرون أن طوله كان ثلاثة آلاف ذراع وثلثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلث ذراع . . . إلى غير ذلك.

وقال ابن كثير: وهذا مخالف للمعقول والمنقول.

أما المعقول، فكيف يسوغ فيه أن يهلك الله ولد نوح للكفر، وأبوه نبي الأمة، ولا يهلك عوج بن عنق، وهو أظلم وأطغى على ماذكروا؟ وكيف لا يرحم الله منهم أحدا، ولا أم الصبي ولا الصبي، ويترك هذا الجبار العنيد الفاجر الكافر الشيطان المريد على ما ذكروا؟

وأما المنقول، فقد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ (الشعراء: ٦٦). ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ (نوح: ٢٦).

ثم إن هذا الطول الذي ذكروه مخالف لما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعا، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن». فهذا نص الصادق المصدوق، وهو يقتضي أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه، فكيف يترك هذا، ويذهل عنه، ويصار إلى أقوال الكذبة الكفرة من أهل الكتاب الذين بدلوا كتب الله المنزلة، وحرفوها وأولوها، ووضعوها على غير مواضعها. أ. هـ. بتصرف.

وجاء في بعض التفاسير أن الذبيح إسحاق وليس إسماعيل .

قال ابن كثير : ومستند القائلين بأنه إسحاق الإسرائيليات ، وكتابهم فيه تحريف ولا سيما هنا قطعا لا محيد عنه ، فإن عندهم : إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده ، وفي نسخة من المعربة «بكره إسحاق» فلفظة «إسحاق» ههنا مقحمة مكذوبة مفتراة ، لأنه ليس هو الوحيد ، ولا البكر . ذاك إسماعيل .

وإنما حملهم على هذا حسد العرب ، فإن إسماعيل هو أبو العرب ، الذين يسكنون الحجاز ، الذين منهم رسول الله ﷺ ، وإسحاق والد يعقوب ، وهو إسرائيل الذي ينتسبون إليه ، فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم ، فحرفوا كلام الله وزادوا فيه ، وهم قوم بهت .

ثم قال : وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم ، وإنما أخذوه ـ والله أعلم ـ من كعب الأحبار ، أو صحف أهل الكتاب ، وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم ، حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز ، ولا يفهم هذا من القرآن ، بل المفهوم ، بل المنطوق ، بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل . أ . هـ .

وجاء في بعض التفاسير ، أنه لما طلب من بني إسرائيل دخول الأرض المقدسة خرج من عند الجبارين عوج بن عنق ، إلى بني إسرائيل ليهلكهم ، وكان طوله على ما ذكرنا ، قالوا : فعمد عوج بن عنق إلى قمة جبل ، فاقتلعها ، ثم أخذها بيده ليلقيها على جيش موسى ، فجاء طائر ، فنقر تلك الصخرة ، فحرقها ، فصارت طوقا في عنق عوج بن عنق ، ثم عمد موسى إليه ، فوثب في الهواء عشرة أذرع ، وطوله عشرة أذرع ، وبيده عصاه وطولها عشرة أذرع فوصل إلى كعب قدمه ، فقتله .

قال ابن كثير : وهذا من وضع جهال بني إسرائيل ، فإن الأخبار الكذبة قد كثرت عندهم ، ولا تمييز لهم بين صحتها وباطلها . أ . هـ . والله أعلم .

فوائد ذكر القصص في القرآن

ذكر العلماء فوائد عامة لذكر القصص في القرآن ، أهمها :

(١) الدلالة على صحة رسالة محمد ﷺ، فإن هذه القصص إخبار بالغيب بالنسبة له ﷺ، لأنه أمي لم يقرأ هذه القصص في كتب السابقين، ولم يثبت أنه تعلم أو تلقى شيئا من ذلك عن أهل الكتاب، بل إن بعض القصص نزل جوابا عن تحدي أهل الكتاب وكفار قريش، فدل ذلك على أنه أخبر بالغيب النسبي، والإخبار بالغيب معجزة دالة على صدق الرسول ﷺ.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ (آل عمران: ٤٤، ٤٥).

ويقول: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود: ٤٨، ٤٩).

ويقول في قصة يوسف ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف: ١٠٢).

ويقول: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (القصص: ٤٤ ـ ٤٦).

(٢) بيان أن دعوة رسول الإسلام متفقة في أصولها مع دعوة من سبقه من الرسل، فلا عذر لمن لم يؤمن بها ويتبع هواه، وفي ذلك يقول جل شأنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥).

وقد ذكرت القصص القرآنية دعوة الأنبياء لأممهم للوحدانية، ونبذ الأصنام والإيمان باليوم الآخر، واتباع الفضائل وترك الرذائل.

(٣) إعلام النبي ﷺ، وإعلام المسلمين بأحوال الأنبياء والأمم السابقين، لتكون لديهم الحجة على معارضة أهل الكتاب وتحديهم وتعنتهم، كما قال تعالى:

﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران: ٩٣). وقد تؤدي هذه المحاجة إلى إيمان بعض الناس.

(٤) تثبيت فؤاد النبي ﷺ، وتقوية عزيمته للمضي في الدعوة برغم ما يلاقي من أذى واضطهاد، فما يقال له إلا ما قد قيل للرسل من قبله، وإن يكذبوه فقد كذبت رسل من قبله، وإن يؤذوه فقد صبر الرسل من قبل على ما كذبوا، وأوذوا حتى أتاهم نصر الله، ولا مبدل لكلماته. ولقد جاءه من نبإ المرسلين. فليصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ولا يكن كصاحب الحوت إذ نادى ربه وهو مكظوم.

(٥) تثبيت فؤاد المؤمنين، وغرس الثقة في نصر الله في نفوسهم، وتسليتهم عما أصابهم بما آلت إليه حال المؤمنين السابقين، وحال أعدائهم الكافرين.

(٦) العظة والعبرة لكل من الفريقين، المؤمنين والكافرين، فقد اشتملت القصة القرآنية، على كثير من العظات والعبر التي تؤثر في النفوس العاقلة، والتي تدفع الكافرين إلى الإيمان لئلا يصيبهم مثل ما أصاب الأمم من قبلهم، ولئلا يحل من العذاب العاجل ما حل بقوم هود أو قوم صالح أو قوم إبراهيم أو قوم لوط، وتدفع المؤمنين لزيادة التمسك بدينهم، والتفاني في نشر تعاليمه، وتحمل الأذى في سبيله، لينالوا من النعيم ما أعد لهم ولأمثالهم من السابقين.

وفي ذلك يقول جل شأنه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف: ١١١).

ويقول: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: ١٢٠).

ويقول: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ١٠٢، ١٠٣).

(٧) إحياء ذكر الأنبياء السابقين، والأولياء والشهداء والصالحين، فإن في ذكر

قصصهم تخليدا لجهادهم وفضلهم ما بقي القرآن مكتوبا في المصاحف متلوا في الصدور، استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾ (الشعراء: ٨٤).

تلك الفوائد العامة، أو الأصول الجامعة لفوائد ذكر القصص في القرآن. وهناك فوائد أخرى كثيرة تخص كل قصة على حدة، وقد ذكرنا طرفا من أهداف قصة آدم، وقصة نوح، وقصة إبراهيم، وقصة يوسف عليهم السلام، ونسوق هنا نبذة أخرى لبعض القصص.

قصة هود عليه السلام وأهدافها

(١) تحذر الأغنياء والأقوياء والمترفين ألا يغتروا بما هم فيه، وألا يعرضوا عن دعوة الرسل، وأن يؤمنوا بأن الله الذي أمدهم بنعمه، قادر على تحويلها نقما ودمارا.

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ (فصلت: ١٥، ١٦).

(٢) تنبه إلى اليوم الآخر، وتحذر من الركون إلى المصانع والحصون. قال تعالى ـ حكاية لقول هود لقومه ـ ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٥).

(٣) إن الخير ليس دائما فيما يراه الإنسان خيرا، فقد يكون فيما يتمناه ويرجوه الوبال الأليم.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (الأحقاف: ٢٤، ٢٥).

من أهداف قصة موسى عليه السلام

من أهداف قصة موسى عليه السلام غرس العقائد الآتية في نفوس الأمة :

(١) أن الله يداول الأيام بين الناس، فيرفع من خفض، ويخفض من رفع، لحكمة يعلمها الحكيم الخبير، قال جل شأنه : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ (القصص : ٥، ٦).

(٢) أنه لا يغني حذر من قدر، وأن الله بالغ أمره، فقد ذبح فرعون أبناء بني إسرائيل، خوفا على ملكه من غلام يولد منهم، قيل إن هلاكه سيكون على يديه. ومع هذا الحذر الشديد، والاحتياطات الكبرى، رباه فرعون بنفسه في بيته وليدا، ولبث في قصره من عمره سنين.

وفي هذا يقول ابن كثير : وكأن القدر يقول : يأيها الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده، وسلطة بأسه، واتساع بأسه، واتساع سلطانه، قد حكم الله العظيم، الذي لا يغالب ولا يمانع، ولا يخالف أقداره، أن هذا المولود، الذي تحترز منه، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى، لا يكون مرباه إلا في دارك، وعلى فراشك، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك، وأنت الذي تتبناه، وتربيه وترعاه، ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه، لمخالفتك ما جاء من الحق. لتعلم أنت وسائر الخلق، أن رب السموات والأرض هو الفعال لما يريد، وأنه هو القوي الشديد. أ. هـ.

(٣) أن عناية الله إذا أحاطت أغنت عن كل عناية. فقد وضع موسى وهو طفل رضيع في صندوق وألقى في البحر، فألقاه اليم بالساحل، فأخذه عدو لموسى وعدو لله، ولكن الله ألقى عليه محبة منه، وشمله برعايته وحفظه.

(٤) أن تكذيب الرسل قد يعرض الكافرين إلى العذاب الدنيوي، حيث يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ۝

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٣٠ ـ ١٣٣).

(٥) أن طبيعة الإنسان إذا مسه الضر دعا ربه منيبا إليه، فإذا كشف الضر عنه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله، وتلك الطبيعة إذا لم تقوم بالدين جرت صاحبها إلى الوبال والخسران.

يقول الله تعالى عن قوم فرعون: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٣٥، ١٣٦).

(٦) أن الجور والظلم والتجبر والطغيان لا تمنع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ إن أعلى مقاماته كلمة حق عند سلطان جائر، فقد قال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ (غافر: ٢٨، ٢٩).

(٧) أن الإيمان المقبول هو ما كان في وقت السعة والاختيار، أما الإيمان عند النزع الأخير فلا فائدة منه. فإن فرعون لما ﴿أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فكان الرد عليه: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾(يونس: ٩٠، ٩١).

(٨) أن التشدد والتعنت عاقبتهما وخيمة. فمن شدد شدد عليه، وهكذا كان بنو إسرائيل متعنتين متشددين فشدد الله عليهم. وقصة البقرة نموذج واضح للتشدد والتشديد.

(٩) أن أهل الكتاب إن بلغوا في تعنتهم مع الرسول ﷺ أن سألوه أن ينزل عليهم كتابا من السماء، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ (النساء: ١٥٣).

(١٠) وأن العالم مهما أوتي من العلم ينبغي أن لا يغتر، وأن لا يظن أنه أعلم أهل الأرض، ففوق كل ذي علم عليم، وفي قصة العبد الصالح (الخضر) مع موسى أن عبدا من عباد الله آتاه رحمة وعلّمه من لدنه علما لم يعلمه لموسى الكليم.

(١١) أن ما يراه الإنسان شرا قد يكون فيه خير كثير، ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة: ٢١٦). وآية ذلك خرق السفينة، وقتل الغلام.

أهداف من قصص أخرى صغيرة:

(١) يؤخذ من قصة قارون أن البطر وطغيان الغنى مهلكان لصاحبهما.

(٢) ومن قصة أيوب أن الصبر على البلاء يعوض المصاب في الدنيا والآخرة.

(٣) ومن قصة سليمان أن الإنسان مهما أوتى من الملك فلن يبلغ ملك سليمان وعلمه، ومع ذلك فقد قال له «هدهد»: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (االنمل: ٢٢).

(٤) ومن قصة لقمان الآداب والتخلقات الحسنة وبر الوالدين وطاعتهما في غير الإشراك بالله، وأن الحكمة والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده.

(٥) ومن قصة أصحاب الجنة أن الصدقة سبيل الزيادة والبركة، وأن حرمان المساكين من حقهم المعلوم يمحق المال ويهلكه، ويحرم صاحبه من كل خير. فالله سبحانه وتعالى هو الذي أعطاه، وهو الذي أمر بالإنفاق، وهو القادر على أن يغنى الفقير، ويفقر الغني. كما يؤخذ منها أن التوبة والندم والرجوع إلى الله والاستغفار تزيد النعمة وتحفظها.

(٦) ومن قصة أصحاب الأخدود أن الصبر على أذى الكافرين بلغ بالمؤمنين أن ألقوا في النار متمسكين بدينهم، ولم يزعزع الأخدود من عقيدتهم.

(٧) ومن قصة أصحاب الفيل أن الله قادر على إهلاك الجبار العنيد، والقوي الصنديد بأضعف مخلوقاته. نسأل الله العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة. آمين يا رب العالمين.

ترجمة القرآن

مقدمة: حركات الترجمة:

لا شك في أن صيانة القرآن الكريم من التحريف والتبديل واجب كل مسلم، وهذا الأمر أشد وجوبا على علماء المسلمين وأئمتهم. ولا شك في أن تبليغ دعوة الله إلى الناس كافة واجب كل مسلم، وهو أشد وجوبا أيضا على علماء المسلمين وأئمتهم. وأمام هذين الأمرين الواجبين أشد الوجوب، وأمام اللغات الكثيرة التي يتكلم بها البشر، كانت الدعوة إلى ترجمة القرآن ترتفع على ألسنة الحريصين على الأمر الثاني، فتتحرك لها أقلام الحريصين على الأمر الأول، فتخبو وتسكن، ثم تعاود الظهور، فتنبري لها ألسنة المهاجمين، فلا تجد مناصا من الانكماش والاستتار.

وجمهور دعاة الترجمة من المتحررين والساسة، وجمهور معارضيها من كبار رجال الأزهر وعلماء المسلمين. وأشد المعارك بين الفريقين وأقواها، تلك التي حدثت في الأزهر عام ١٩٣٦م، حين أراد الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي شيخ الأزهر ترجمةمعاني القرآن. وأحدثها وأقربها بنا عهدا تلك التي حدثت صيف عام ١٩٥٥م حين عزم المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة على ترجمة معاني القرآن الكريم. وسنعرض هنا للمناقشات العلمية مستهدفين الحق الذي تستريح إليه النفس وبالله التوفيق.

دواعي الترجمة:

القرآن الكريم واجب التبليغ إلى جميع المسلمين في بقاع الأرض، فهو حجة الله على خلقه، وهو دستور الدين الإسلامي، وبه الوعد والوعيد. قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق: ٤٥). ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠).

ولو أن المسلمين على اختلاف ألسنتهم استطاعوا أن يقرءوا القرآن بلغته العربية، ويفهموا منه الأحكام والحكم، لما كانت الترجمة مثار بحث، لكن الكثيرين منهم لا يستطيعون إلا قراءة الفاتحة في الصلاة، بل بعضهم لا يكاد يحسن قراءتها، ثم إن القرآن بعد ذلك محجوب عنهم.

ونشر اللغة العربية في البلاد التي لا تنطق بها ضعيف. يتضاءل يوما بعد يوم، كما يشهد بذلك الواقع المحسوس. فمدارس اللغة العربية في إندونيسيا مثلا، تغلق واحدة إثر واحدة، وفي بعض البلاد يتخفى معلمو ومتعلمو اللغة العربية عن أعين ولاة الأمور، خوفا من التضييق والتعذيب. وهذا الوضع قد هيأ للمبشرين أن يستغلوا الجهالة بالدين الإسلامي في تلك البلاد، ويصرفوا أهلها عنه، كما هيأ للمبشرين أيضا أن ينشروا في هذه البلاد تراجم للقرآن الكريم (قام بها مترجمون غير موثوق بأمانتهم) مليئة بالخروج والتحريف لها أثر كبير في إفساد العقائد، والتشكيك في دين الإسلام. يقع كل هذا على مرأى ومسمع من علماء المسلمين وأئمة الدين، ولا علاج لهذه الحالة إلا بنشر ترجمات دقيقة صحيحة تشرف عليها جهة من جهات الاختصاص، ويقوم بها العلماء الحاذقون الموثوق بدينهم وعلمهم.

الترجمة الحرفية والمعنوية والفرق بينهما:

الترجمة في اللغة تطلق على معنيين:

أولهما: نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى بدون بيان، أي وضع لفظ من لغة مكان لفظ آخر من لغة آخرى، مع مراعاة الموافقة في النظم والترتيب. فليس فيه تصرف في المعنى، وإنما التصرف في اللفظ فقط مع استيفاء المعنى ومحاكاته في كل شيء، تماما كوضع لفظ مرادف من لغة واحدة. وهذه هي الترجمة الحرفية.

ثانيهما: تفسير الكلام بلغة أخرى، أي بيان معناه بلسان آخر بدون مراعاة نظم الأصل وترتيبه، ويكون مرتبطا بالأصل، لأنه تفسير له. ولا يراعى فيه الاستيفاء ولا المحاكاة. وهو كما يكون بلغة الأصل، ويسمى شرحا وتفسيرا، يكون بغير لغة الأصل ويسمى ترجمة معنوية.

فالفرق بين الترجمة الحرفية والترجمة المعنوية من وجوه:

(١) أن الترجمة الحرفية صيغتها استقلالية، يراعى فيها الاستغناء عن الأصل وحلولها محله، بخلاف المعنوية فإنها قائمة على الارتباط بالأصل، لأنها تفسير له.

(٢) أن الترجمة الحرفية لا يجوز فيها الاستطراد، لأن المفروض فيها أنها صورة مطابقة لأصلها، بخلاف المعنوية، فإن المفروض فيها أنها بيان للأصل وتوضيح له.

(٣) أن الترجمة الحرفية تكون وافية بجميع معاني الأصل ومقاصده، بخلاف الترجمة المعنوية.

(٤) أن الترجمة الحرفية لابد فيها من مراعاة نظم الأصل وترتيبه في إفادة المعنى بخلاف المعنوية. فمثلا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ (الإسراء: ٢٩). ترجمته الحرفية أن تأتي بكلام من لغة غير عربية يدل على النهي عن شد اليد إلى العنق وعن مدها غاية المد، مع رعاية ترتيب الأصل وتنظيمه، بأن تأتي بأداة النهي أولا، يليها الفعل المنهي عنه متصلا بمفعوله ومضمرا فيه فاعله . . . إلخ، فيخرج الكلام في أسلوب غير معروف لا يؤدي ما يقصده الأصل عن النهي عن التقتير وعن التبذير. أما الترجمة المعنوية، فيعمد المترجم إلى المعنى المراد مع عدم التقيد برعاية النظم والترتيب.

الشروط التي تتوقف عليها الترجمة الصحيحة:

لابد من تحقيق أمور ثلاثة للحصول على ترجمة صحيحة، هي:

أولا: معرفة المترجم لأوضاع اللغتين (لغة الأصل ولغة الترجمة).

ثانيا: معرفته لأسرار اللغتين وأساليبهما وخصائصهما.

ثالثا: وفاء الترجمة بمعاني الأصل ومقاصده على وجه مطمئن.

كما تتوقف الترجمة الحرفية على أمرين آخرين، هما:

(١) وجود مفردات في لغة الترجمة مساوية للمفردات التي في الأصل .

(٢) تشابه اللغتين في الضمائر والروابط وأسرار أمكنتها .

وهذان الشرطان عسيران ، وثانيهما أعسر من الأول .

دلالة القرآن على معانيه وإمكان ترجمته:

يطلق القرآن ويراد به المعنى القائم بالنفس الذي هو صفة من صفات الله تعالى ، وعليه يدل هذا المتلو . وذلك محل نظر المتكلمين .

ويطلق ويراد به الألفاظ المسموعة ، وهو المتلو . وهذا محل نظر الأصوليين والفقهاء وسائر خدمة الألفاظ كالنحاة والبيانيين ، وهذا الإطلاق هو المراد في بحث ترجمة القرآن ، لأن الترجمة لا تكون إلا للألفاظ ودلالتها على معانيها .

وللقرآن الكريم ـ بل لكل كلام بليغ ـ دلالتان على معانيه .

الأولى: دلالته على المعاني الأوليه والأصلية ، وهي التي يدل عليها الكلام من غير مراعاة مقتضى الحال كمجرد إثبات فعل لفاعل ، وسميت هذه المعاني أولية ، لأنها أول ما يفهم من اللفظ ، وأصلية لثبوتها وعدم اختلافها باختلاف المتكلمين والمخاطبين .

الثانية: دلالته على المعاني الثانوية والمعاني التابعة ، وهي ما قصد منها المطابقة لمقتضى الحال . فمثلا ، إذا أردنا الإخبار عن نجاح بكر لم ينكر نجاحه ، وقلنا نجح بكر ، فقد حصلت الدلالة الأصلية ، وهي مجرد إثبات النجاح لبكر دون الدلالة الثانوية التي هي مطابقته لمقتضى الحال ، وكان الكلام غير بليغ .

أما إذا قلنا : إن بكرا ناجح ، فقد تحققت الدلالة الأصلية والدلالة الثانوية . وما أكثر دلالة القرآن على المعاني الثانوية التي يمتاز بها عن أي كلام بليغ ، كالذكر والحذف والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير وغير ذلك .

وقد اتفق العلماء على أن الأحكام تستفاد من جهة المعاني الأصلية ، واختلفوا في استفادتها من جهة المعاني الثانوية .

ففريق منهم ذهب إلى أن الأحكام تستفاد من جهة المعاني التابعة ، كما تستفاد

من جهة المعاني الأصلية، فإن تقديم المفعول على الفعل مثلا، قد يرد للتخصيص والحصر، مثل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥)، فإنه يشتمل على الإثبات والنفي، إذ إن معناه نعبدك ولا نعبد غيرك، ونستعينك ولا نستعين غيرك، والإثبات منطوق والنفي مفهوم.

وفي موضوع الحذف مثلا قد يتوقف على المحذوف صحة المنطوق، كقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ (يوسف: ٨٢). إلى غير ذلك.

وفريق ذهب إلى أن الأحكام الشرعية لا تستفاد إلا من جهة المعاني الأصلية، ولكن المعاني الثانوية إنما تدل على معان زائدة على المعنى الأصلي، كالآداب الشرعية والتخلقات الحسنة التي يقر بها كل ذي عقل سليم، فهي وإن لم تفد حكما شرعيا ليست خالية من الدلالة جملة.

وإذا ثبت هذا فلا يمكن لمن اعتبر الدلالة التابعة أن يترجم ترجمة حرفية كلاما من العربية إلى لغة أخرى على أي حال، فضلا عن أن يترجم القرآن وينقله إلى لسان غير عربي، لأن هذه الدلالة يختص بها لسان العرب، ويختلف معنى الكلام الواحد بحسبها، ويستحيل اجتماع الخواص العربية البلاغية في لغة أخرى، وربما أمكن ذلك في آية أوآيتين، عندما يكون المعنى واحدا ومحكما وواضحا، ولكن لا يمكن ذلك مع مراعاة لطائف ودقائق السياق والسباق.

تحرير موطن النزاع:

بعد أن بينا الفرق بين الترجمة الحرفية والترجمة المعنوية التفسيرية، وبعد أن بينا الفرق بين الدلالات الأصلية والدلالات الثانوية، وتوقف استفادة الأحكام عليهما أو على واحدة منهما، يمكن تحرير موطن النزاع على الوجه الآتي:

أولا: الترجمة المعنوية، بمعنى تفسير القرآن بلغة غير عربية جائزة باحتياطات سنبينها في آخر المبحث، لأن هذه الترجمة تجري في حكمها مجرى التفسير باللغة العربية. وإذا كان تفسير القرآن بيانا لمراد الله بقدر الطاقة البشرية، فهذا البيان يستوي فيه ما كان بلغة العرب، وما ليس بلغة العرب. غير أنه

في تسمية هذه الترجمة بترجمة القرآن نظر، إذ هي ترجمة لتفسير القرآن وليست ترجمة للقرآن.

ثانيا: الترجمة الحرفية عند من يرى استفادة الأحكام من المعاني التابعة مستحيلة وممنوعة قولا لا نقاش فيه.

ثالثا: الترجمة الحرفية عند من يرى أن الأحكام إنما تستفاد من جهة المعاني الأصلية فقط، هي موطن النزاع، والتي سنسوق لها أدلة الفريقين.

أدلة دعاة الترجمة والرد عليها:

استدل دعاة الترجمة على جوازها بما يأتي:

أولا: يقول فخر الدين قاضيخان الحنفي: «إذا قرأ القرآن في الصلاة بالفارسية عند أبي حنيفة رحمه الله يجوز، وإن كان يحسن العربية، وعندهما إذا كان يحسن العربية. لا يجوز وتفسد صلاته».

وبما جاء في شرح الزيلعي على الكنز ونصه «وأما القراءة بالفارسية فجائزة في قول أبي حنيفة، وقال أبو يوسف ومحمد، لا تجوز إذا كان يحسن العربية. وقد جاء قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ (الأعلى: ١٨، ١٩). وصحف إبراهيم كانت بالسريانية، وصحف موسى كانت بالعبرانية.

ثم قال: ويجوز بأي لسان كان سوى الفارسية، وهو الصحيح، لأن المنزل (وهو المعنى عنده) لا يختلف باختلاف اللغات.

وقد رد المانعون على ذلك بأن الإمام أبا حنيفة قد رجع عن رأيه المذكور، وقال: متى كان قادرا على العربية ففرضه قراءة النظم العربي، ولو قرأ بغيرها فسدت صلاته، لخلوها من القراءة مع قدرته عليها، والإتيان بما هو من جنس كلام الناس، حيث لم يكن المقروء قرآناً.

ورواية رجوع الإمام هذه تعزى إلى أقطاب المذهب الحنفي، ومنهم أبو بكر الرازي، شيخ علماء الحنفية في القرن الرابع.

وعلى ذلك، فلا يكون في مذهب الحنفية قول بجواز القراءة بغير العربية في الصلاة للقادر عليها، أما العاجز عن النظم العربي عندهم، فإنه يجوز له أن يسكت كالأمي، لأن قدرته على غير العربية كلا قدرة، فكان أميا حكما، فلا يقرأ شيئا. ويجوز له أن يقرأ إذا لم يخل بالمعنى لأن الذكر بأي لسان لا يفسد الصلاة، لا لأن القراءة بترجمة القرآن جائزة.

على أن هذا خاص بالقدر الواجب في الصلاة، وموضوع البحث ترجمة القرآن عامة، أوامره ونواهيه وقصصه، وقراءته خارج الصلاة، وفي ذلك يقول صاحب شرح المجموع عند الاستدلال على رأي أبي حنيفة: فدل ذلك على أن القرآن هو المعنى، والفارسية تشتمل على معناه فيكون جائزا في حق الصلاة خاصة، لأن المناجاة حالة دهشة، وأما غيرها فالنظم لازم حتى جاز للجنب قراءته بالفارسية. أ. هـ.

ويقول في شرح الزيلعي: إلا أنه لم يجعل النظم ركنا لازما في حق جواز الصلاة خاصة، رخصة، لأنها ليست بحالة الإعجاز. أ. هـ.

وفي النفحة القدسية قال المحبوبي: والخلاف فيمن لا يتهم بشيء وقد قرأ في الصلاة كلمة بالفارسية أو أكثر فيها. أما لو اعتاد القرآن أو كتب المصحف بالفارسية فيمنع أشد المنع، حتى قال الفضلي: من تعمد ذلك يكون زنديقا أو مجنونا فالمجنون يداوى والزنديق يقتل. أ. هـ.

ثانيا: استدلوا بما في النهاية والدراية من أن أهل فارس، كتبوا إلى سلمان الفارسي، أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية، فكتب لهم «بسم الله الرحمن الرحيم» (بنام يزدان بحشنا يند). وبعد ما كتب عرضه على النبي ﷺ، فكانوا يقرءون ما كتب في الصلاة، حتى لانت ألسنتهم.

وقد رد المانعون على هذا الأثر من وجوه:

(١) أن هذا مجهول الأصل، لا يعرف له سند، فلا يصح الاستدلال أو العمل به.

(٢) هذا الخبر وقع فيه اختلاف كبير بالزيادة والنقص والتغيير والتبديل، فقد نقله النووي في المجموع بلفظ: إن قوما من أهل فارس، طلبوا من سلمان أن يكتب لهم شيئا من القرآن، وذلك يوجب اضطراب الخبر ورده.

(٣) هذا الخبر على فرض صحته، يفيد أنه لم يجبهم إلى طلبهم، فلم يكتب لهم الفاتحة بالفارسية، وإنما كتب لهم ترجمة البسملة فقط، ولو كانت ترجمة الفاتحة ممكنة وجائزة، لكتبها لهم وجوبا، وإلا كان كاتما للعلم.

(٤) والمحقق في ترجمة البسملة التي كتبها سلمان، يجدها غير كاملة إذ لم يؤت فيها بلفظ مقابل للفظ «الرحمن».

(٥) على أن هذا الخبر لو صح لكان خاصّا بالقدرالواجب في الصلاة والعذر، وكلامنا في ترجمة القرآن عامة ترجمة تقرأ في الصلاة وفي غير الصلاة بعذر أو بغير عذر.

ثالثا: استدلوا بما جاء في تفسير الزمخشري، عند قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ (إبراهيم: ٤). ونصه.

فإن قلت لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم، وإنما بعث إلى الناس جميعا، بل إلى الثقلين، وهم ألسنة مختلفة، فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة، وإن لم تكن لغيرهم حجة، فلو نزل بالأعجمية لم يكن للعرب حجة أيضا؟ قلت لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها. ولا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك، فبقى أن ينزل بلسان واحد، فكان أولى الألسنة أن ينزل بلسان قوم الرسول، لأنهم أقرب إليه، فإذا فهموا عنه، وتبينوه، وتنوقل عنهم وانتشر قامت التراجم ببيانه، وتفهيمه، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة، والأمم المختلفة، والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل، وأسلم من التنازع والاختلاف. أ. هـ.

ومناط استدلالهم عبارة الزمخشري: «لا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك»، فهي تفيد جواز الترجمة.

ورد المانعون على هذا الاستدلال، بأنه اقتصر على جزء من العبارة، وترك الباقي وذلك أن بقية عباراته توضح أنه يعني ترجمة تفسيره، إذ يقول في الجزء الأول ص ٤١٢ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم: ٤)، أي ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه، فلا يكون لهم حجة على الله، ولا يقولوا: لم

نفهم ما خوطبنا به كما قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾(فصلت: ٤٤).

فهذا النص يفيد أن رفع الحجة على الله مداره فهم وتفقه ما يدعو إليه القرآن، وهو حاصل بترجمة المعنى والتفسير لغير العربي. كما أن قوله: «فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر قامت التراجم ببيانه وتفهيمه» صريح في أن قصده ترجمة ما يفهم من القرآن لا ترجمة نفس القرآن ترجمة حرفية. يؤكد هذا قوله: «مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد... على كتاب واحد، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل، وأسلم من التنازع والاختلاف». فالترجمات الحرفية للقرآن تعدده وتعرضه للتحريف والتبديل، وتفتح مجالا واسعا للتنازع والاختلاف، أما الترجمة التفسيرية مع بقاء الكتاب واحدا فهي التي تصون القرآن من هذه الأخطار، مع تحقيق الأهداف.

رابعا: استدلوا بأن القرآن أنزل لهداية الخلق جميعا، ثم إن تأثيره فيهم، وسلطانه عليهم لا يمكن أن يقاس بهما تأثير كتب وسلطان رسائل من وضع البشر. قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر: ٢١). وقد أشار الله جل شأنه إلى اتخاذ القرآن نفسه أداة لنشر الدعوة فقال: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق: ٤٥). ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ (الأنعام: ١٩). أي وأنذر به كل ما يمكن أن يبلغه أمره، ولا سبيل إلى ذلك سوى ترجمته، ورد المانعون بأن تبليغ القرآن للناس الذين لا يعرفون العربية، يكفي فيه تفسيره لهم بلغتهم، فيحصل لهم بهذا التفسير الإنذار والهداية بالقرآن، مع المحافظة على قدسيته وجلاله.

خامسا: يرى دعاة الترجمة أن وجود ترجمة صحيحة، يشرف عليها علماء العربية المسلمون، أمر ضروري لإنقاذ عقائد غير العرب من المسلمين، ولمحاربة الترجمات الفاسدة المحرفة التي وضعها المبشرون، والتي يقرؤها المسلمون من غير العرب وهم لا يعرفون فسادها ويعتقدون أن ما يقرءون هو القرآن الصحيح.

وقد أجاب عن هذه الشبهة المرحوم الشيخ عيسى منون بأن هذا القول غير

وجيه، فإن إرشاد عوام المسلمين إلى ما ذكر، إنما يكون بوساطة مرشدين من أهل العلم، الذين يعرفون علوم الإسلام سواء كان العوام المسلمون من العرب أم من غيرهم. أما مجرد تلاوة القرآن ولو بنصه العربي، فإنه لا يكفي لإرشاد العوام العرب، لعلوه عن مستواهم، فغير العرب من باب أولى.

أدلة مانعي الترجمة ومناقشتها:

بعد أن رد مانعو الترجمة أدلة دعاتها استدلوا على منعها بما يأتي:

أولا: قابلوا النصوص التي استند إليها دعاة الترجمة بنصوص الأئمة الأجلاء في منع الترجمة فقالوا:

(١) قال الزركشي في البحر المحيط في علم الأصول: لا تجوز ترجمة القرآن بالفارسية وغيرها: بل يجب قراءته على هيئته التي يتعلق بها الإعجاز، لتقصير الترجمة عنه، ولتقصير غيره من الألسن عن البيان الذي خص به دون سائر الألسنة. قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٥). وإذا لم تجز قراءته بالتفسير العربي المتحدى بنظمه، فأحرى ألا تجوز بالترجمة بلسان غيره. أ. هـ.

(٢) قال النووي في كتاب المجموع: مذهبنا أنه لا تجوز قراءة القرآن بغير لسان العرب، سواء أمكنه ذلك بالعربية أو عجز عنها، وسواء كان في الصلاة أو غيرها، فإن أتى بترجمته في صلاته بدلا عن القراءة لم تصح صلاته. سواء أحسن العربيةج أم لم يحسن. أ. هـ.

(٣) قال شيخ الإسلام أبو الحسن الحنفي في التجنيس: ويمنع من كتابة القرآن بالفارسية بالإجماع، لأنه يؤدي إلى الإخلال بحفظ القرآن، لأننا أمرنا بحفظ اللفظ والمعنى، فإنه دلالة على النبوة، ولأنه يؤدي إلى التهاون بأمر القرآن. أ. هـ.

(٤) جاء في حاشية الدسوقي على شرح الدردير للمالكية جـ ١ ص ٣٣٢ «لا تجوز قراءة القرآن بغير العربية، فإن عجز عن النطق بالفاتحة، وجب عليه أن يأتم بمن

يحسنها، فإن أمكنه الائتمام، ولم يأتم، بطلت صلاته، وإن لم يجد إماما سقطت عنه الفاتحة، وذكر الله تعالى وسبحه بالعربية. أ. هـ.

(٥) قال ابن حزم الحنبلي في كتابه المحلى جـ٣ ص ٢٥٤: «من قرأ أم القرآن أو شيئا منها أو شيئا من القرآن في صلاته مترجما بغير العربية أو بألفاظ عربية غير الألفاظ التي أنزل الله تعالى، عامدا لذلك، أو قدم كلمة أو أخرها، عامدا لذلك بطلت صلاته، وهو فاسق، لأن الله تعالى قال: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (يوسف: ٢... إلخ). وغير العربي ليس عربيا، فليس قرآنا، وإحالة عربية القرآن تحريف لكلام الله، وقد ذم الله تعالى من فعلوا ذلك، فقال: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ (النساء: ٤٦، المائدة: ١٣).

ثانيا: ترادفت نصوص القرآن على أنه عربي، كقوله تعالى ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (النحل: ١٠٣)، ﴿أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (يوسف: ٢، طه: ١١٣)، ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ (الزمر: ٢٨)، ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت: ٣)... إلخ. وإن الله لم يجعله أعجميا، لئلا يقول المعاندون: ﴿لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾(فصلت: ٤٤). أي ورسول عربي؟ ثم دافع الله عن كتابه العربي بقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ (فصلت: ٤٤).

فهذه النصوص ونحوها تؤكد عربية القرآن، وليس بإزائها نص قرآني يشير إلى الترجمة أو يؤذن بها، بل في النصوص ما يشير إشارة واضحة إلى أن الانحراف عن عربيته افتراء على الله. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٧٨).

وكان في مقدور الله أن يجعله أعجميا، أو أن يصرح بما يفيد نقله إلى الأعجمية، ولكن الله لم يفعل، لأن حكمته في ذلك، والمفسدة في حصول غير ذلك، كما هو فحوى الآيات.

ثالثا: قام النبي ﷺ بالدعوة إلى الروم والفرس، وإلى أهل مصر، وغير

هؤلاء، ولم يثبت أنه ترجم لهم آية واحدة في كتبه التي بعث بها إليهم، بل كان يكتب الآيات بلغته العربية مع وجود المترجمين الذين يستطيعون أن يترجموا له ما يحب لو أذن، وما كان هذا عن تقصير منه، ولا عن زهادة في نشر الدعوة بوسائلها المشروعة كافة إلى سائر الأقطار في الآفاق، ولا شك أن في عمل النبي بيانا لنا وتشريعا، وأن سكوته عن ذلك بيان وتشريع، وما سمعنا أن أحدا من الصحابة أذن بعد ذلك في ترجمة القرآن، بل حافظوا على عربية القرآن حتى في رسمه الذي تأباه قواعد الإملاء، مخافة أن يؤدي التغيير في الرسم إلى التغيير في اللفظ المسموع بطريق التلقي عن النبي ﷺ، ثم لم يكن التوقف عن الترجمة في عهد النبي وأصحابه مانعا من إشراق الإسلام في الدنيا وبلوغ دعوته. ودخول الناس في دين الله أفواجا.

رابعا: عاش المسلمون أزمانا متطاولة، ولهم في الأرض سلطان وعلم وحضارة، ورايتهم تخفق على بقاع شاسعة لم يكن لسان أهلها عربيا، فما فكر أحد في ترجمة القرآن، ولقد كان لعلماء الفرس والترك مجهودات علمية ضخمة في بناء العلوم الإسلامية على اختلاف فروعها، فما جاوزوا هذا القدر من خدمة القرآن والإسلام إلى العمل على ترجمة القرآن. فهل هؤلاء جميعا كانوا من الغباء والجهالة وفقدان الغيرة على نشر القرآن بحيث تركوا السعي إلى ترجمته؟ أو أن صدودهم عن الترجمة مع توافر الدواعي إليها كان لاعتقادهم وفهمهم أن ترجمة القرآن ونقله إلى غير لغته عمل لا يجيزه الشرع؟

خامسا: علمنا أن الإعجاز خاصة لازمة لذات القرآن الكريم، وغير خاف أن الإعجاز إنما يتعلق بالنظم العربي، وحيث كان كذلك فلا يمكن أن يترجم.

ويجيب عن ذلك دعاة الترجمة بأن عدم إمكان نقل دليل الإعجاز في النظم العربي لا يغيره، فالترجمة لا تحدث ضعفا في الدليل، ولا تذهب من النص العربي علومه وأسراره وإعجازه، ولكنها باقية معه للأمم العربية، ولمن يريد من الأمم الأعجمية أن يقرأ النص العربي، وإن قراءة الأعاجم للفظ العربي نفسه لا يدلهم على الإعجاز، وقد انقضى عصر الذين أدركوا الإعجاز عن طريق الذوق، وآمنوا بالقرآن بسبب هذا الإدراك.

سادسا: بعض كلمات القرآن لا مقابل لها يساويها في اللغات الأخرى كالرحمن. وفيه ألفاظ تطلق على الشيء وضده كلفظ القرء الذي يدل على الطهر والحيض، وفيه ألفاظ يصعب تحديد معناها في اللغة العربية نفسها، كلفظ الدهر والحين، وفيه جمل يختلف معناها باختلاف وجوه الإعراب، ونقل هذا بجملته أمر مستحيل، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨).

يجيب عن ذلك دعاة الترجمة بأن جميع المحظورات التي تخشى من الترجمة، فيما أشير إليه موجودة في التفسير باللفظ العربي نفسه، وقد أجمعت الأمة على عدم التحاشي عن هذه المحظورات، فيجب ألا يتحاشى عنها في الترجمة أيضا.

سابعا: أن في القرآن تعبيرات مجازية، لو ترجمت ترجمة حرفية ربما كانت مثار سخرية القارئ الأعجمي، مع أنها من لسان العرب في أسمي مراتب البلاغة والبيان. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ (الإسراء: ١٣). وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ (الأعراف: ٤٠) فترجمتها سوف تكون أشبه بالمسخ والتشويه.

ويجيب عن ذلك دعاة الترجمة بأنه يمكن ترجمة مثل ذلك ترجمة معنوية تقوم على أساس المسئولية الشخصية في الآية الأولى والاستحالة في الآية الثانية.

ثامنا: الترجمة التقريبية لا يمكن أخذ الأحكام منها لأن المترجم لها إن كان غير خبير باللغة العربية أو باللغة الأخرى التي يراد الترجمة إليها، أو غير خبير بالأصول الإسلامية القطعية أو غير خبير بسنة النبي ﷺ، الذي عهد إليه ببيان ما نزل إلى الناس من الذكر الحكيم، أو كان من الطوائف المبتدعة الخارجة عن الإسلام، وترجم القرآن على مقتضى نحلته وهواه، فهناك تكون الطامة الكبرى والداهية العظمى. وإن كان المترجم خبيرا بكل ذلك، وليس من أهل الأهواء والبدع، فإنه مع تعذر وجوده لا يمكن أن تكون ترجمته وافية بمعظم مقاصد القرآن، ولا تكون حجة، ولا يعتمد عليها في أخذ الحكم الشرعي، لا للمترجم ولا لغيره. أما غير المترجم فظاهر، لأنه يلزمه التقليد للمترجم، وأما المترجم فيجب عليه الرجوع إلى النص العربي، لأنه هو الحجة في حقه، دون الترجمة، وبهذا تخلو الترجمة من الفائدة الأساسية للمترجم.

ويجيب عن ذلك دعاة الترجمة بأنه قد علم أن الأحكام تستفاد من الدلالة الأصلية، فكيف يمنع استخراج الأحكام منها؟ وكيف يدعى أن الذين يعتمدون على التراجم لا يسلم لهم شيء من أصول الإسلام؟ ومن الذي قال: إن التقليد في فهم النص العربي مجتهدون حرموا الاجتهاد بالترجمة، بل ليس في الأمة العربية التي لازمت النص العربي مجتهدون، وقد حرمت الأمم العربية نفسها من نعم الاجتهاد، ورضيت بالتقليد، ولم يكفها هذا الرضا حتى أقفلت باب الاجتهاد وحرمته.

تاسعا: أن للنظام العربي من الروعة والطلاوة واللذة والتأثير في النفوس ما لا يمكن أن يوجد في التراجم. فالاعتماد على التراجم يحرم من يقرؤها من ذلك كله.

ويجيب عن ذلك دعاة الترجمة، بأنه لا يمكن الادعاء بأن النظم العربي يؤثر، وتكون له لذة وطلاوة عند جاوي أو فارسي أو تركي لا يفهم العربية، فالأمم الإسلامية التي لا تفقه العربية ليست الآن واقعة تحت تأثير طلاوة النظم العربي، حت تكون قراءة التراجم مانعة عنهم هذه الطلاوة وهذا التأثير.

عاشرا: الترجمة تؤدي إلى إهمال القرآن باللغة العربية، ومنعها يحمل المسلمين غير العرب على تذليل الصعاب في سبيل تعلم اللغة العربية، حتى ينعموا ببركات هذا الكتاب، ويتمكنوا من التعبد بتلاوته.

ويجيب عن ذلك دعاة الترجمة بقولهم: نعم تعريب الأمم غير العربية أمل حلو، ولكن إلى أن يتحقق هذا الأمل، ماذا تفعل الأمم الأعجمية؟ وهل الأفضل لها أن تبقى كما هي قانعة بقراءة الفاتحة في الصلاة؟ ثم هي بعد ذلك لا تستطيع النظر في ألفاظ القرآن العربية، ولا النظر في معانيه؟ أو الأفضل أن تنقل إليها معاني القرآن، لنستطيع النظر والفهم والتدبر؟

الحادي عشر: أن الترجمة قد تتعدد بتعدد اللغات فيقع فيها اختلاف يكون في نظر العامة اختلافا في القرآن، لا في التراجم، فيكون القرآن الكريم في معرض القبول والرد والتصحيح والإبطال والعياذ بالله.

كما أن التعدد قد يكون مثار اختلاف المسلمين في أصل دينهم، لأنه يكون لكل طائفة منهم قرآن بلغتهم يعتزون به، وقد يبتكرون غيره.

ويجيب عن ذلك دعاة الترجمة، بأن تغيير التراجم واختلافها لا يمكن أن ينسحب على القرآن، وهو النظام العربي المعروف المحفوظ بوعد الله سبحانه، فهو النص الرسمي الذي يجب الرجوع إليه دائما، عند الاختلاف، وهو الحاكم على كل ترجمة توجد وهو الميزان العدل لكل شيء يقال.

الثاني عشر: أن فتح باب الترجمة للقرآن الكريم من جهة يراه المسلمون قدوة يشجع الملحدين وغيرهم على ترجمته ترجمة مشوهة وتختلط الترجمتان، فتكون ترجمته سببا للإضلال لا للهداية. أما إذا قفل باب الترجمة كما قفله أسلافنا الأقدمون، وعرف عموم المسلمين أن القرآن لفظ عربي، معجز للبشر، متعبد بتلاوته، كما أنزله الله، لا تجوز ترجمته، فإن هذه التراجم لا يلتفت إليها المسلمون، فتندثر، ولا يكون لها اعتبار، إلا عند صانعها.

الثالث عشر: أن في الترجمة تلبيسا على المسلمين بأنها القرآن الكريم، وهي ليست كذلك بالاتفاق، ووجه التلبيس أن العرف العام يقتضي أن ترجمة أي كتاب ونفس الكتاب شيء واحد. فإن كتاب «كليلة ودمنة» بالنص العربي في نظر الناس هو «كليلة ودمنة» بالنص الأصلي الهندي، ولا يجدي نفعا ما يتخذ من الاحتياط في ترجمة القرآن بالتنبيه على أنها غير القرآن. فإن تطاول الزمن وتعدد طبع الترجمة، فإن ما يفهمه أهل العرف يكفي كله أو بعضه في حسبان الترجمة والأصل واحدا من غير فرق.

الخلاصة والنتيجة

بعد هذه الجولة السريعة في ذلك الميدان الفسيح، تبين لنا أهمية بحث الترجمة وخطره من نواح ثلاث:

(١) دقته وغموضه إلى حد جعل علماءنا يختلفون فيه قديما وحديثا.

(٢) إن كثيراً من الناس قاموا ـ في زعمهم ـ بنقل القرآن إلى لغات كثيرة وترجمات متعددة.

(٣) وقوع أغلاط فاحشة في هذه الترجمات أساءت إلى عقيدة قرائها، وزلزلت الوحدة الدينية واللغوية للأمة الإسلامية.

وإزاء هذه الوقائع القائمة والمحاولات الخطيرة يجب علينا أن نكون على بصيرة من هذا الأمر، وعلى قدر كاف من العلم في هذا البحث حتى ننصف الحق ونؤدي رسالتنا في نشر هداية الإسلام والقرآن على الوجه الأكمل.

وتبين لنا أن النزاع بالنسبة لقراءة الترجمة في الصلاة نزاع حقيقي محمول على الترجمة الحرفية، فحسب، إذ ليس هناك من يقول بجواز القراءة في الصلاة بالترجمة التفسيرية.

أما النزاع بالنسبة لترجمة القرآن على وجه العموم، فيمكن عَدُّه نزاعا لفظيا، لأن حجة المانعين إنما تناسب الترجمة الحرفية، وحجة المجوزين إنما تناسب الترجمة التفسيرية، ومنشأ هذه الاشتباه، إنما هو من إطلاق لفظ الترجمة على كل منهما.

والذي تستريح إليه النفس أنه يستحيل ترجمة القرآن إلى لغة أخرى ترجمة حقيقية، بحيث تساوي الأصل في إفادة جميع ما قصد منه، من غير زيادة ولا نقصان، وفي الاعتماد والاحتجاج بكل منهما.

وأما الترجمة التقريبية، وهي التي تكون بحسب ما يفهمه المترجم من نصه العربي، فإن كان المترجم لها غير خبير باللغة العربية، أو باللغة الأخرى التي يراد الترجمة إليها، أو غير خبير بالأصول الإسلامية القطعية أو غير خبير بسنة النبي ﷺ الذي عهد إليه ببيان ما أنزله عليه من الذكر الحكيم، أو كان من الطوائف المبتدعة، فهي ممنوعة شرعا.

أما إذا أخذت الاحتياطات اللازمة للترجمة التقريبية، فإنها تفي بالغرض المقصود من الترجمة (وهو تبليغ القرآن إلى من لا يعرف العربية) ويحفظ على القرآن قدسيته وبقاءه على مر الزمان إلى أن تقوم الساعة. وحقيقة هذه الترجمة ترجمة معاني القرآن، لا ترجمة القرآن نفسه، فهي كالتفسير تماما، إلا أن التفسير يكون بلغة أخرى.

أما ترجمة القرآن كله ترجمة حرفية فهي من الصعوبة التي تقرب من الاستحالة، إذ يصعب الحصول على مرادفات من اللغات الأخرى لكل الكلمات الواردة في القرآن لها كل خصائص الكلمات القرآنية.

ويحسن بنا في هذا المقام أن نستعرض خلاصة الموضوع التي آل إليها أمر المعركة الكلامية بين كبار علماء الأزهر عام ١٩٣٦م. فقد وجه المرحوم الشيخ المراغي شيخ الأزهر إلى هيئة كبار العلماء كتابا طالبا منهم الفتوى الشرعية في الموضوع. وهذا نص كتابه:

السادة أصحاب الفضيلة. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. «وبعد».

(١) فلا شبهة في أن القرآن الكريم اسم للنظم العربي، الذي نزل على سيدنا محمد ابن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، ولا شبهة أيضا في أنه إذا عبر عن معاني القرآن الكريم بعد فهمها من النص العربي بأي لغة من اللغات، لا تسمى هذه المعاني ولا العبارات التي تؤدي هذه المعاني قرآنا.

(٢) ومما لا محل للخلاف فيه أيضا أن الترجمة اللفظية بمعنى (نقل المعاني مع خصائص النظم العربي المعجز) مستحيلة.

(٣) وقد وضع الناس تراجم للقرآن الكريم بلغات مختلفة، اشتملت على أخطاء كثيرة، واعتمد على هذه التراجم بعض المسلمين، الذين لا يعرفون اللغة العربية، وبعض العلماء من غير المسلمين ممن يريد الوقوف على معاني القرآن الكريم.

(٤) وقد دعا هذا إلى التفكير في نقل معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأخرى على الوجه الآتي:

يراد أولا: فهم معاني القرآن الكريم بواسطة رجال من خيرة علماء الأزهر الشريف بعد الرجوع لآراء المفسرين، وصوغ هذه المعاني بعبارات دقيقة محدودة، ثم نقل المعاني التي فهمها العلماء إلى اللغات الأخرى بواسطة رجال موثوق بأمانتهم واقتدارهم في تلك اللغات، بحيث يكون ما يفهم في تلك اللغات من المعاني، هو ما تؤديه العبارات العربية التي يضعها العلماء.

فهل الإقدام على هذا العمل جائز شرعا أو غير جائز؟ هذا مع العلم بأنه سيوضع تعريف يتضمن أن الترجمة ليست قرآنا، وليس لها خصائص القرآن، وليست هي ترجمة كل المعاني التي فهمها العلماء، وأنه ستوضع الترجمة وحدها بجوار النص العربي للقرآن الكريم؟

الفتوى

الحمد لله.والصلاة والسلام على رسول الله . «وبعد» فقد اطلعنا على جميع ما ذكر بالاستفتاء المدون بباطن هذا، ونفيد بأن الإقدام على الترجمة على الوجه المذكور تفصيلا في السؤال جائز شرعا، والله سبحانه وتعالى أعلم .

محمود الديناري شيخ معهد طنطا وعضو جماعة كبار العلماء .

عبد المجيد اللبان شيخ كلية أصول الدين وعضو جماعة كبار العلماء .

إبراهيم حمروش شيخ كلية اللغة العربية وعضو جماعة كبار العلماء .

محمد مأمون الشناوي شيخ كلية الشريعة وعضو جماعة كبار العلماء .

عبد المجيد سليم مفتي الديار المصرية وعضو جماعة كبار العلماء .

محمد عبد اللطيف الفحام وكيل الأزهر وعضو جماعة كبار العلماء .

دسوقي عبد الله العربي عضو جماعة كبار العلماء (ختم) .

أحمد الدلبشاني عضو جماعة كبار العلماء (ختم) .

يوسف الدجوي عضو جماعة كبار العلماء (ختم) .

محمد سبيع الذهبي شيخ الحنابلة وعضو جماعة كبار العلماء .

عبد الرحمن قراعة عضو جماعة كبار العلماء(ختم) .

أحمد نصر عضو جماعة كبار العلماء .

محمد الشافعي الظواهري عضو جماعة كبار العلماء .

حيث إن الترجمة المرادة هي ترجمة المعاني (التفسير الذي يضعه العلماء) فهي جائزة شرعا بشرط طبع التفسير المذكور بجوار الترجمة المذكورة، والله أعلم .

(كتبه بيده الفانية عبد الرحمن عليش الحنفي من جماعة كبار العلماء) .

رأي فضيلة الأستاذ الأكبر:

بسم الله الرحمن الرحيم

وجهت هذا السؤال إلى حضرات أصحاب الفضيلة جماعة كبار العلماء وإني أوافقهم على ما رأوه. ولا أرى داعيا للتحفظ الذي أبداه فضيلة الشيخ عبد الرحمن عليش وهو طبع التفسير مع الترجمة لعدم الحاجة إلى ذلك بعد مراعاة الشروط المدونة في السؤال.

رئيس جماعة كبار العلماء

محمد مصطفى المراغي

ثم أرسل شيخ الجامع الأزهر إلى رئيس مجلس الوزراء الخطاب الآتي:

اشتغل الناس قديما وحديثا بترجمة معاني القرآن الكريم، إلى اللغات المختلفة، وتولى ترجمته أفراد يجيدون لغاتهم، ولكن لا يجيدون اللغة العربية ولا يفهمون الاصطلاحات الإسلامية الفهم الذي يمكنهم من أداء معاني القرآن على وجه صحيح.

لذلك حدث في التراجم أخطاء كثيرة، وانتشرت تلك التراجم، ولم يجد الناس غيرها، فاعتمدوا عليها في فهم أغراض القرآن الكريم، وفهم قواعد الشريعة الإسلامية، فأصبح لزاما على أمة إسلامية كالأمة المصرية لها المكان الرفيع في العالم الإسلامي، أن تبادر إلى إزاحة هذه الأخطاء، وإلى إظهار معاني القرآن الكريم نقية إلى اللغات الحية لدى العالم.

ولهذا العمل أثر بعيد في نشر هداية الإسلام بين الأمم التي تدين بالإسلام، ذلك أن أساس الدعوة إلى الدين الإسلامي، إنما هو الإدلاء بالحجة الناصعة، والبرهان المستقيم، وفي القرآن الكريم من الحجج الباهرة، والأدلة الدامغة، ما يدعو الرجل المنصف إلى التسليم بالدين والإذعان له.

وفائدة أخرى للأمم الإسلامية التي لا تعرف العربية وتشرئب أعناقها إلى اقتطاف ثمرات الدين من مصدرها الرفيع، فلا تجد أمامها إلا تراجم قد ملئت بالأخطاء،

فإذا ما قدمت لها ترجمة صحيحة تصدرها هيئة لها مكانتها الدينية في العالم، اطمأنت إليها وركنت إلي أنها تعبر عن الوحي الإلهي تعبيرا دقيقا.

لذلك أقترح أن يقرر مجلس الوزراء ترجمة معاني القرآن الكريم ترجمة رسمية، على أن تقوم بذلك مشيخة الأزهر، بمساعدة وزارة المعارف، وأن يقرر مجلس الوزراء الاعتماد اللازم لذلك المشروع الجليل. فأرجو النظر في ذلك.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

شيخ الجامع الأزهر

قرار مجلس الوزراء:

بعد الاطلاع على كتاب فضيلة شيخ الأزهر، وكتاب سعادة وزير المعارف العمومية، بشأن ترجمة معاني القرآن الكريم.

ومع تقدير مجلس الوزراء لمشقة العمل وصعوبته، ومنعا لأضرار التراجم المنتشرة الآن، رأى بجلسته المنعقدة في ١٠ من إبريل سنة ١٩٣٦ الموافقة على ترجمة معاني القرآن الكريم ترجمة رسمية، تقوم بها مشيخة الجامع الأزهر، بمساعدة وزارة المعارف العمومية، وذلك وفقا لفتوى جماعة كبار العلماء وأساتذة كلية الشريعة.

ثم تألفت لجنة من خيرة العلماء، لوضع تفسير عربي دقيق تمهيدا لترجمته بواسطة لجنة فنية مختارة، فوضع اللجنة دستور العمل ضمنته الكثير من ألوان الحيطة والحذر والكثير من التحفظات منها:

(١) أن يكون التفسير خاليا ما أمكن من المصطلحات والمباحث العلمية إلا ما استدعاه فهم الآية.

(٢) ألا يتعرض فيه للنظريات العلمية، فلا يذكر مثلا، التفسير العلمي للرعد والبرق عند آية فيها رعد وبرق، ولا رأى الفلكيين، في السماء والنجوم عند آية فيها سماء ونجوم، إنما تفسر بما يدل عليه اللفظ العربي، ويوضح موضع العبرة والهداية فيها.

(٣) ألا تخضع اللجنة إلا لما تدل عليه الآية الكريمة، فلا تتقيد بمذهب معين من المذاهب الفقهية، ولا مذهب معين من المذاهب الكلامية، وغيرها، ولا تتعسف في تأويل آيات المعجزات وأمور الآخرة ونحو ذلك.

(٤) أن يفسر القرآن بقراءة حفص، ولا يتعرض لتفسير قراءات أخرى إلا عند الحاجة إليها.

(٥) أن يجتنب التكلف في ربط الآيات والسور بعضها ببعض.

(٦) أن يذكر من أسباب النزول ما صح بعد البحث وما أعان على فهم الآية.

(٧) عند التفسير تذكر الآية كاملة أو الآيات إذا كانت كلها مرتبطة بموضوع واحد، ثم تحرر معاني الكلمات في دقة، ثم تفسر معاني الآية أو الآيات مسلسلة، في عبارة واضحة قوية، ويوضع سبب النزول والربط وما يؤخذ من الآيات في الوضع المناسب.

(٨) ألا يشار إلى النسخ إلا عند تعذر الجمع بين الآيات.

(٩) توضع للتفسير مقدمة في التعريف بالقرآن وبيان مسلكه.

وهناك تحفظات مهمة ينبغي مراعاتها عند هذه الترجمة هي:

(١) ألا يكتب القرآن بحروف غير عربية، كيلا يقع في إخلال وتحريف في لفظه.

(٢) أن تسمى الترجمة ترجمة تفسير القرآن، أو تفسير القرآن بلغة كذا، ولا تسمى «ترجمة القرآن».

(٣) يحسن أن يدون التفسير العربي، وتشفع به ترجمته، ليكون ذلك أنفى للريب، وأظهر في أنه ترجمة تفسير لا ترجمة قرآن.

وجملة القول أن من عرف قدر القرآن لم يبخل عليه بكل احتياط في الوقت الذي يبلغ هدايته إلى الناس عامة اللغات كافة.

والله أعلم

التفسير والمفسرون

التفسير في اللغة: التبيين والكشف والتوضيح.

وفي الاصطلاح: علم يبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله بقدر الطاقة البشرية.

وقال الزركشي: التفسير علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان، وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ.

والفرق بين التعريفين أن ثانيهما قد عني بربط الدلالة وبيان المعنى بعلوم اللغة والنحو والصرف والبيان إلخ، وأن الأول قد جعل هدفه الأعلى إبراز هدايات القرآن وتعاليمه، وبيان مراد الله حسب الطاقة.

وبعضهم يجعل همه الأول في التعريف، ما يتعلق بعلوم القرآن، فيقول: التفسير في الاصطلاح علم نزول الآيات وشئونها وأقاصيصها والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها. ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، خاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، مجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها (قاله السيوطي في الإتقان). وهناك تعريفات أخرى تنحو كل منها ناحية خاصة من العلوم.

الفرق بين التفسير والتأويل:

والتفسير والتأويل مترادفان، في أشهر المعاني اللغوية. والتأويل في اصطلاح المتكلمين هو ما ذهب إليه الخلف من صرف النصوص المتشابهة عن ظاهرها، لتنزيه الله تعالى عن المماثلة للحوادث.

والذي يعنينا في هذا المقام هو الفرق بين التفسير والتأويل في اصطلاح المفسرين، وفيه قال أبو عبيد وجماعة من العلماء: هما بمعنى. وعبارات ابن جرير في تفسيره تتجه إلى هذا الرأي. فهو يقول: «القول في تأويل قوله تعالى كذا»، «ويختلف أهل التأويل في هذه الآية، فقالوا... كذا». وأنكر أبو حبيب النيسابوري هذا القول إنكارا شديدا، فقال: قد نبغ في زماننا مفسرون لو سئلوا عن الفرق بين التفسير والتأويل ما اهتدوا إليه.

واختلاف العلماء في الفرق بين التفسير والتأويل متشعب وطويل، وليس في تتبعه كبير فائدة، ويكفينا فيه قول بعضهم: التفسير بيان لفظ لا يحتمل إلا وجها واحدا، والتأويل توجيه لفظ متوجه إلى معان مختلفة إلى واحدة منها بما ظهر من الأدلة. وقول الثعلبي: التفسير بيان وضع اللفظ، إما حقيقة أو مجازا، والتأويل تفسير باطن اللفظ، والإخبار عن حقيقة المراد، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ (الفجر: ١٤) تفسيره أنه من الرصد. يقال: رصدته رقبته، وتأويله التحذير من التهاون بأمر الله والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه.

وقول الآلوسي في تفسيره: التأويل معان قدسية، ومعارف ربانية، تنهل من سحب الغيب على قلوب العارفين؛ والتفسير غير ذلك. أ. هـ. فهو يرى أن التأويل خاص بالتفسير الإشاري، والتفسير ما كان مفهوما من العبارة.

فضل التفسير وشرفه:

قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة: ٢٦٩). قال: الحكمة المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، حلاله وحرامه، وأمثاله.

قال الأصبهاني: أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن أ. هـ.

وبيان ذلك أن شرف الصناعة إما بشرف موضوعها، مثل الصياغة، فإنها أشرف من الدباغة، لأن موضوع الصياغة الذهب والفضة، وهما أشرف من موضوع الدباغة الذي هو جلد الميتة، وإما بشرف غرضها، مثل صناعة الطب، فإنها أشرف من صناعة الكناسة، لأن غرض الطب إفادة الصحة وغرض الكناسة تنظيف

المستراح، وإما بشدة الحاجة إليها كالفقه، فإن الحاجة إليه أشد من الحاجة إلى الطب، إذ ما من واقعة في الكون في أحد من الخلق، إلا وهي مفتقرة إلى الفقه، لأنه به انتظام صلاح أحوال الدنيا والدين، بخلاف الطب فإنه يحتاج إليه بعض الناس في بعض الأوقات.

وصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث. أما من جهة الموضوع، فلأن موضوعه كلام الله تعالى، الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة. وأما من جهة الغرض، فلأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى، والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تفنى. وأما من جهة شدة الحاجة، فلأن كل كمال ديني أو دنيوي، عاجلي أو آجلي، مفتقر إلى العلوم الشرعية، والمعارف الدينية، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله.

بيان الحاجة إلى التفسير:

وإنما نحتاج إلى الشرح والتفسير لأمور ثلاثة:

(١) قوة المصنف العلمية، وارتفاع أسلوبه عن مستوى القارئ، وجمع مؤلفه للمعاني الدقيقة، التي يصعب فهم المراد منها بدون شرح.

(٢) إغفال المصنف بعض المسائل والتفاصيل، اعتمادا على وضوحها، أو لأنها ليست من الأغراض المهمة المقصودة له أولا وبالذات.

(٣) احتمال لفظ المصنف وجوها متعددة كالمجاز والاشتراك، ودلالة الالتزام، فيبين الشارح غرض المصنف.

ومن المعلوم أن بعض ألفاظ القرآن من قبيل الوجيز المشتمل على الكثير من المعاني الدقيقة، التي تحتاج إلى توضيح وكشف عند الكثير من الناس.

وقد شاءت حكمة الله تعالى أن يجعل في ألفاظ القرآن مجالا لعباده أن يفكروا، ويستنبطوا، ويفصلوا، ليؤجروا ويفوزوا بخيري الدنيا والآخرة. ومن ألفاظ القرآن ما يحتمل وجوها من المجازات يتحتم على علماء التفسير ترجيح بعضها على بعض.

وإذا كان الصحابة، وهم أفصح العرب، وأعلم الناس بلغة القرآن، قد جهلوا كثيرا من دقائقه وبواطنه فسألوا رسول الله ﷺ، أو سأل عوامهم خواصهم وعلماءهم عنه، فشرح لهم وفسر، إذا كان الصحابة قد احتاجوا إلى التفسير وهم الذين عرفوا البلاغة العربية وأسرارها، فنحن اليوم وقد جهلنا القواعد الأولية لها، وانحرف لساننا عن النطق بها ـ نحن اليوم وتلك حالنا أحوج ما نكون إلى تفسير القرآن وبيانه وإبراز هدايته وأحكامه.

وإن حوادث خطإ الصحابة في فهم بعض آيات القرآن كثيرة. فقد روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (الأنعام: ٨٢). فهم الصحابة من الظلم أي ظلم، فسألوا رسول الله ﷺ، وقالوا: وأينا لم يظلم نفسه؟ ففسره النبي ﷺ بالشرك؛ واستدل عليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣).

كما روي أن عدي بن حاتم لما نزل قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (البقرة: ١٨٧). لم يلحظ قوله ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فوضع من الليل تحت رأسه عقالا أبيض وعقالا أسود، ليرقب متى يميز الضوء بينهما؟ فنظر إليهما قرب الصباح وبعد الفجر فلم يتبين له الأبيض من الأسود، فأخبر النبي ﷺ بذلك، فقال له النبي ﷺ: إنك لعريض القفا، إنما ذلك بياض النهار وسواد الليل. ولم يقتصر الخطأ على عوام الصحابة، فتلك عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وهي التي أمرنا بأخذ شطر ديننا عنها، تسمع قوله ﷺ: «من نوقش الحساب عذب»، فتسأل رسول الله ﷺ عن الحساب اليسير في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ⑦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (الانشقاق: ٧، ٨). فيقول لها ﷺ «ذلك العرض».

وهذا عمر بن الخطاب يقرأ قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ (عبس: ٣١). فيقول: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟

وهذا عبد الله بن عباس ترجمان القرآن لا يفهم معنى ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (فاطر: ١)، حتى يأتيه أعرابيان يختصمان في بئر فيقول أحدهما: أنا فطرتها أي ابتدأتها.

وهذا عروة بن الزبير يفهم فهما خاطئا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ (البقرة: ١٥٨). فيسأل عائشة فتقول له: بئسما قلت يابن أختي، وتفسر له الآية التفسير الصحيح.

وهكذا ندرك أهمية التفسير للصحابة ومن بعدهم. ولسنا نجاوز الحقيقة إذا قلنا: إن مهمة الرسالة المحمدية، كانت في الدرجة الأولى تفسير القرآن وبيانه للأمة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤).

تفسير النبي صلى الله عليه وسلم:

ذهب ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير إلى أن رسول الله ﷺ بين لأصحابه كل معاني القرآن، استنادا إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤)، إذ لو لم يبين كل معانيه، كان مقصرا في البيان الذي كلف به. وجمهور العلماء على أن النبي ﷺ فسر بعض الآيات دون البعض، فمن القرآن ما استأثر الله بعلمه، ومنه ما يتبادر فهمه، ولا يعذر أحد بجهله، فليس الرسول في حاجة إلى تفسيره.

لكن السنة بينت كثيرا من المجمل، كتحديدها لمواقيت الصلاة، وعدد ركعاتها، وكيفيتها، وتحديدها لمقادير الزكاة وأنواعها وأوقاتها، وتبيينها مناسك الحج، إلى غير ذلك من الفروع. ووضحت كثيرا من المشكل، كتفسيره ﷺ الخيط الأبيض والخيط الأسود من الفجر.

وخصصت بعض العام، كتخصيصه ﷺ الظلم بالشرك، في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام: ٨٢).

وقيدت بعض المطلق، كتقييدها اليد باليمين، من قوله تعالى: ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ (المائدة: ٣٨). وقد أفردت كتب الحديث بابا للتفسير جمعت تحته كثيرا من التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ.

لكن لا يغيب عنا، أن كثيرا مما نسب إلى رسول الله ﷺ في التفسير غير

صحيح ولم يصدر عنه ﷺ ، فقد أتى على القرآن حين من الزمان كان هدفا لحملة من التشكيك، قام بها الضالون المضلون المتسترون بالإسلام، فوضعوا فيضا من الأحاديث لا يعقل صدور شيء منها عن رسول الله ﷺ حتى اختلط الصحيح بالعليل، وتوقف محققو المفسرين عن الاعتماد عن كثير من الأحاديث الواردة في التفسير.

تفسير الصحابة رضى الله عنهم:

ولا شك في أن القرآن الكريم كان هدف الصحابة الأول، يحفظونه ويفهمونه، ويتلقفون ما يصدر عن رسول الله ﷺ بشأنه ويهتدون بهديه، وينشرون نوره.

ولا شك في أنهم كانوا أعلم الناس بالظروف والملابسات التي أحاطت بنزول القرآن، والتي تعين على فهم آياته ووقائعه. ولا شك في أنهم كانوا أعلم من غيرهم بأوضاع لغة العرب وأسرارها. لكنهم - رضي الله عنهم - لم يكونوا في درجة واحدة من قوة الفهم وسعة الإدراك والقدرة على التعبير، فاشتهر بالتفسير منهم عدد قليل - ذكرهم السيوطي في الإتقان - وهم الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وبن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير.

وأكثر هؤلاء العشرة لم يرو عنهم في التفسير إلا النزر اليسير، إما لتقدم وفاتهم؛ وإما لانشغالهم بمهامهم.

والمكثرون في التفسير أربعة: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وعلى ابن أبي طالب، وأبي بن كعب.

ابن عباس:

ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، ولازم النبي ﷺ في صغره، لمكان خالته ميمونة زوج النبي ﷺ.

دعا له ﷺ ، فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» وقال: اللهم آته الحكمة».

وقد لازم كبار الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ، وأخذ عنهم كثيرا مما فاته من حديث رسول الله ﷺ وحفظ وفهم وتعلم وعلم، حتى بلغ درجة عظيمة من المعرفة والاجتهاد، حتى لقب بالحبر والبحر، وبترجمان القرآن.

وعاش عمرا طويلا نحو السبعين، وأدرك زمنا كثرت فيه حاجة المسلمين إلى من يبين لهم ما خفي عنهم من معاني القرآن الكريم، فكان الفيض الذي روى الظمأ، والمرجع الفصل في مشكلات التأويل؛ فقد روي عن ابن عمر أن رجلا أتاه يسأله عن ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ (الأنبياء: ٣٠)، فقال: كانت السموات رتقا لا تمطر، وكانت الأرض رتقا لا تنبت، ففتق هذا بالمطر، وهذه بالنبات، فرجع إلى ابن عمر فأخبره، فقال: قد كنت أقول: ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه أوتي علما.

تفسير ابن عباس:

وقد ورد عن ابن عباس في التفسير ما لا يحصى كثرة، فلا نكاد نجد آية من كتاب الله إلا ولابن عباس فيها قول أو أقوال. وفي تفسير ابن عباس روايات قوية، وروايات كثيرة ضعيفة واهية، مما أدى إلى اتهامه بالتوسع في الأخذ عن أهل الكتاب، كما أدى إلى الحيطة والحذر عند الاستدلال بما نسب إليه، وإلى ضعف اعتماد العلماء على تفسيره، وإلى عدم الثقة فيما أسند إليه من روايات، حتى قال الشافعي: لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث. وكان السر في ذلك أن الواضعين، وأصحاب البدع والأهواء وذوي الأهداف الهدامة لمصدر التشريع قد استغلوا ثقة المسلمين في تفسير ابن عباس، فتقولوا عليه، ونسبوا إليه ما لا يليق بالعوام، فضلا عن ترجمان القرآن.

وكلمة الحق أن هذا التفسير المنسوب لابن عباس لا يطعن في القيمة العلمية لابن عباس، وإنما الطعن الحق إنما هو في نسبته لابن عباس رضي الله عنهما وأرضاه.

عبد الله بن مسعود:

روي أنه كان سادس ستة ما على الأرض مسلم غيرهم، وهو أول من جهر من الصحابة بالقرآن بمكة وأسمعه قريشا، فأوذي في سبيله.

وكان من أحفظ الصحابة لكتاب الله، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يسمع منه القرآن، وقال فيه «من سره أن يقرأ القرآن رطبا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد».

وقد ورد عن ابن مسعود قوله: والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت؟ وأين نزلت؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته.

وقال مسروق: كان عبد الله بن مسعود يقرأ علينا السورة، ثم يحدثنا فيها، ويفسرها عامة النهار. وقال عقبة بن عامر: ما أدري أحدا أعلم بما نزل على محمد من عبد الله بن مسعود، فقال أبو موسى: إن تقل ذلك فإنه كان يسمع حين لا نسمع، ويدخل حين لا ندخل.

ويؤكد أبو موسى هذا المعنى فيما رواه البخاري ومسلم عنه أنه قال: «قدمت أنا وأخي من اليمن، فمكثنا حينا لا نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله ﷺ، لما نرى من كثرة دخوله ودخول أمه على رسول الله ﷺ ولزومه له».

وقد أرسله عمر ﷺ إلى الكوفة وكتب إلى أهلها: إني قد بعثت عمار بن ياسر أميرا، وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ، من أهل بدر، فاقتدوا بهما، وأطيعوا واسمعوا قولهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي.

وأقام ابن مسعود بالكوفة، يعلم أهلها الحديث، والتفسير والفقه، ويقضي بينهم. وقد أنشأ بالكوفة مدرسة كبرى في التفسير، ونبغ على يديه من التابعين كثير من المفسرين، أمثال مسروق وعلقمة والأسود وغيرهم.

وابن مسعود أكثر من روى عنه في التفسير من الصحابة بعد ابن عباس، لكن الروايات عنه شأنها شأن الروايات عن ابن عباس، كثيرا ما يعتريها الضعف ويتطرق إليها الوضع والاختلاق.

علي بن أبي طالب:

أخرج أبو نعيم في الحلية عن علي ﷺ قال: «ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت؟ وأين نزلت؟ إن ربي وهب لي قلبا عقولا، ولسانا سئولا». وفي رواية له: «فو الله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار؟ أم في سهول أم في جبل»؟

لكن ما صح عن علي في التفسير، أقل مما صح عن ابن عباس وابن مسعود، لأنه ﷺ ابتلى بكثرة الأصحاب وكثرة الأعداء معا، كل يدس عليه أو يتقول له. فأعداؤه يفسدون علمه وآراءه، ويشوهون حقيقته، وأصحابه غلاة الشيعة، يغرقون في نسبة الأقوال إليه ترويجا لمذهبهم، ولظنهم الفاسد أن ذلك يرفع من شأنه، ويعلي من قدره في تفسير القرآن الكريم.

أبي بن كعب:

هو أبي بن كعب بن قيس الأنصاري الخزرجي، من أعلام القراء وأول من كتب الوحي لرسول الله ﷺ بالمدينة.

وكان من أعلم أصحاب رسول الله ﷺ بتفسير كتاب الله. ومما زاده سعة في الفهم أنه كان قبل إسلامه حبرا من أحبار اليهود، العارفين بأسرار الكتب المقدسة.

وقد ورد عن «أبي» نسخة كبيرة في التفسير، خرج ابن جرير وابن أبي حاتم كثيرا منها، وأخرج الحاكم بعضها في مستدركه، وأخرج الإمام أحمد بعضها في مسنده.

وهو من المكثرين في التفسير، وإنما كان أقل من الثلاثة الذين تقدم ذكرهم من الصحابة لتقدم وفاته، إذ الأكثرون على أنه مات في خلافة عمر ﷺ.

القيمة العلمية لتفسير الصحابة:

والمقصود بهذا البحث ما صح إسناده إلى الصحابة من التفسير. أما الذي تضاربت فيه الروايات وضعفت فيه الأسانيد، وطعن في طريق وصوله، فلا خلاف في أنه لا يعتمد عليه ولا يؤخذ به.

ثم ما صحَّ عن الصحابة في التفسير : إما أن يكون في أسباب النزول، وفي أمور لا مجال للرأي والاجتهاد فيها كأمور الآخرة. وإما أن يكون للرأي فيه مجال.

فالأول له حكم الحديث المرفوع، وعلى المفسر أن يأخذ به، ولا يعدل عنه.

قال ابن الصلاح في مقدمته : ما قيل إن تفسير الصحابي حديث مسند، فإنما ذلك في تفسير يتعلق بسبب نزول آية، يخبر به الصحابي، أو نحو ذلك، مما لا يمكن أن يؤخذ إلا عن النبي ﷺ، ولا مدخل للرأى فيه.

وأما الثاني، أي ما كان للرأى فيه مجال. فهو من قبيل الموقوف على الصحابي، ولا يجب الأخذ به، لأنه ـ والحالة هذه ـ مجتهد والمجتهد يخطئ ويصيب.

نعم تطمئن نفس المفسر لما روى عن الصحابة من هذا القبيل أكثر مما يسند إلى غيرهم لظن سماعهم له من رسول الله ﷺ، ولأنهم أعلم الناس بكتاب الله، فهم أهل اللسان، وهم الذين حصلت لهم بركة الصحبة وفضلها وهم الذين شاهدوا قرائن نزول الآيات وأحوالها.

وفي ذلك يقول الحافظ بن كثير في مقدمة تفسيره : إذا لم نجد في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولهم من الفهم التام والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهديين، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه أ. هـ.

خصائص تفسير الصحابة:

والمتتبع للمروي من تفاسير الصحابة يلحظ أنها تتسم بخصائص مميزة، أهمها :

(١) أنه لم يصلنا عنهم، ولا عن بعضهم تفسير كامل للقرآن كله، بل كل ما وصلنا آيات متفرقة. وأما التفسير المعروف بتفسير ابن عباس، فإنه قد جمعه الفيروزآبادي، ونسبه لابن عباس، اعتمادا على رواية واهية، وأكثره مكذوب.

(٢) أن الاختلاف بين تفاسير الصحابة في فهم المعنى قليل .

(٣) أن تفسيرهم في الكثير الغالب من نوع التفسير الإجمالي ، وبيان المعنى في أقصر عبارة .

(٤) أن استنباطهم الأحكام الفقهية من الآيات ، نادر ، وانتصارهم للمذاهب في تفسيرهم منعدم .

(٥) أنه لم يدون لأحدهم تفسير على وجه الاستقلال ، بل كان بعضه يتلقى سماعا ، وبعضه يثبت في المصاحف ، حتى ظن بعض الجهلة أنه من وجوه القرآن .

(٦) أن التفسير في هذه المرحلة كان يسير على نمط الحديث ، دون تنسيق لآيات السورة ودون تنسيق على أبواب ، فترى تفسير آية من سورة بجوار تفسير آية من سورة أخرى ، تفسير آية في الجهاد بجوار تفسير آية في الصلاة . وهكذا .

تفسير التابعين رضي الله عنهم:

تلقى التابعون دروس التفسير من أعلام الصحابة ، واعتمدوا على أقوالهم في فهم القرآن الكريم كما اعتمدوا على قدرتهم في الفهم والنظر والاجتهاد .

وقد خصصنا بالذكر أربعة من مفسري الصحابة وأئمتهم . فأما علي ـ كرم الله وجهه ـ فقد شغل عن تنصيب نفسه للتفسير ، وأما الثلاثة الآخرون فقد جلسوا للتفسير والتدريس ، وتهيأت لهم تلامذة وحلقات .

مدرسة التفسير بمكة:

فابن عباس أنشأ مدرسة التفسير بمكة ، وجلس في المسجد يفسر لأصحابه من التابعين ، ويشرح لهم ما خفي عنهم ، ويجلي لهم ما أشكل عليهم ، وتلقى عنه تلامذته ، وفهموا منه ، وتبينوا ، ووعوا غزير علمه ، ثم نقلوه لمن بعدهم . وفيهم قال ابن تيمية : أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس .

ومن هؤلاء التلامذة الأجلاء :

(١) سعيد بن جبير، وكان قتادة يرى أنه أعلم التابعين بالتفسير، قتله الحجاج صبرا ـ (أي حبسه حتى مات) ـ سنة خمس وتسعين من الهجرة، وهو ابن تسع وأربعين سنة.

(٢) ومجاهد بن جبر الذي اعتمد عليه تفسير الشافعي والبخاري، وهذه شهادة منهما.

ويقول مجاهد عن نفسه: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أقف عند كل آية، أسأله فيم نزلت، وكيف كانت؟

ومع هذا، كان مجاهد أقل أصحاب ابن عباس رواية عنه في التفسير. ومما أخذ عليه ـ فيما نسب إليه من تفسير ـ أنه كان يفسر الآيات برأيه وبجرأة جعلت بعض العلماء لا يأخذ بتفسيره، ويلومه على مسلكه، وجعلت بعض الفرق كالمعتزلة تستأنس برأيه، خصوصا في تفسير قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢، ٢٣). إذ نقل ابن جرير عنه قوله: تنتظر الثواب من ربها، لا يراه من خلقه شيء.

(٣) وعكرمة البربري المدني مولى ابن عباس، أكثر الرواية عن ابن عباس، حتى اتهم بأنه يكذب عليه، واختلف الناس في توثيقه. ويصفه الذين لم يوثوقوه بالجرأة على العلم، وأنه كان يرى رأى الخوارج، ويزعم أن مولاه كان كذلك. وقد دافع عنه بعض العلماء، فقال ابن حجر: فأما البدعة (أي ميله للخوارج) فإن ثبتت عليه فلا تضر حديثه، لأنه لم يكن داعية، مع أنها لم تثبت عليه.

(٤) وطاووس بن كيسان اليماني الذي كان على جانب كبير من الورع والأمانة، حتى قال فيه ابن عباس: إني لأظن طاووسا من أهل الجنة.

(٥) وعطاء بن أبي رباح المكي القرشي، كان ابن عباس يقول لأهل مكة إذا جلسوا إليه: تجتمعون إلى يأهل مكة وعندكم عطاء؟

وقال فيه أبو حنيفة: ما رأيت فيمن لقيت أفضل من عطاء.

وكان مقلا في التفسير لتحرجه من القول فيه برأيه.

رضى الله عنهم أجمعين.

مدرسة التفسير بالمدينة: ·

وقامت مدرسة التفسير بالمدينة على أبي بن كعب، وتتلمذ عليه كثير من مشاهير التابعين، منهم أبو العالية، ومحمد بن كعب القرظي، وزيد بن أسلم.

مدرسة التفسير بالعراق:

وقامت مدرسة التفسير بالعراق على عبد الله بن مسعود، ويقول العلماء: إن ابن مسعود هو الذي وضع أساس تفسير القرآن بالرأى والاجتهاد، ثم توارثها عنه علماء أهل العراق، فأعملوا الرأي في استنباط مسائل الخلاف الشرعية، كما استعملوه في فهم نصوص القرآن والسنة، حتى أطلق على أهل العراق أهل الرأي.

ومن أشهر تلاميذ ابن مسعود علقمة بن قيس، ومسروق بن الأخدع، والأسود ابن يزيد، ومرة الهمذاني، وعامر الشعبي، والحسن البصري، وقتادة السدوسي.

القيمة العلمية لتفسير التابعين:

ومن المعلوم أن عدالة التابعين غير منصوص عليها، كما نص على عدالة الصحابة، فتفسيرهم لا يجب الأخذ به، وإن كان أكثره مأخوذا عن الصحابة.

وفي هذا يقول أبو حنيفة: ما جاء عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيرنا، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال.

ويقول ابن تيمية: قال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح. أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك أ. هـ.

خصائص تفسير التابعين:

دخل الطابع الجديد على تفسير التابعين، فكثرت فيه الإسرائيليات، والأخذ عن

أهل الكتاب بدون تحر، وبدون نقد، وبدون تمييز بين المعقول وغير المعقول. كما كثر الخلاف بين التابعين في التفسير، وظهرت نواة الخلاف المذهبي. فقتادة مثلا خاض في القضاء والقدر، واتهم بأنه قدري، والحسن البصري فسر القرآن على إثبات القدر، وكفر من يكذب به.

وهكذا نمت هذه النواة، وترعرع نبتها، واتسع نطاقها في العصور اللاحقة، حتى أصبح كل مفسر يفسر الآية على وفق نحلته ومقتضى هواه. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

تطور التفسير في عصور التدوين

جرى شأن التفسير في عهد الصحابة والتابعين على نمط الرواية والنقل، دون التأليف والتدوين، اللهم إلا ما روي عن ابن أبي مليكة من أن مجاهدا كان يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، فيقول له ابن عباس: اكتب، قال: حتى سأله عن التفسير كله. وما روي من أن سعيد بن جبير جمع تفسير القرآن في كتاب.

ونظرا لعدم وصول هذه المدونات إلينا، فإننا نقصد بعصر التدوين ما بعد عصر الصحابة والتابعين إلى عصرنا الحاضر.

ويمكن تقسيم المراحل التي مر بها التفسير في هذه الأزمنة المتطاولة إلى أربع مراحل.

المرحلة الأولى: مرحلة تدوين التفسير على أنه باب من الحديث. وقد ابتدأت هذه المرحلة بابتداء التدوين لحديث رسول الله ﷺ تدوينا مرتبا على أبواب، بعد أن طوف العلماء في الأمصار يجمعون الحديث. وكان مما جمعوه ما روى من تفسير منسوب إلى النبي ﷺ أو إلى الصحابة أو إلى التابعين.

ومن هؤلاء الأعلام شعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ من الهجرة، ووكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧ من الهجرة، وسفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ من الهجرة، وروح بن عبادة البصري المتوفى سنة ٢٠٥ من الهجرة، وآدم بن أبي إياس المتوفى سنة ٢٢٠ من الهجرة، وعبد حميد المتوفى سنة ٢٤٩ من الهجرة.

وكل هؤلاء أئمة حديث، وما جمعوه نقلوه عن أسلافهم من أئمة التفسير مسندا إليهم، وجعلوه بابا من أبواب الحديث.

المرحلة الثانية: مرحلة استقلال التفسير عن الحديث، ووضع تفسير لآيات القرآن مرتبا على ترتيب المصحف، مع المحافظة على الإسناد.

وقد تم ذلك على يد جماعة من أفاضل العلماء، منهم ابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ من الهجرة، وابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ من الهجرة، وأبو بكر النيسابوري المتوفى سنة ٣١٨ من الهجرة، وابن أبي حاتم المتوفى سنة ٣٢٧ من الهجرة، وابن حبان المتوفى سنة ٣٦٩ من الهجرة، والحاكم المتوفى سنة ٤٠٥ من الهجرة، وابن مردويه المتوفى سنة ٤٠١ من الهجرة.

وجميع تفاسير هؤلاء مروية بالإسناد إلى رسول الله ﷺ، أو إلى الصحابة أو إلى التابعين.

المرحلة الثالثة: مرحلة حذف الأسانيد، وكثرة الدخيل والعليل. وقد ألف جماعة كثيرة في التفسير بالمأثور، لكنهم اختصروا الأسانيد، بل نقلوا أقوال السلف من غير أن ينسبوها إلى قائليها. وعني كثير منهم بجمع شتات الأقوال، من غير تمييز بين الصحيح والسقيم، فكثر الوضع في التفسير وانتشرت الإسرائيليات انتشارا أضاع الثقة فيه.

المرحلة الرابعة: مرحلة التفسير بالرأي، وقد انتشر هذا النوع من التفسير بانتشار العلوم والمعارف، واختلاف الآراء، وكثرة المذاهب.

فقد دونت علوم اللغة، ودون النحو والصرف، واتسع نطاق المذاهب والآراء الفقهية والكلامية، وترجمت كتب كثيرة من كتب الفلاسفة، فتأثر التفسير بكل ذلك.

بل خضع التفسير لاستعداد المفسر، ونوع نبوغه العلمي، واتجاهه المذهبي حتى كاد كل تفسير أن يقتصر على الفن الذي برع فيه مؤلفه.

فالنحوي مثلا ـ كالزجاج والواحدي وأبي حيان ـ يبذل قصارى جهده في الإعراب ويستطرد إلى فروع النحو وخلافياته، حتى يطغى فنه على التفسير.

وصاحب العلوم العقلية كالفخر الرازي، جعل عنايته في تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، وشبههم والرد عليها، والانسياق لكثير في الأمور الكونية، حتى قيل عن كتابه «مفاتيح الغيب»: فيه كل شيء إلا التفسير.

والفقيه كالقرطبي يلتمس من الآية أدنى مناسبة ليدخل في الفروع وأدلتها والرد على مخالفي مذهبه، حتى يبعد عن التفسير.

وصاحب التاريخ والقصص، كالثعلبي والخازن، لا يصل إلى خبر أو قصة حتى يدع الآية جانبا، ويدخل في الأخبار والحكايات.

وصاحب البدعة كالرماني والجبائي والزمخشري والطبرسي كل همه التأويل والتكلف لتنزيل الآية على مقتضى نحلته وهواه.

ومن العلماء من عني بموضوع خاص من التفسير، فخصه بالبحث والتأليف.

فابن القيم أفرد كتابا في أقسام القرآن، سماه التبيان في أقسام القرآن.

وأبو عبيدة أفرد كتابا في مجاز القرآن.

والراغب الأصفهاني ألف كتابا في مفردات القرآن.

وأبو جعفر النحاس ألف كتابا في الناسخ والمنسوخ من القرآن.

وكثير من غير هؤلاء عنوا بناحية خاصة من نواحي القرآن الكثيرة البالغة النافعة فبرزوا وأسهبوا، وأصبحت بحوثهم مراجع في موضوعاتهم.

القيمة العلمية للتفسير بالمأثور:

تكلمنا عن القيمة العلمية لتفسير الصحابة، وتفسير التابعين، ونحن الآن بصدد بيان القيمة العلمية لكتب التفسير بالمأثور. بعبارة أخرى، موضوع بحثنا هو قيمة التفسير بالمأثور منذ عهد التدوين.

ومما لا شك فيه أن كتب التفسير بالمأثور توسعت في النقل، وأكثرت منه، بدون تفرقة بين الصحيح والضعيف. ودونَ تحر لصحة الإسناد. فكان من وراء ما نقلوا كثرة الإسرائيليات وكثرة الوضع، وكثرة الدخيل.

العلماء الإسرائيليون الذين أسلموا مثل كعب الأحبار، وعبد الله بن سلام، فسروا النصوص المجملة في القرآن بالمفصلة في كتبهم التي بين أيديهم.

أما التابعون، فقد توسعوا حقا في الأخذ عن أهل الكتاب، ويرجع ذلك إلى ميلهم لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية. فحشوا التفسير بأقوال أهل الكتاب حتى قال أبو حاتم: إن مقاتل بن سليمان استقى علومه بالقرآن من اليهود والنصارى وجعلها موافقه لما في كتبهم.

ثم أفرط المفسرون بعد التابعين في الأخذ عن الإسرائيليات إلى درجة جعلتهم لا يردون قولا، ولا يتدبرون إن كان يوافق الشرع والعقل، أو كان بعيدا عن الصواب.

وليس معنى هذا فقداً للقيمة العلمية للتفسير بالمأثور، فإنه ـ ولا شك ـ ثروة علمية ضخمة، ولا يزال مصدرا مهما، وموردا فياضا لقاصد التفسير، وهو الأساس الذي بني عليه التفسير بالرأى، وهو المنبع الأول لبيان معاني القرآن الكريم.

وكل ما قصدنا إليه أن نوضح أن كثرة الحشو والدخيل، وكثرة الإسرائيليات المنافية لروح القرآن، البعيدة من مراميه ومعانيه، بل البعيدة عن المعقول، المعارضة للمنقول، هذه الكثرة التي اختلطت بالصحيح، وعز على المشتغلين بالتفسير التمييز بين السليم منها والسقيم، أضعفت الاطمئنان إلى الجميع، وسوغت معارضته وعدم التزامه، لكنه لا يقل بحال عن رأي يستأنس به، وتوجيه يستضاء بضوئه، وهو لا يقل في قيمته العلمية عن التفسير بالرأي، إن لم يكن أرفع منه منزلة، وأعلى منه قدرا، لاشتماله على أقوال وتفسيرات للرسول ﷺ، ولصحابته من بعده ﭫ.

وموقف المفسر المحقق النزيه أن يكون يقظا عند الأخذ منه إلى أقصى درجات اليقظة، ناقدا فاحصا قبل أن يركن إليه، وبين يديه شريعة واضحة المعالم، حلالها بين وحرامها بين، وله قلب وعقل سليم، وإيمان راسخ بأن القرآن لا يصادم المعقول والواقع، ولا يناقض بعضه بعضا، ولا يعارض السنة النبوية الصحيحة.

أشهر كتب التفسير بالمأثور

يقصد بكتب التفسير بالمأثور الكتب التي يكثر فيها التفسير بالمرويات عن الرسول ﷺ أو عن الصحابة أو عن التابعين ﷺ . وليس بلازم أن يكون كل تفسيرها مأثورا، فكتب التفسير بالمأثور تشتمل على تفسير بالاجتهاد والرأي، إلا أن الطابع الغالب في هذه الكتب هو التفسير بالمرويات.

وقد دون في التفسير بالمأثور كتب كثيرة، لكنها لم تصل إلينا، لظروف الخلافات المذهبية والسياسية، أو لقلة التلاميذ والمريدين، وحملة العلم والأفكار من جيل إلى جيل.

وما وصل إلينا مما دون قليل، وقليل من هذا القليل هو المطبوع المتداول.

وسنعطي فكرة عن أشهر هذه الكتب، تساعد المشتغل بالتفسير على الدراسة والبحث، وبالله التوفيق.

(١) جامع البيان في تفسير القرآن (لابن جرير الطبري):

عاش ابن جرير الطبري في القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري (٢٢٤ ـ ٣١٠ هـ). وقد نبغ في علوم كثيرة، وألف فيها مؤلفات علمية نافعة.

ومن مؤلفاته كتاب في القراءات، وآخر في اختلاف العلماء، وثالث في تاريخ الرجال، ورابع في أحكام شرائع الإسلام، وخامس في أخبار الأمم والملوك، وهو من أهم مراجع التاريخ.

والسادس في تفسير القرآن الكريم، وهو المسمى بجامع البيان في تفسير القرآن. ويقع الكتاب في ثلاثين جزءا من الحجم الكبير، وهو مطبوع متداول.

وقيمته العلمية تتجلى في قول السيوطي: تفسير ابن جرير أجل التفاسير وأعظمها، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، والإعراب، والاستنباط فهو يتفوق بذلك على تفاسير الأقدمين. أ. هـ.

وفي قول النووي: أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبري أ. هـ.

وفي قول ابن تيمية: وأما التفاسير التي في أيدي الناس، فأصحها تفسير محمد

ابن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، فإنه لا ينقل عن المتهمين، كمقاتل بين بكير والكلبي. أ. هـ.

وطريقته في تفسيره أنه حينما يبدأ تفسير الآية يقول: القول في تأويل قوله تعالى كذا . . . . . ثم يفسر الآية، ويستشهد على ما قاله بما يرويه بسنده إلى الصحابة أو التابعين من التفسير المأثور عنهم. وإذا كان في الآية قولان أو أكثر تعرض لكل ما قيل فيها، ويستشهد على كل قول بما يرويه في ذلك. ثم يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضه على بعض. وكثيرا ما يتعرض للإعراب، واستنباط الأحكام الشرعية محتكما إلى ما هو معروف من لغة العرب، والشعر القديم. أما موقفه من الإسرائيليات، فإنه يكثر منها خصوصا في تفسير آيات القصص، فيروي عن كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وابن جريج، والسدي وغيرهم، وقد يتعقب بعض هذه الروايات بالنقد، لكنه مع ذلك جامع الصحيح والعليل، ولعله يتبرأ من العهدة بذكر السند بتمامه في كل رواية يرويها.

(٢) معالم التنزيل (للبغوي):

عاش الإمام أبو محمد الحسين البغوي في القرن الخامس الهجري، وتوفى سنة ٥١٠هـ.

وكان إماما في الفقه، وألف فيه كتابه «التهذيب»، وإماما في الحديث، وألف فيه كتبه «شرح السنة» و«المصابيح» و«الجمع بين الصحيحين»، وإماما في التفسير، وألف فيه كتابه «معالم التنزيل».

وهو مطبوع في نسخة واحدة مع تفسير ابن كثير، كما أنه مطبوع مع تفسير الخازن. وفي قيمته العلمية يقول الخازن: إنه من أجل المصنفات في علم التفسير وأعلاها، وأنبلها وأسناها، جامع من الصحيح من الأقاويل، عار عن الشبه. والتصحيف والتبديل، محلى بالأحاديث النبوية، مطرز بالأحكام الشرعية، موشى بالقصص الغريبة، وأخبار الماضين العجيبة، مرصع بأحسن الإشارات، مخرج بأوضع العبارات، مفرغ في قالب الجمال بأفصح مقال. أ. هـ.

وبقول ابن تيمية: والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة. أ. هـ.

وطريقته في التفسير تتلخص في أنه يفسر الآية بعبارة سهلة موجزة، ثم ينقل ما جاء عن السلف في تفسيرها من غير سند، فيقول مثلا، قال ابن عباس كذا، أو عن مجاهد كذا، وقال عطاء كذا. إلخ.

والمحقق في تفسير البغوي يجد فيه روايات عن الضعفاء، وأخبارا عن الإسرائيليات، بدون التعقيب عليها.

ولكنه في جملته أحسن وأسلم من كثير من كتب التفسير بالمأثور.

(٣) تفسير القرآن العظيم (لابن كثير):

عاش الإمام عماد الدين إسماعيل بن عمرو بن كثير، البصري، ثم الدمشقي في القرن الثامن الهجري، وتوفى سنة ٧٧٤هـ.

نبغ في علوم كثيرة، وألف في التاريخ كتابه القيم «البداية والنهاية» وشرع في كتاب كبير في الأحكام لم يكمل، وشرع في شرح البخاري ولم يتم.

وألف كتابه «تفسير القرآن العظيم» الذي يُعَدّ في عصرنا الحاضر من أشهر ما دون في التفسير بالمأثور، وهو مطبوع مستقلا في أربعة أجزاء، ومع «معالم التنزيل للبغوي» وهي الطبعة الموفورة في هذه الأيام.

وطريقته في تفسيره تبدأ بتوضيح الآية بآية أخرى، مقارنا بين الآيتين على طريقة تفسير القرآن بالقرآن، ثم يورد الأحاديث ثم أقوال الصحابة والتابعين، وقد يرجح بعض الأقوال على بعض، ويضعف بعض الروايات، ويتكلم في الرواة تعديلا وتجريحا، لأنه كان نابغا في علوم الحديث وأحوال الرجال. وكثيرا ما ينقل عمن سبقه من المفسرين كابن جرير وابن أبي حاتم وابن عطية. لكنه ينبه على منكرات الإسرائيليات.

(٤) الكشف والبيان عن تفسير القرآن (للثعلبي):

عاش أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجري، إذ توفى سنة ٤٢٧ هـ.

وكان مقرئا وحافظا وواعظا وإماما في التفسير.

وقد ألف كتابا متوسط الحجم في قصص الأنبياء، يسمى «العرائس» وكتبا أخرى أهمها كتابه «الكشف والبيان عن تفسير القرآن».

وقال عنه في مقدمته: كتاب شامل، مهذب، ملخص، مفهوم، منظوم، مستخرج من زهاء مائة كتاب، مجموعات مسموعات، سوى ما التقطته من التعليقات والأجزاء المتفرقات، وتلقفته عن أقوام من المشايخ الأثبات، وهم قريب من ثلاثمائة شيخ. إلخ. والكتاب مخطوط، والموجود منه بمكتبة الأزهر غير كامل. يقف عند آخر سورة الفرقان.

وطريقته في تفسيره تبدأ بتفسير الآية بما جاء عن السلف مع اختصار الأسانيد، ويتعرض للمسائل النحوية ويستطرد فيها بإسهاب، ويتعرض لشرح الكلمات اللغوية، ويعرج على تصاريفها وأصولها، ويستشهد لها بالشعر العربي.

ويتوسع في الأحكام الفقهية، وفي النواحي العلمية المختلفة في تطويل يكاد يخرجه عن طابع التفسير بالمأثور.

وكان الثعلبي مولعا بالأخبار والقصص، فأكثر في تفسيره من الإسرائيليات والقصص والأحاديث الضعيفة والموضوعة، فكان محل نقد كبير من بعض العلماء، حتى قال فيه ابن تيمية: والثعلبي هو في نفسه كان فيه خير ودين، وكان حاطب ليل ـ (أي يجمع الغث والسمين) ـ، ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع. أ. هـ.

وقال فيه الكناني: لم يكن له كبير بضاعة في الحديث، بل في تفسيره أحاديث موضوعة وقصص باطلة. أ. هـ.

(٥) الجواهر الحسان في تفسير القرآن (للثعالبي):

عاش عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري في القرن التاسع الهجري حيث كانت وفاته سنة ٨٧٦هـ.

وكان إماما مصنفا، خلف للناس كتبا كثيرة نافعة، منها:

كتاب الذهب الإبريز في غرائب القرآن العزيز، وتحفة الإخوان في إعراب بعض آيات القرآن، وجامع الأمهات في أحكام العبادات، وكتاب الجواهر الحسان في تفسير القرآن. وفي مقدمته يقول عنه مؤلفه:

ضمنته بحمد الله المهم مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية، وزدته فوائد جمة، من غيره من كتب الأئمة، وثقات أعلام هذه الأمة، حسبما رأيته أو رويته عن الأثبات، وذلك قريب من مائة تأليف؛ وما فيها تأليف إلا وهو لإمام مشهور بالدين، ومعدود في المحققين، وكل ما نقلت عنه من المفسرين شيئا فمن تأليفه نقلت، وعلى لفظ صاحبه عولت ولم أنقل شيئا من ذلك بالمعنى، خوف الوقوع في الزلل، وإنما هي عبارات وألفاظ لمن أعزوها إليه. أ. هـ.

والكتاب مطبوع في الجزائر، في أربعة أجزاء، وتوجد منه نسخة في دار الكتب المصرية ونسخة بالمكتبة الأزهرية.

(٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: (لابن عطية):

عاش عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجري، حيث كانت وفاته سنة ٥٤٦هـ عن خمسة وستين عاما.

وكان فقيها عالما، عده ابن فرحون من أعيان مذهب المالكية، وعده السيوطي من شيوخ النحو وأساطين النحاة، ووصفه أبو حيان بأنه أجل من صنف في علم التفسير، وأفضل من تعرض للتنقيح والتحرير.

وكتابه «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» له قيمته العلمية العالية بين كتب التفسير بالمأثور، بل أخذ عنه كثير من المفسرين بعده.

وفي المقارنة بينه وبين تفسير الزمخشري، يقول أبو حيان: «كتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص، وكتاب الزمخشري ألخص وأغوص» أ. هـ.

ويقول ابن تيمية: تفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري، وأصح نقلا وبحثا، وأبعد عن البدع. أ. هـ.

وبرغم الشهرة الواسعة لكتابه، فإنه لا يزال مخطوطا إلى اليوم، وهو يقع في عشرة مجلدات من الحجم الكبير، ويوجد منه في دار الكتب المصرية أربعة أجزاء فقط (الثالث والخامس والثامن والعاشر).

وكل ما أخذ على تفسير ابن عطية أنه يميل إلى مذهب المعتزلة، دون القول بما يقولون. وفي هذا يقول ابن تيمية: ولو ذكر «ابن عطية» كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل، فإنه كثيرا ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبري ـ وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدرا ـ ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين، وإنما يعنى بهم طائفة من أهل الكلام، الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم، وإن كان أقرب إلى السنة من المعتزلة.

٧ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور (للسيوطي):

عاش الحافظ جلال الدين السيوطي في القرن التاسع وأوائل العاشر الهجري. ولد سنة ٨٤٩ هـ توفى سنة ٩١١هـ.

وكان رحمه الله ـ نابغة منذ صغره، فحفظ القرآن وعمره ثماني سنين، وحفظ في صباه كثيرا من متون العلوم: وكان غاية في سرعة التأليف، حتى قال تلميذه الداودي: عاينت الشيخ وقد كتب في يوم واحد ثلاث كراريس تأليفا وتحريرا. أ. هـ.

وكان أعلم أهل زمانه بعلم الحديث سندا ومتنا واستنباطا للأحكام، وقد أخبر عن نفسه أنه يحفظ مائتي ألف حديث. قال: ولو وجدت أكثر لحفظت.

وقد أكثر السيوطي من التأليف، أبلغ تلميذه الداودي عدد مؤلفاته أكثر من

خمسمائة مؤلف، كتب لكثير منها التوفيق والقبول لدى الناس، فطبعت وتداولتها الأجيال والأمصار.

وكتابه «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» مختصر من كتابه «ترجمان القرآن» حيث يقول في كتابه «الإتقان»: وقد جمعت كتابا مسندا فيه تفاسير النبي ﷺ، فيه بضعة عشر ألف حديث، ما بين مرفوع وموقوف، وقد تم ولله الحمد في أربعة مجلدات، وسميته «ترجمان القرآن».

وقال في مقدمة الدر المنثور. «وبعد» فلما ألفت كتاب «ترجمان القرآن» ـ وهو التفسير المسند عن رسول الله ﷺ، وتم بحمد الله في أربعة مجلدات، فكان ما أوردته فيه من الآثار بأسانيد الكتب المخرجة منها واردات، رأيت قصور أكثر الهمم عن تحصيله، ورغبتهم في الاقتصار على متون الأحاديث دون الإسناد وتطويله، فلخصت منه هذا المختصر، مقتصرا فيه على متن الأثر، مصدرا بالعزو والتخريج إلى كتاب معتبر، وسميته بالدر المنثور في التفسير بالمأثور. أ. هـ.

وطريقة هذا الكتاب في تفسيره سرد الروايات عن السلف بدون تعقيب عليها بتضعيف ولا تصحيح، وقد جمعه السيوطي من كتب الحديث، كالبخاري ومسلم والنسائي والترمذي وأحمد وأبي داود وابن جرير وابن أبي حاتم وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وغيرهم ممن دون التفسير بالمأثور قبله.

والكتاب جامع بين الصحيح والعليل، ومطبوع في ستة مجلدات، ومتداول بين أهل العلم.

التفسير بالرأي
(جوازه وعدم جوازه)

أي التفسير بالاجتهاد. وقد اختلف العلماء قديما في جوازه، فذهب بعضهم إلى منعه منعا كليا مدعين أنه قول على الله بغير علم، لأن المفسر بالرأي لا يجزم بأنه أصاب ما أراد الله تعالى، ورد عليهم بأن الظن نوع من العلم كاف في الأمور الاجتهادية التي لم يرد فيها نص صريح. واستندوا كذلك إلى ما رواه الترمذي عن

ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار». ورد عليهم بأن المراد القول في القرآن من غير دليل ولا سند، أو المراد بالرأي الهوى والنحلة.

وجمهور العلماء على أن التفسير بالرأي نوعان: نوع جائز محمود، ونوع غير جائز مذموم. فالنوع الجائز المحمود هو ما كان مستندا إلى ما يجب الاستناد إليه، بعيدا عن الجهالة والضلالة. ومن هذا النوع تفسير الصحابة ﷺ، فقد روي أن أبا بكر ﷺ سئل عن الكلالة، فقال: أقول فيها برأيي، فإن كان صوابا فمن الله، وإن كان غير ذلك فمني، ومن الشيطان، والكلالة كذا وكذا.

وقد قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢٩). وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤). وقال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٣).

فهذه الآيات تدل على جواز الاستنباط، والحث على التدبر والنظر، وهذا هو نفس التفسير بالرأي بشروطه.

ولو كان التفسير بالرأي غير جائز ما كان الاجتهاد جائزا، ولتعطل كثير من أحكام الشريعة، مع أن المجتهد مأجور، إن أخطأ فله أجر، وإن أصاب فله أجران.

وأما النوع غير الجائز المذموم، فهو ما كان صادرا عن جهالة أو عن بدعة وضلالة، وعلى هذا النوع تحمل أقوال المانعين للتفسير بالرأي وتحمل عليه أدلتهم كما يحمل عليه ما روي من تحرز بعض الصحابة عن التفسير، وما روي من تحرج بعض التابعين والسلف الصالح عن القول في القرآن، فإن الورع والاحتياط، والخوف من الوقوع في الزلل لعدم التمكن من وسائل التفسير، جعل البعض منهم يمسك عن التفسير بالرأي.

أهم كتب التفسير بالرأي الجائز

يقصد بكتب التفسير بالرأي الكتب التي يكثر فيها التفسير بالرأي، سواء اشتملت كذلك على المرويات والتفسير المنقول ـ كما هو الشأن الكثير الغالب من هذه الكتب ـ أو كانت مقتصرة على التفسير بالاجتهاد.

وكتب التفسير بالرأي ـ منذ عصر التدوين حتى اليوم ـ كثيرة تجعل من العسير استقصاؤها في العصور والأمصار المختلفة، خصوصا وقد أتى على الكتب الإسلامية حين من الدهر في بعض البلاد كانت فيه هدفا للإبادة والإحراق والإغراق، وأصبحنا نسمع بأسماء كتب منها لم تقع عليها عيوننا، ونقرأ أسماء كتب في المؤلفات التي وصلت إلينا، ونبحث عنها فلا تصل إليها أيدينا.

وما وصل إلينا مطبوعا أو مخطوطا كثير أيضا، والحمد لله. وليس من السهل في هذا المقام الكلام عن كل واحد منها كلاما معرفا لخصائصه وطريقته ومنهاجه ولهذا نكتفي بنبذة عن أهم الكتب وأشهرها، وبالله التوفيق.

(١) مفاتيح الغيب (للفخر الرازي):

عاش فخر الدين الرازي في القرن السادس الهجري، إذ ولد سنة ٥٤٤ هـ وتوفى سنة ٦٠٦ هـ. وكان إماما في التفسير، حجة في أمور العقيدة، مبرزا في العلوم الكونية والعقلية، وله مؤلفات كثيرة، حظيت باشتغال الناس بها، وإقبالهم عليها، ومنها:

(١) كتاب المطالب العالية في علم الكلام.
(٢) وكتاب البيان والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان.
(٣) وكتاب المحصول في أصول الفقه.
(٤) وكتاب الملخص في الحكمة.
(٥) وكتاب شرح إشارات ابن سينا.
(٦) وكتاب شرح عيون الحكمة.
(٧) وأهمها كتاب التفسير الذي نحن بصدده، المسمى بمفاتيح الغيب، وهو يقع في ثمانية مجلدات من الحجم الكبير، وهو مطبوع ومتداول. ويقال: إن الإمام

فخر الدين الرازي توفى قبل أن يتم كتابه مفاتيح الغيب، فأتمه نجم الدين المخزومي القمولي المتوفى سنة ٧٢٧ هـ. قاله ابن حجر في كتابه «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة».

ومع اختلاف المؤلفين لهذا الكتاب، فإنه يسير في طريقته على نمط واحد حتى إن القارئ لا يكاد بل لا يستطيع أن يحدد الجزء الذي ألفه الفخر والجزء الذي أتم به القمولي.

ويحظى تفسير الفخر الرازي بشهرة كبيرة بين المفسرين، إذ هو يهتم ببيان مناسبة الآية لما قبلها وما بعدها. ويربطها بالسورة، كما يربط السور بعضها ببعض، ثم هو مدافع عن مذهب أهل السنة، حامل على أهل الزيغ والضلال، لكنه في إفراطه في شرح شبهة المعتزلة قبل الرد عليهم جعل للناقدين مأخذا، وللمحققين نقدا.

وفي هذا يقول الحافظ بن حجر في لسان الميزان: ورأيت في «الإكسير في علم التفسير» لنجم الطوفي ما ملخصه: ما رأيت في التفاسير أجمع لغالب علم التفسير من القرطبي، ومن تفسير الإمام فخر الدين، إلا أنه كثير العيوب. ويقول سراج الدين المغربي: يورد الفخر شبه المخالفين في المذهب والدين على غاية ما يكون من التحقيق، ثم يورد مذهب أهل السنةوالحق على غاية من الدهاء.

قال الطوفي: ولعمري، إن هذا دأبه في كتبه الكلامية والحكمية، حتى اتهمه بعض الناس، ولكنه خلاف ظاهر حاله، لأنه لو كان اختار قولا أو مذهبا ما كان عنده من يخاف منه حتى يستر عنه، ولعل سببه أنه كان يستفرغ أقوالا في تقرير دليل الخصم، فإذا انتهى إلى تقرير دليل نفسه لا يبقى عنده شيء من القوى، ولا شك في أن القوى النفسانية تابعة للقوى البدنية.

وقد صرح في مقدمة نهاية العقول أنه مقررمذهب خصمه تقريرا أراد خصمه تقريره لم يقدر على الزيادة على ذلك. أ. هـ.

وتفسير الفخر بعد ذلك موسوعة علمية، في الفقه والأصول، والنحو والبلاغة، وفي العلوم الرياضية والطبيعية، فتكلم في الأفلاك والأبراج، وفي السماء والأرض، وفي الحيوان والنبات، وفي أجزاء الإنسان، حتى طغت هذه

المباحث على طابع التفسير وأتاحت لصاحب كشف الظنون أن يقول: إن الإمام فخر الدين الرازي ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، وخرج من شيء إلى شيء، حتى يقضي الناظر العجب.

وقال أبو حيان في البحر المحيط: جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة، لا حاجة بها في علم التفسير، ولذلك قال بعض العلماء: فيه كل شيء إلا التفسير. أ. هـ.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (للبيضاوي):

عاش قاضي القضاة عبد الله بن عمر البيضاوي الشافعي الفارسي في القرن السابع الهجري، وتوفى سنة ٦٩١ هـ وقيل سنة ٦٨٥ هـ.

وكان إماما مبرزا في الفقه والتفسير وعلوم الدين. ومن أهم مصنفاته: كتاب المنهاج وشرحه في أصول الفقه، وكتاب الطوالع في أصول الدين، وكتاب أنوار التنزيل وأسرار التأويل في التفسير؛ وهو تفسير متوسط مطبوع مختصر من تفسير الكشاف للزمخشري، مع الأخذ من تفسير الفخر الرازي، ومن تفسير الراغب الأصفهاني، ومع إضافة نكت من عنده بارعة، واستنباطات دقيقة في عبارة موجزة. كما ضم إلى ذلك بعض الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين في التفسير.

ومما أخذ على تفسيره أنه ذكر في نهاية كل سورة حديثا في فضلها، مع اتفاق أهل الحديث على أن أكثرها مردود، بل موضوع، ولعله انساق وراء الزمخشري في تفسيره.

كذلك أخذ على هذا التفسير التوسع في وجوه القراءات وذكر الشواذ منها.

ثم إنه استطرد كثيرا بذكر مباحث في الكون والطبيعة بعيدة عن التفسير متبعا في ذلك الفخر الرازي في تفسيره الكبير.

وهذه المآخذ يجب غض الطرف عنها أمام ميزات هذا التفسير ومكانته العلمية؛

فهو عار عن الانحراف والضلال، مؤيد لمذهب أهل السنة والجماعة. وفيه يقول الجلال السيوطي في حاشيته عليه، المسماة بنواهد الأبكار وشوارد الأفكار: إن القاضي ناصر الدين البيضاوي لخص هذا الكتاب فأجاد، وأتى بكل مستجاد، وماز فيه أماكن الاعتزال، وطرح موضع الدسائس، وأزال وحرر مبهمات، واستدرك تتمات، فظهر كأنه سبيكة نضار، واشتهر اشتهار الشمس في رائعة النهار، وعكف عليه العاكفون، ولهج بذكر محاسنه الواصفون، وذاق طعم دقائقه العارفون، فأكب عليه العلماء تدريسا ومطالعة، وبادروا إلى تلقيه بالقبول، ورغبة فيه ومسارعة. أ. هـ.

ويقول البيضاوي نفسه في مقدمة تفسيره شارحا طريقته، موضحا مصادره: يقول: ولطالما أحدث نفسي، بأن أصنف في هذا الفن كتابا، يحتوي على صفوة ما بلغني من عظماء الصحابة، وعلماء التابعين، ومن دونهم من السلف الصالحين، وينطوي على نكات بارعة، ولطائف رائعة، استنبطتها أنا ومن قبلي من أفاضل المتأخرين، وأماثل المحققين، ويعرب عن وجوه القراءات المشهورة، المعزية إلى الأئمة الثمانية، والشواذ المروية عن القراء المعتبرين، إلا أن قصور بضاعتي يثبطني عن الإقدام، ويمنعني عن الانتصاب في هذا المقام، حتى سنح لي بعد الاستخارة ما صمم به عزمي على الشروع فيما أردته، والإتيان بما قصدته.

وقال في نهاية الكتاب: وقد اتفق إتمام تعليق سواد هذا الكتاب المنطوي على فرائد فوائد ذوي الألباب، المشتمل على خلاصة أقوال أكابر الأئمة، وصفوة آراء أعلام الأمة، في تفسير القرآن وتحقيق معانيه، والكشف عن عويصات ألفاظه ومعجزات مبانيه، مع الإيجاز الخالي عن الإخلال، والتلخيص العاري عن الإضلال. أ. هـ.

ويشيد صاحب كشف الظنون بالكتاب، ويعتذر عن بعض المآخذ عليه، فيقول: كتاب عظيم الشأن، غنى عن البيان، لخص فيه من الكشاف ما يتعلق بالإعراب والمعاني والبيان، ومن التفسير الكبير مايتعلق بالحكمة والكلام، ومن تفسير الراغب ما يتعلق بالاشتقاق وغوامض الحقائق؛ ولطائف الإشارات، وضم إليه ما ورى زناد فكره من الوجوه المعقولة، فجلا رين الشك عن السريرة، وزاد في العلم بسطة وبصيرة، كما قال مولانا المنشي:

أولو الألباب لم يأتوا　　بكشف قناع ما يتلى
ولكن كان للقاضي　　يد بيضاء لا تبلى

ولكونه متبحرا جال في ميدان فرسان الكلام، فأظهر مهارته في العلوم حسبما يليق بالمقام، كشف القناع تارة عن وجوه محاسن الإشارة، وملح الاستعارة، وهتك الأستار الأخرى عن أسرار المعقولات، بيد الحكمة ولسانها، وترجمان المناطقة وميزانها، فحل ما أشكل على الأنام، وذلل لهم صعاب المرام، وأورد في المباحث الدقيقة ما يؤمن به عن الشبه المضلة، وأوضح لهم مناهج الأدلة، والذي ذكره من وجوه التفسير ثانيا أو ثالثا أو رابعا بلفظ «قيل» فهو ضعيف ضعف المرجوح أو ضعف المردود.

وأما الوجه الذي تفرد فيه، وظن بعضهم أنه مما لا ينبغي أن يكون من الوجوه التفسيرية السيئة كقوله: وحمل الملائكة العرش، وحفيفهم حوله مجاز عن حفظهم وتكبيرهم له. ونحوه، فهو ظن من لعله يقصر فهمه عن تصور مبانيه ولا يبلغ علمه إلى الإحاطة بما فيه. فمن اعترض بمثله على كلامه، كأنه ينصب الحبالة للعنقاء، ويروم أن يقنص نسر السماء، لأنه مالك زمام العلوم الدينية، والفنون اليقينية، على مذاهب أهل السنة والجماعة، وقد اعترفوا له قاطبة بالفضل المطلق وسلموا إليه قصب السبق، فكان تفسيره يحتوي فنونا من العلم وعرة المسالك؛ وأنواعا من القواعد المختلفة الطرائق، وقل من برز في فن إلا وصده عن سواه وشغله، والمرء عدو لما جهله، فلا يصل إلى مرامه إلا من نظر إليه بعين فكره، وأعمى عين هواه واستعبد نفسه في طاعة مولاه حتى يسلم من الغلط والزلل، ويقتدر على رد السفسطة والجدل.

وأما أكثر الأحاديث التي أوردها في أواخر السور، فإنه لكونه ممن صفت مرآة قلبه، وتعرض لنفحات ربه، تسامح فيه، وأعرض عن أسباب التجريح والتعديل، ونحا نحو الترغيب والتأويل، عالما بأنها مما فاه صاحبه بزور، ودلى بغرور. ثم إن هذا الكتاب رزق من عند الله - سبحانه وتعالى - بحسن القبول، عند جمهور الأفاضل والفحول، فعكفوا عليه بالدرس والتحشية، فمنهم من علق تعليقة على سورة منه، ومنهم من حشي تحشية تامة، ومنهم من كتب على بعض مواضع

منه . . . ثم عد صاحب كشف الظنون من هذه الحواشي ما يزيد على الأربعين، وأظهر هذه الحواشي، وأكثرها تداولا حاشية قاضي زاده وحاشية الشهاب، وحاشية القونوي.

(٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل (للنسفي):

عاش الإمام أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي في بلاد ما وراء النهر في القرن السابع الهجري، وكانت وفاته سنة ٧٠١ هـ.

وكان إماما في الفقه والأصول، وعد آخر الأئمة المجتهدين في الفقه الحنفي. وله مؤلفات مفيدة في الفقه والأصول. منها: متن الوافي في الفروع، وشرحه الكافي، وكنز الدقائق في الفقه، والمنار في أصول الفقه، ومؤلفات قيمة في غير الفقه. منها العمدة في أصول الدين، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل.

وهو كتاب وسط في التفسير، مطبوع في أربعة أجزاء، كثير التداول بين طلاب العلم والعلماء.

وهو مختصر من تفسير الكشاف للزمخشري، لكنه نحى أقوال الاعتزال، ووضع محلها التفسير المؤيد لمذهب أهل السنة والجماعة. وخالف الزمخشري في طريقة عرض التفسير، فلم ينهج نهج السؤال والجواب، كما نهج الزمخشري على عبارة: فإن قلت . . . قلت، وإنما ساق الأجوبة سردا ضمن التفسير، كما أنه قلل مما أكثر فيه الزمخشري من ذكر الأحاديث الضعيفة، والمردودة في فضائل السور. وقد ذكر النسفي في مقدمة تفسيره نبذة عن طريقته في كتابه ودوافع تأليف، فقال:

فقد سألني من تتعين إجابته كتابا وسطا في التأويلات، جامعا لوجوه الإعراب والقراءات، متضمنا لدقائق علمي البديع والإشارات، حاليا بأقاويل أهل السنة والجماعة، خاليا عن أباطيل أهل البدع والضلالة، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل. وكنت أقدم رجلا وأؤخر أخرى، استقصاراً لقوة البشر، عن درك الوطر، وأخذ السبيل الحذر، عن ركوب متن الخطر، حتى شرعت فيه بتوفيق الله ـ والعوائق كثيرة ـ وأتممته في مدة يسيرة وسميته «مدارك التنزيل وحقائق التأويل».

وقد أنجز النسفي ما طلب منه، فجمع بين وجوه الإعراب بعبارة موجزة، بعيدة عن التشعب والاستطراد، والتزم القراءات السبع، ونسب كل قراءة إلى قارئها، وتعرض أحيانا للمسائل الفقهية منتصرا لمذهب الحنفية. ومع أن هذا التفسير لا يخلو من الإسرائيليات لكنه مقل منها، منبه على كذب بعضها. والكتاب مقرر على طلبة العلم في المعاهد والكليات الدينية، لكنه بالنسبة للمستوى العلمي يحتاج إلى توضيح غوامضه، وتبسيط دقائقه. وقد قمت ـ بتوفيق الله ـ بشرحه وتوضيح عبارته، في كتاب سميته «تيسير النسفي» وطبعت منه قريبا من نصف القرآن الأخير، وتداول بقبول حسن بين أهل التفسير، والله أسأل أن يعينني على طبع باقيه، وأن ينفع به. إنه سميع مجيب.

(٤) لباب التأويل في معاني التنزيل (للخازن):

عاش علاء الدين بن محمد بن إبراهيم الشافعي في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجري، إذ ولد ببغداد سنة ٦٧٨ هـ وتوفى سنة ٧٤١ هـ بمدينة حلب.

واشتهر بالخازن لأنه كان خازن كتب خانقاه السميساطية بدمشق. ألف كتبا كثيرة في فنون مختلفة منها:

شرح عمدة الأحكام، ومقبول المنقول في عشر مجلدات، جمع فيه مسند الشافعي ومسند أحمد، والكتب الستة، والموطأ، وسنن الدار قطني، ورتبه على الأبواب، وجمع سيرة نبوية مطولة.

ومن أشهر مؤلفاته «لباب التأويل في معاني التنزيل» في تفسير القرآن الكريم، وهو مختصر من معالم التنزيل للبغوي، بالإضافة إلى منقولات أخرى من كتب التفاسير، وليس له فيه ـ كما يقول ـ سوى النقل والانتخاب مع حذف الأسانيد، وتجنب التطويل. والكتاب مطبوع في سبعة أجزاء، متداول بين الناس.

ويقول الخازن في مقدمة كتابه:

ولما كان كتاب معالم التنزيل، الذي صنفه الشيخ الجليل، والحبر النبيل، الإمام

محيي السنة، قدوة الأمة، وإمام الأئمة مفتي الفرق، ناصر الحديث، ظهير الدين. أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ـ قدس الله روحه، ونور ضريحه ـ من أجل المصنفات في علم التفسير، وأعلاها، وأنبلها وأسناها، جامعا للصحيح من الأقاويل، عاريا من الشبه والتصحيف والتبديل، محلى بالأحاديث النبوية، مطرزا بالأحكام الشرعية، موشى بالقصص الغريبة، وأخبار الماضين العجيبة، مرصعا بأحسن الإشارات، مخرجا بأوضح العبارات، مفرغا في قالب الجمال بأفصح مقال، فرحم الله تعالى مصنفه، وأجزل ثوابه، وجعل الجنة متقلبه ومآبه؛ لما كان هذا الكتاب كما وصفت، أحببت أن أنتخب من غرر فوائده، ودرر فوائده، وزواهر نصوصه وجواهر فصوصه، مختصرا جامعا لمعاني التفسير، ولباب التأويل والتعبير، حاويا لخلاصة منقوله، متضمنا لنكته وأصوله، مع فوائد نقلتها، وفرائد لخصتها من كتب التفسير المصنفة، في سائر علومه المؤلفة، ولم أجعل لنفسي تصرفا سوى النقل والانتخاب، مجتنبا حد التطويل والإسهاب، وحذفت منه الإسناد، لأنه أقرب إلى تحصيل المراد. . . . ثم إني عوضت من حذف الإسناد شرح غريب الحديث، وما يتعلق به، ليكون أكمل فائدة في هذا الكتاب، وأسهل على الطلاب، وسقته بأبلغ ما قدرت عليه من الإيجاز وحسن الترتيب، مع التسهيل والتقريب. أ. هـ.

هذا: ومما يؤخذ على تفسير الخازن توسعه في القصص والإسرائيليات، ومن غير نقد للمرويات الغريبة، أو تعليق على المنقولات البعيدة عن العقل والدين.

وقد أساءت شهرته بذلك إليه ككتاب تفسير، حتى صدت عنه كثيرا من الناس، وأصبح في حاجة إلى من يصفيه، ويستخلص الثمين منه. ليحتل مكانته بين كتب التفسير المعول عليها، الجديرة بمقام مؤلفها ـ رحمه الله ـ وأرضاه.

(٥) البحر المحيط (لأبي حيان):

عاش محمد بن حيان الأندلسي المشهور بأبي حيان في القرنين السابع والثامن الهجريين، إذ ولد سنة ٦٥٤ هـ وتوفى سنة ٧٤٥ هـ.

كان ـ رحمه الله ـ نابغة في نظم الشعر والموشحات، إماما في النحو والصرف، عالما في التفسير والحديث وتراجم الرجال.

ومن مؤلفاته: غريب القرآن، وشرح التسهيل، ونهاية الإعراب، وخلاصة البيان، وله منظومة على وزن الشاطبية في القراءات.

وأشهر مؤلفاته كتاب تفسير البحر المحيط، وهو كتاب مطبوع في ثمانية مجلدات، من الحجم الكبير، تغلب عليه الصناعة النحوية، ويقتبس كثيرا من تفسير الزمخشري، وتفسير ابن عطية.

ويوضح أبو حيان الطريقة التي سار عليها، فيقول:

وترتيبي في هذا الكتاب أني أبتدئ أولا بالكلام على مفردات الآية التي أفسرها لفظة لفظة، فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب... ثم أشرع في تفسير الآية ذاكرا سبب نزولها، إذا كان لها سبب، ونسخها، ومناسبتها، وارتباطها بما قبلها، حاشدا فيها القراءات. شاذها ومستعملها، ذاكرا توجيه ذلك في علم العربية، ناقلا أقاويل السلف والخلف في فهم معانيها، متكلما على جليها وخفيها، بحيث إني لا أغادر منها كلمة ـ اشتهرت ـ حتى أتكلم عليها، مبديا ما فيها من غوامض الإعراب، ودقائق الآداب، ومن بديع وبيان... ناقلا أقاويل الفقهاء الأربعة، وغيرهم في الأحكام الشرعية، مما فيه تعلق باللفظ القرآني، محيلا على الدلائل التي في كتب الفقه... ثم أختتم في جملة من الآيات التي فسرتها إفرادا وتركيبا بما ذكروا فيها من علم البيان والبديع ملخصا، ثم أتبع آخر الآيات بكلام منثور، أشرح به مضمون تلك الآيات على ما أختاره من تلك المعاني، ملخصا جملها أحسن تلخيص.

وربما ألمحت بشيء من كلام الصوفية... وتجنبت كثيرا من أقاويلهم ومعانيهم التي يحملونها الألفاظ، وتركت أقوال الملحدين الباطنية، المخرجين الألفاظ العربية عن مدلولاتها في اللغة إلى هذيان افتروه على الله، وعلى علي كرم الله وجهه، وعلى ذريته، ويسمونه التأويل. أ. هـ.

وقد جاء تفسير البحر المحيط على النهج الذي ذكره أبوحيان، غير أنه أكثر من صناعته النحوية التي نبغ فيها، حتى طغت مسائل النحو على التفسير.

وقد اختصر البحر المحيط تلميذ أبي حيان المدعو تاج الدين أحمد بن عبد القادر

ابن مكتوم سنة ٧٤٩هـ، واقتصر في المختصر على مباحثه مع ابن عطية والزمخشري ورده عليهما، وهذا المختصر مطبوع على هامش البحر المحيط.

(٦) غرائب القرآن ورغائب الفرقان (للنيسابوري):

عاش الإمام نظام الدين الحسن بن محمد الخراساني النيسابوري المعروف بالنظام الأعرج، في القرن الثامن. وكان على جانب كبير في صناعة الإنشاء وعلوم اللغة العربية، والتفسير. ومن مؤلفاته شرح متن الشافعية في فن الصرف للإمام ابن الحاجب، وهو معروف بشرح النظام. وشرح تذكرة الطوسي في علم الهيئة، وهو المسمى بتوضيح التذكرة، ورسائل في علم الحساب، وكتاب في أوقاف القرآن.

وأشهر مؤلفاته تفسيره المسمى بغرائب القرآن ورغائب الفرقان، وهو مطبوع على هامش تفسير ابن جرير الطبري، ومتداول بين أهل العلم.

أما مراجعه ومآخذه وطريقته في التفسير، فهو يبينها في مقدمته إذ يقول:

وإذ دفعني الله تعالى لتحريك القلم في أكثر الفنون المنقولة والمعقولة ـ كما اشتهر بحمد الله تعالى ومنه فيما بين أهل الزمان ـ وكان علم التفسير من العلوم بمنزلة الإنسان من العين، والعين من الإنسان، وكان قد رزقني الله تعالى من إبان الصبا، وعنفوان الشباب، حفظ لفظ القرآن، وفهم معنى الفرقان. وطالما طالبني بعض أجلة الإخوان، وأعزة الأخدان، ممن كنت مشارا إليه عندهم بالبنان في البيان، أن أجمع كتابا في علم التفسير، مشتملا على المهمات، منبئا عما وقع إلينا من ثقل الأثبات، وأقوال الثقات، من الصحابة والتابعين، ثم العلماء الراسخين، والفضلاء المحققين، المتقدمين والمتأخرين. جعل الله تعالى سعيهم مشكورا وعملهم مبرورا ـ فاستعنت بالمعبود، وشرعت في المقصود، معترفا بالعجز والقصور في هذا الفن وفي سائر الفنون، لا كمن هو بابنه وشعره مفتون، كيف وقد قال عز من قائل: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٨٥). ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٨٧). ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيراً﴾ (النساء: ٤٥).

ولما كان التفسير الكبير المنسوب إلى الإمام الأفضل، والهمام الأمثل، والحبر النحرير، والبحر الغزير، الجامع بين المعقول والمنقول، الفائز بالفروع والأصول.

أفضل المتأخرين فخر الملة والحق والدين، محمد بن عمر بن الحسين الخطيب الرازي، تغمده الله برضوانه، وأسكنه بحبوحة جنانه، اسمه مطابق لمسماه، وفيه من اللطائف والبحوث ما لا يحصى، ومن الزوائد والفتوى ما لا يخفى، فإنه قد بذل مجهوده، ونثل موجوده حتى عسر كتبه على الطالبين، وأعوز تحصيله على الراغبين. فحاذيت سياق مرامه، وأوردت حاصل كلامه، وقربت مسالك أقدامه، والتقطت عقود نظامه، من غير إخلال بشيء من الفوائد، وإهمال لما يعد من اللطائف، وضممت إليه ما وجدت في الكشاف وفي سائر التفاسير من اللطائف المهمات، أو رزقني الله تعالى من البضاعة المزجاة، وأثبت القراءات المعتبرات والوقوف المعللات، ثم التفسير المشتمل على المباحث اللفظيات والمعنويات مع إصلاح ما يجب إصلاحه، وإتمام ما ينبغي إتمامه من المسائل الموردة في التفسير الكبير والاعتراضات، ومع كل ما يوجد في الكشاف من المواضع المعضلات سوى الأبيات المعتقدات، فإن ذلك يوردها من ظن أن تصحيح القراءات، وغرائب القرآن إنما يكون بالأمثال والمستشهدات، كلا. فإن القرآن حجة على غيره، وليس حجة عليه... وذكرت طرفا من الإشارات المقنعات، والتأويلات الممكنات، والحكايات والمبكيات، والمواعظ الرادعة عن المنهيات، الباعثة على أداء الواجبات.

وقال في آخر تفسيره: وقد يضمن كتابي هذا حاصل التفسير الكبير، الجامع لأكثر التفاسير، وجل كتاب الكشاف، الذي رزق القبول من أساتذة الأطراف والأكناف، واحتوى مع ذلك على النكت المستحسنة الغريبة، والتأويلات المحكمة العجيبة، مما لم يوجد في سائر تفاسير الأصحاب.

أما الأحاديث، فإما من الكتب المشهورة، كجامع الأصول والمصابيح وغيرهما، وإما من كتاب الكشاف والتفسير الكبير ونحوهما إلا الأحاديث الموردة في الكشاف في فضائل السور، فإنا قد أسقطناها، لأن النقد زيفها إلا ما شذ منها.

وأما الوقوف فللإمام السجاوندي، مع اختصار لبعض تعليلات، وإثبات للآيات، لتوقفها عن التوقيف.

وأما أسباب النزول، فمن كتاب جامع الأصول، والتفسيرين، أو من تفسير الواحدي، وأما اللغة فمن صحاح الجوهري، ومن التفسيرين كما نقلا.

وأما المعاني والبيان، وسائر المسائل الأدبية، فمن التفسيرين والمفتاح وسائر الكتب العربية.

وأما الأحكام الشرعية فمنهما ومن الكتب المعتبرة في الفقه، ولا سيما شرح الوجيز للإمام الرافعي.

وأما التأويل فأكثرها للشيخ المحقق المتقي المتقن، نجم الملة والدين، المعروف بداية ـ قدس نفسه وروح دمه. وطرف منها مما دار بخلدي، وسمحت به ذات يدي، غير جازم بأنه المراد من الآية.

وإني لم أمل في هذا الإملاء إلا مذهب أهل السنة والجماعة. فبينت أصولهم، ووجوه استدلالهم؛ وما ورد عليها من الاعتراضات، والأجوبة عنها أ. هـ.

والحق أن النيسابوري اتبع في تفسيره طريقة فريدة طيبة.

فهو وإن اعتمد على تفسير الفخر الرازي، فإنه لم ينقل نقلا، بل كان له رأيه المستقل، وطريقته الخاصة، فإنه يذكر الآية، ثم يذكر القراءات منسوبة إلى أصحابها، من غير أن يتجاوز القراء العشرة، ثم يذكر الوقوف مع التعليل لكل وقف منها، ثم يشرع في التفسير مبتدئا بذكر المناسبة؛ وربط اللاحق بالسابق، ثم يبين معاني الآيات بأسلوب بليغ، مع إظهار المضمرات، وتأويل المتشابهات، وتصريح الكنايات، وتحقيق المجاز والاستعارات، وتفصيل المذاهب الفقهية، مع توجيه أدلة كل مذهب.

وهو وإن اعتمد على تفسير الكشاف للزمخشري، فإنه كثيرا ما ينبه على الفساد؛ ويكمل النقص، ويتصرف في العبارة، بل أحيانا ينقل ما ذكره الكشاف وما اعترض به عليه الفخر الرازي، وينصب نفسه حكما بين الإمامين، ويبدي رأيه بحرية فكرية، واستقلال رأي.

ثم إن النيسابوري ينحو في تفسيره نحو التفسير الإشاري، ويختم تفسير الآيات بما يفتح الله به عليه مما يذهب إليه أهل الحقيقة من المتصوفة. ولكونه صوفيا كبيرا نجده يستطرد كثيرا إلى المواعظ المبكيات والحكم الغاليات.

هذا. ويتهمه البعض بالتشيع، والتحقيق أنه محافظ على مذهب أهل السنة والجماعة.

(٧) تفسير الجلالين (لجلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي):

عاش الإمام جلال الدين المحلي في القرنين الثامن والتاسع الهجريين. إذ ولد بمصر سنة ٧٩١ هـ، وتوفي سنة ٨٦٤ هـ.

ومن مؤلفاته شرح جمع الجوامع في الأصول، وشرح المنهاج في فقه الشافعية، وشرح الورقات في الأصول.

وأما تفسيره، فكان لنصف القرآن الأخير، من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس. بعبارة موجزة. مكتفيا بأرجح الأقوال، وإعراب الضروري من الكلام، والتنبيه على القراءات المشهورة. وقد توفي الإمام جلال الدين المحلي قبل أن يتم تفسيره، فرغب الناس في نهجه، وحرصوا على إتمامه، فطلبوا من الإمام جلال الدين السيوطي، المولود سنة ٨٤٩هـ. أن يكمله، فقام بتفسير النصف الأول من القرآن. متبعا نفس منهج المحلي، ملتزما خطوطه العريضة، محافظا على نسقه قدر الطاقة، فجاء تفسير السيوطي مشابها لتفسير المحلي، حتى لا يكاد أحد يفرق بين التفسيرين ولا يكاد يحس أن الكتاب لمفسرين.

ويذكر أن السيوطي فسر النصف الخاص به في نحو أربعين يوما. وقد بلغ هذا التفسير من الإيجاز حدّا دفع بعض علماء اليمن إلى أن يعد حروفه فوجدها مساوية لحروف القرآن إلى سورة المزمل، ومن سورة المدثر التفسير زائد على القرآن، ومن هنا حكم بجواز حمله بغير وضوء.

والكتاب من أوسع كتب التفسير انتشارا وتداولا بين أهل العلم برغم اختصاره. وطبع مرات عديدة، وظفر بكثير من تعليقات العلماء، وحواشيهم عليه. ومن أهم هذه الحواشي حاشية الجمل وحاشية الصاوي.

(٨) السراج المنير (للخطيب الشربيني):

عاش الإمام محمد الشربيني بالقاهرة في القرن العاشر الهجري، إذ كانت وفاته سنة ٩٧٧هـ.

ومن مؤلفاته شرح المنهاج، وكتاب التنبيه وأهمها «السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير».

والكتاب وسط، لا هو بالطويل ولا هو بالقصير، مطبوع في أربعة مجلدات، ومتداول بين أهل التفسير.

وطريقته في التفسير تبدأ بنقل بعض تفسيرات السلف المأثورة، ثم يذكر آراء بعض من سبقه من المفسرين وخصوصا الزمخشري والبيضاوي، والبغوي، والفخر الرازي، وكثيرا ما يناقش هذه الآراء ويؤيدها أو ينقضها وهو يهتم بالنكت التفسيرية، وبإيراد الإشكالات والإجابة عنها، وبالربط بين الآيات وعقد المناسبة بينها، وقد يستطرد بذكر الأحكام الفقهية.

ومن محاسنه تعقبه للزمخشري والبيضاوي في الأحاديث التي ذكراها في فضائل القرآن، وسوره، وتنبيهه على الأحاديث الضعيفة منها والموضوعة.

ولكنه مع هذا خاض في القصص الإسرائيلي الغريب، ولم يتعقبه بالنقد أو التضعيف، حتى تغلب الجانب القصصي على بقية جوانب التفسير.

(٩) إرشاد العقل السليم (لأبي السعود):

عاش الإمام أبو السعود محمد بن محمد العمادي الحنفي بإحدى القرى القريبة من القسطنطينية في القرنين التاسع والعاشر الهجريين، إذ ولد سنة ٨٩٣ هـ وتوفي بمدينة القسطنطينية سنة ٩٨٢هـ.

تولى أمر القضاء والفتوى أكثر من ثلاثين عاما، ومن مؤلفاته بعض الحواشي على تفسير الزمخشري.

وكتابه في التفسير ـ المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ـ جامع بين العلم والأدب، كاشف عن أسرار البلاغة القرآنية.

ومع أن أبا السعود أشاد في مقدمته بتفسير البيضاوي، وتفسير الكشاف، فإنه لم يظهر على تفسيره أنه منقول منهما، لما كان له من أسلوب رصين، وكيان مستقل، ورأى قوي، واتجاه خاص، وتخطيط سليم، يبرز فيه سر إعجاز القرآن في نظمه وأسلوبه، ويعني بتجلية الفصل والوصل، والإيجاز والإطناب، والتقديم والتأخير، والاعتراض والتذييل. وهو في هذه الناحية مرجع المفسرين المتأخرين،

وهو كثير الاهتمام بمناسبة الآيات، والإلمام ببعض القراءات، مقل من الإسرائيليات، ومن الاستطراد في الفروع الفقهية والنحوية.

لكنه أخذ عليه ما أخذ على الزمخشري والبيضاوي من أنه ذكر في آخر كل سورة حديثا عن النبي ﷺ في فضلها، وثواب قارئها. مع أن أكثر هذه الأحاديث من الضعاف بل من الموضوعات.

والكتاب مطبوع في خمسة أجزاء متداول بكثرة بين أهل التفسير.

(١٠) روح المعاني (للآلوسي):

عاش شهاب الدين السيد محمود أفندي الآلوسي البغدادي في القرن الثالث عشر الهجري إذ ولد سنة ١٢١٧هـ، وتوفى سنة ١٢٧٠هـ.

وكان ـ رحمه الله تعالى ـ عالما فذا ـ سلفي الاعتقاد، شافعي المذهب، يقلد في كثير من المسائل أبا حنيفة النعمان.

وتفسيره «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» مرجع المراجع في التفسير جامع لآراء السلف، مشتمل على أقوال الخلف.

ينقل عن ابن عطية. وتفسير أبي حيان، وتفسير الكشاف، وتفسير أبي السعود، وتفسير البيضاوي، وتفسير الفخر الرازي، وغيرها من التفاسير، حتى عد كتابه موسوعة في التفسير.

وهو إذ ينقل من هنا وهناك ينتقي المنقول، ويقف منه موقف الفاحص الخبير، الناقد البصير، يتعقب هذا تارة، وذاك أخرى، ويهاجم مواطن الاعتزال والتشيع، بأسلوب شديد، ولسان جارح مصيب.

ثم هو شديد الانتقاد للإسرائيليات والأخبار الموضوعة، الدخيلة في كتب التفسير. يعرض كثيرا للقراءات من غير تقيد بالمتواتر منها، ويعنى كل العناية بالمناسبات وربط الآيات، كما يعنى بأسباب النزول.

هذا. والآلوسي يتعرض في أواخر الآيات للتفسير الإشاري، فيقول: ومن باب

الإشارة كذا . . . ولهذا عده بعض العلماء من التفسير الإشاري، ولكن الحق أنه من قبيل التفسير بالرأي المحمود، لأن التفسير الإشاري فيه غير مقصود.

والكتاب مطبوع متداول بين أهل العلم، ويقع في ثلاثين جزءا من الحجم الكبير. والله أعلم.

الفقهاء والتفسير

مراد القوم من التفسير الفقهي: أنه هو التفسير الذي يغلب عليه الأحكام الفرعية، حتى تكون طابعه، وإن اشتمل على تفسير آيات القرآن تفسيرا عاما.

ويتنوع التفسير الفقهي بتنوع المذاهب؛ فلفقهاء الشيعة تفسير يتناول أحكام مذاهبهم، وللخوارج تفسير فقهي، وللظاهرية تفسير فقهي، ولأهل السنة تفسير فقهي، والذي يعنينا هو أخذ فكرة عن الكتب الشائعة والمتداولة من هذه التفاسير.

التفسير الفقهي عند الشيعة الإمامية الاثنى عشرية:

كنز العرفان في فقه القرآن (لمقداد السيوري):

وهو أحد علماء الإمامية الاثنى عشرية، عاش في أواخر القرن الثامن الهجري وأوائل القرن التاسع الهجري.

وطريقته في التفسير ليست على النظام المعتاد للتفسير، بذكر الآيات القرآنية وشرحها، وإنما على طريقة كتب الفقه، يعقد، أبوابا، ثم يذكر الآيات الخاصة بكل باب ويفسرها، مجتهدا في حملها على مذهبه.

والكتاب مطبوع على هامش تفسير الحسن العسكري.

التفسير الفقهي عند الشيعة الزيدية:

الثمرات اليانعة والأحكام الواضحة القاطعة (ليوسف الثلاثي الزيدي):

عاش المؤلف في أواخر القرن الثامن الهجري وأوائل القرن التاسع الهجري، إذ توفى سنة ٨٣٢هـ.

وطريقته في التفسير تسير مع آيات القرآن بترتيبها في المصحف، لكنه لا يفسر كل الآيات، بل يفسر آيات الأحكام فقط، متحيزا لمذهبه، كثير النقل عن الكشاف. والكتاب مخطوط في ثلاثة أجزاء.

التفسير الفقهي عند أهل السنة:

أحكام القرآن (للجصاص الحنفي):

المؤلف هو أبو بكر أحمد بن على الرازي، المشهور بالجصاص، ولد ببغداد سنة ٣٠٥هـ، وتوفى سنة ٣٧٠هـ.

ويعد هذا التفسير من أهم كتب التفسير الفقهي عند الحنفية.

وطريقته في التفسير تقوم على أساس الآيات المتعلقة بالأحكام الفقهية، حسب ترتيبها في المصحف، وهو كثير الاستطراد لفروع المسائل، حتى يبتعد عن التفسير، وتنقطع علاقته بالآية التي يوردها.

وهو شديد التعصب للمذهب الحنفي، متعسف في تأويل كثير من الآيات مهاجم لمخالفيه، وخصوصا الإمام الشافعي، بلسان غير عف، وبعبارات لا تليق بمكانة العلماء الأجلاء.

والكتاب مطبوع في ثلاثة مجلدات، ومتداول بين أهل العلم.

أحكام القرآن (لصاحبه الكيا الهراسي الشافعي):

المؤلف هو أبو الحسن على بن محمد بن على الطبري، المعروف بالكيا (كلمة أعجمية معناها كبير القَدْر) المولود سنة ٤٥٠هـ، والمتوفى سنة ٥٠٤هـ.

والكتاب يعد من أهم المؤلفات في التفسير الفقهي عند الشافعية، لأن مؤلفه لا يقل في تعصبه للشافعية عن الجصاص في تعصبه للحنفية، غير أنه في مناظراته عف اللسان، ملتزم أدب العلماء مع العلماء، اللهم إلا في رده على الجصاص، فقد قابل تسلط اللسان بتسلط لسان، والعين بالعين.

وهو يتعرض بالتفسير لآيات الأحكام فقط، والكتاب مخطوط في مجلد كبير، موجود في دار الكتب المصرية.

أحكام القرآن (لابن العربي المالكي):

المؤلف هو محمد بن عبد الله بن محمد الأندلسي المولود سنة ٤٦٨ هـ المتوفى سنة ٥٤٣ هـ. والكتاب يتعرض لسور القرآن كلها مقتصرا على تفسير آيات الأحكام فقط، وهو غير مفرط في التعصب للمالكية وإن تعرض لمخالفيه أحيانا بلسان غير عف.

والكتاب مطبوع في مجلدين، ومتداول بين أهل العلم.

الجامع لأحكام القرآن (للقرطبي المالكي):

المؤلف هو الإمام محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي المتوفى سنة ٦٧١ هـ.

ومن مصنفاته «شرح أسماء الله الحسنى» وكتاب «التذكار في أفضل الأذكار» وكتاب «التذكرة بأمور الآخرة» وكتاب «شرح التقصي»، وكتاب «قمع الحرص بالزهد والقناعة، ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة».

ومن أسماء هذه الكتب يتبين لنا أنه كان زاهدا متصوفا، حتى قيل: إنه من تقشفه كان يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية.

وأهم مؤلفاته تفسير «الجامع لأحكام القرآن» الذي يصفه العلامة ابن فرحون صاحب «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب» فيقول:

هو من أجل التفاسير وأعظمها نفعا، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن، واستنباط الأدلة، وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ. أ. هـ.

ويقول القرطبي في مقدمته: وشرطي في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى

قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها، فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله. وكثيرا ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهما، لا يعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائرا، لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علم جسيم. . . . وأضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، إلا ما لابد منه، ولا غنى عنه للتبيين، واعتضت من ذلك تبيين الأحكام، بمسائل تفسر عن معناها، وترشد الطالب إلى مقتضاها، فضمنت كل آية تتضمن حكما أو حكمين، فما زاد، مسائل أبين فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول والتفسير، والحكم، فإن لم تتضمن حكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل، وهكذا إلى آخر الكتاب. أ. هـ.

والقرطبي منصف غير واضح التعصب للمذهب، عف اللسان.

وكل ما يؤخذ على الكتاب أنه أفرط في الأحكام الفرعية، وانتقل من مسألة إلى مسألة ومن فروع إلى فروع حتى بعد عن التفسير إلى حد كبير.

وقد قامت دار الكتب المصرية بطبع الكتاب في عشرين جزءا، وأصبح واسع الانتشار والتداول بين أهل العلم.

التفسير العلمي ونماذج منه

يقصد بالتفسير العلمي التفسير الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن، ويحاول استخراج العلوم المختلفة من آياته.

والإمام الغزالي من أبرز من أيد هذا النوع من التفسير، وعمل على ترويجه في الأوساط العلمية؛ فهو في كتابه «جواهر القرآن» يقسم علوم القرآن إلى قسمين:

الأول: علم الصدف والقشر، وجعل منه علم اللغة والنحو والقراءات، ومخارج الحروف، وعلم التفسير الظاهر.

والثاني: علم اللباب، وجعل منه علم قصص الأولين، وعلم الكلام، وعلم الفقه، وعلم أصول الفقه، والعلم بالله واليوم الآخر، والعلم بالصراط المستقيم وطريق السلوك.

ثم يعقد الفصل الخامس من الكتاب لكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن، فيذكر علم الطب والنجوم، وهيئة العالم، وهيئة بدن الحيوان، وتشريح أعضائه، وعلم السحر وغير ذلك.

ثم يقول: وراء ما عددته علوم أخرى، يعلم تراجمها، ولا يخلو العالم ممن يعرفها، ولا حاجة إلى ذكرها.

بل أقول: ظهر لنا بالبصيرة الواضحة، التي لا يتمارى فيها أن في الإمكان والقوة أصنافا من العلوم. بعد لم تخرج إلى الوجود، وإن كان في قوة الآدمي الوصول إليها، وعلوم كانت قد خرجت من الوجود واندرست الآن، فلن يوجد في هذه الأعصار، على بسيط الأرض من يعرفها، وعلوم أخرى ليس في قوة البشر أصلا إدراكها، والإحاطة بها، ويحظى بها بعض الملائكة المقربين، فإن الإمكان في حق الآدمي محدود، والإمكان في حق الملك محدود، إلى غاية من النقصان، وإنما الله سبحانه وتعالى هو الذي لا يتناهي العلم في حقه.

ثم يقول: ثم هذه العلوم ما عددناها وما لم نعددها، ليست أوائلها خارجة عن القرآن، فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى، وهو بحر الأفعال، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له، وأن البحر لو كان مدادا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد.

فمن أفعال الله تعالى وهو بحر الأفعال ـ مثلا ـ الشفاء والمرض، كما قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء: ٨٠). وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه.

ومن أفعاله تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان، وقد قال الله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (الرحمن: ٥). وقال: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ (يونس: ٥). وقال: ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (القيامة: ٨، ٩). وقال ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ (لقمان: ٢٩... إلخ). وقال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (يس: ٣٨).

ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان، وخسوفهما، وولوج الليل في النهار وكيفية تكور أحدهما على الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض، وهو علم برأسه.

ولا يعرف كمال معنى قوله: ﴿ يَأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ (الانفطار: ٦ ـ ٨). إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهرا وباطنا وعددها، وأنواعها، وحكمتها، ومنافعها، وقد أشار في القرآن في مواضع إليها؛ وهي من علوم الأولين والآخرين، وفي القرآن مجامع علم الأولين والآخرين.

وكذلك لا يعرف معنى قوله: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ (الحجر: ٢٩، ص: ٧٢)، من لم يعلم التسوية والنفخ، والروح، ووراءها علوم غامضة، يغفل عن طلبها أكثر الخلق؛ وربما لا يفهمونها إن سمعوها من العالم بها.

ولو ذهبت أفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال، ولا تمكن الإشارة إلا إلى مجامعها.

فتفكر في القرآن، والتمس غرائبه، لتصادف فيها مجامع علم الأولين والآخرين، أ. هـ.

وينحو السيوطي نحو الغزالي، ويسوق كثيرا من الآيات والأحاديث والآثار، مستدلا بها على أن القرآن مشتمل على كل العلوم.

ثم يذكر لنا عن بعض العلماء أنه استنبط أن عمر النبي ﷺ ثلاث وستون سنة، من قوله تعالى في سورة (المنافقون: ١١) ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾. فإنها رأس ثلاث وستين سورة، وعقبها بالتغابن، ليظهر التغابن في فقده ﷺ. ثم ذكر عن أبي الفضل المرسي أنه قال في تفسيره:

جمع القرآن علوم الأولين والآخرين، بحيث لم يحط بها علما حقيقة إلا المتكلم به، ثم رسول الله ﷺ، خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى. ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم، مثل الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، حتى قال: لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى.

ثم ورث عنهم التابعون بإحسان، ثم تقاصرت الهمم، وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه، فنوعوا علومه، وقامت كل طائفة بفن من فنونه.

فاعتنى قوم بضبط لغاته، وتحرير كلماته، ومعرفة مخارج حروفه، وعددها، وعدد كلماته، وآياته، وسوره، وأحزابه، وأنصافه، وأرباعه، وعدد سجداته، والتعليم عند كل عشر آيات. إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة، والآيات المتماثلة، من غير تعرض لمعانيه، ولا تدبر لما أودع فيه؛ فسموا القراء.

واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبني، من الأسماء والأفعال، والحروف العاملة وغيرها، وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها، وضروب الأفعال، واللازم والمتعدى، ورسوم خط الكلمات، وجميع ما يتعلق به، حتى إن بعضهم أعرب عن مشكله، وبعضهم أعربه كلمة كلمة.

واعتنى المفسرون بألفاظه، فوجدوا منها لفظا يدل على معنى واحد، ولفظا يدل على أكثر، فأجروا الأول على حكمه، وأوضحوا معنى الخفي منه، وخاضوا في ترجيح أحد محتملات ذي المعنيين أو المعاني، وأعمل كل منهم فكره، وقال بما اقتضاه نظره.

واعتنى الأصوليون بما فيها من الأدلة القطعية، والشواهد الأصلية والنظرية، مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢). إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، فاستنبطوا منها أدلة على وحدانية الله، ووجوده، وبقائه، وقدمه، وقدرته، وعلمه، وتنزيهه عما لا يليق به، وسموا هذا العلم بأصول الدين.

وتأملت طائفة منهم معاني خطابه، فرأت منها ما يقتضي العموم، ومنها ما يقتضي الخصوص إلى غير ذلك، فاستنبطوا منه أحكام اللغة، من الحقيقة والمجاز، وتكلموا في التخصيص، والإضمار، والنص، والظاهر والمجمل، والمحكم، والمتشابه والأمر، والنهي، والنسخ.... إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة، واستصحاب الأصل، والاستقراء. وسموا هذا الفن أصول الفقه.

وأحكمت طائفة صحيح النظر، وصادق الفكر، فيما فيه من الحلال والحرام، وسائر الأحكام، فأسسوا أصوله، وفرعوا فروعه، وبسطوا القول في ذلك بسطا حسنا، وسموه بعلم الفروع، وبالفقه أيضا.

وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السابقة، والأمم الخالية، ونقلوا أخبارهم ودونوا آثارهم ووقائعهم، حتى ذكروا بدء الدنيا، وأول الأشياء، وسموا ذلك بالتأريخ.

وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال، والمواعظ التي تقلقل قلوب الرجال، وتكاد تدكدك الجبال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد، والتحذير والتبشير، وذكر الموت والمعاد، والنشر والحشر، والحساب، والعقاب، والجنة والنار، فصولا من المواعظ، وأصولا من الزواجر، فسموا بذلك الخطباء والوعاظ.

واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير، مثل ما ورد في قصة يوسف في البقرات السمان، وفي منامي صاحبي السجن، وفي رؤيا الشمس والقمر والنجوم ساجدة، وسموه تعبير الرؤيا. واستنبطوا كل رؤيا من الكتاب، فإن عز عليهم إخراجها منه، فمن السنة التي هي شارحة للكتاب، فإن عز فمن الحكم والأمثال، ثم نظروا إلى اصطلاح العوام في مخاطباتهم، وعرف عاداتهم، الذي أشار إليه القرآن بقوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

وأخذ قوم مما في آية المواريث من ذكر السهام وأربابها، وغير ذلك علم الفرائض، واستنبطوا منها من ذكر النصف والثلث والربع والسدس والثمن حساب الفرائض، ومسائل العدل، واستخرجوا منها أحكام الوصايا.

ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم الباهرة، في الليل والنهار، والشمس والقمر، ومنازله، والبروج، وغير ذلك، فاستخرجوا منه علم المواقيت.

ونظر الكتاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ، وبديع النظم، وحسن السياق والمبادئ والمقاطع والمخالص، والتلوين في الخطاب، والإطناب والإيجاز، وغير ذلك، فاستنبطوا منه المعاني والبيان البديع.

ونظر فيه أرباب الإشارات، وأصحاب الحقيقة، فلاح لهم من ألفاظه معان

ودقائق، جعلوا لها أعلاما، اصطلحوا عليها، مثل الفناء والبقاء، والحضور، والخوف، والهيبة، والأنس، والوحشة، والقبض والبسط، وما أشبه ذلك.

هذه الفنون أخذتها الملة الإسلامية منه، وقد احتوى على علوم أخر، من علوم الأوائل، مثل الطب، والجدل والهيئة، والهندسة والجبر، والمقابلة والنجامة، وغير ذلك من العلوم.

أما الطب، فمداره على حفظ نظام الصحة، واستحكام القوة. وذلك إنما يكون باعتدال المزاج، وبتفاعل الكيفيات المضادة، وقد جمع ذلك في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧).

وعرفنا فيه بما يفيد نظام الصحة بعد اختلاله، وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله تعالى: ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ (النحل: ٦٩).

ثم زاد على طب الأجسام بطب القلوب وشفاء الصدور.

وأما الهيئة، ففي تضاعيف سورة من الآيات التي ذكر فيها ملكوت السموات والأرض، وما بث في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات.

وأما الهندسة، ففي قوله تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ (المرسلات: ٣٠، ٣١). فإن فيه قاعدة هندسية، وهي أن الشكل المثلث لا ظل له.

وأما الجدل، فقد حوت آياته من البراهين، والمقدمات، والنتائج، والقول بالموجب، والمعارضة، وغير ذلك شيئا كثيرا، ومناظرة إبراهيم نمرود، ومحاجته قومه، أصل في ذلك عظيم.

وأما الجبر والمقابلة، فقد قيل: إن أوائل السور فيها مدد وأعوام وأيام التواريخ لأمم سابقة، وإن بقاء الأمة، وتاريخ مدة أيام الدنيا وما مضى وما بقي، مضروب بعضها في بعض.

وأما النجامة ففي قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ (الأحقاف: ٤). فقد فسره بذلك ابن عباس.

وفيه أصول الصنائع، وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها، كالخياطة، في قوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا﴾ الأعراف: ٢٢، طه: ١٢١). والحدادة: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ (الكهف: ٩٦). والبناء في آيات. والنجارة: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (هود ٣٧). والغزل: ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ (النحل: ٩٢). والنسيج ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ (العنكبوت: ٤١). والفلاحة: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ (الواقعة: ٦٣)، الآيات. والصيد في آيات. والغوص: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ (ص: ٣٧). ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً﴾ (النحل: ١٤). والصياغة: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ (الأعراف: ١٤٨). والزجاجة: ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ (النمل: ٤٤)، ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ (النور: ٣٥). والفخارة: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ (القصص: ٣٨). والملاحة: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ (الكهف: ٧٩). والكتابة: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (العلق: ٤)، وفي آيات أخر. والخبز: ﴿أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾ (يوسف: ٣٦). والطبخ: ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ (هود: ٦٩). والجزارة ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ (المائدة: ٣). والبيع والشراء: في آيات. والصبغ: ﴿جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ (فاطر: ٢٧). والحجارة: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ (الشعراء: ١٤٩). والكيالة والوزن في آيات كثيرة. والرمي: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ (الأنفال: ١٧). ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠).

وفيه من أسماء الآلات، وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات وجميع ما وقع ويقع في الكائنات ما يحقق معنى قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨). وقال السيوطي: انتهى كلام المرسي ملخصا مع زيادات.

هذه النقول تمثل جانب التأييد والدعوة إلى التفسير العلمي، ويقابلها دعوة أخرى تعارضها، وحملة تقف أمامها، ويمثلها الإمام الشاطبي، ويشرح رأيه ويدلل عليه في كتابه «الموافقات».

والتحقيق أن القرآن يشتمل على كثير من العلوم، ولكن مغالاة الغزالي والمرسي والسيوطي في استنباط العلوم منه مغالاة يظهر فيها التكلف، وتحميل الألفاظ ما لا تحتمل.

وإذا كان هدفهم ـ بهذا ـ الرفع من قدر القرآن، فالقرآن أرفع من أن يعتز بمثل هذا التكلف .

وحسب القرآن أنه صالح لكل زمان ومكان، ولا يصادم شيئا من القوانين العلمية الصحيحة . وهو ليس كتاب علم خاص، ولكنه كتاب هداية البشر، ونشر لواء الفضيلة بين الناس .

التفسير بالرأي المذموم

والتفسير بالرأي المذموم هو تفسير الفرق المبتدعة، وهي كما نعلم درجات في الابتداع، تبدأ بالانحراف والفسق، وتنتهي بالكفران والضلال، والعياذ الله .

وكل من هذه الفرق ينظر إلى القرآن من زاوية عقيدته، ويحاول تفسيره وحمله على نحلته . وحصر هذه التفسيرات المنحرفة في كتب المنحرفين مهمة شاقة، وجمعها ونقدها جدير بكتاب خاص، ومؤلف كبير، وتلك مهمة سامية، وأمل كبير . وواجب حتمي على المشتغلين بالتفسير . ويضيق بنا المقال، في هذا المجال فنكتفي بالإشارة، ونرضى بالعجالة، حتى يهيىء الله لنا سبل البسط، ويفتح علينا باب الفيض والتوفيق، وهو ولينا ونعم النصير .

المعتزلة والتفسير

وقبل الكلام عن تفسير المعتزلة نوجز أهم المسائل التي خالفوا فيها أهل السنة، وهي :

(١) أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن وليس بكافر، بل هو في منزلة بين المنزلتين، فإذا مات بدون توبة مقبولة فهو مخلد في النار .

(٢) أن الله يجب عليه أن يثيب المطيع، وأن يعاقب العاصي، ولا يجوز العفو عن مرتكب الكبيرة، ولا دخوله في شفاعة .

(٣) أن فعل الأصلح واجب على الله تعالى .

(٤) أن رؤية الله تعالى مستحيلة في الدنيا والآخرة .

(٥) أن صفات الباري عين ذاته.

(٦) أن أفعال العباد الاختيارية مخلوقة لهم، وأن الهداية والضلال من العبد.

(٧) أن الحسن والقبح ذاتي للأفعال.

(٨) أن الله لا يأمر إلا بما يريد.

(٩) أن الجنة والنار ليستا موجودتين الآن.

(١٠) أن الحرام ليس برزق.

والمفسرون من المعتزلة منهم متغال في التحميل والتأويل، خارج بالقرآن إلى معان بعيدة شاردة، مجاهر بالمخالفة، متبجح في الخروج عن سواء السبيل. ومنهم المقتصد في القول، والمتستر في النزعة، المنمق للعبارة. الذي يدس البدعة دون أن يفطن إليها الناس.

ومن فضل الله ورحمته أن اندثر كثير من كتب المعتزلة، ولم يكتب لها التداول والذيوع، بل كتب عليها الضياع والإهمال.

وتحدثنا كتب الرجال وطبقات المفسرين أن كثرة كثيرة من شيوخ المعتزلة ألفوا في التفسير، ولكن الذي وصل إلينا قليل.

فمن أشهر من صنف في التفسير منهم ابن الأصم المتوفى سنة ٢٤٠هـ، والجبائي المتوفى سنة ٣٠٢هـ، والبلخي الكعبي المتوفى سنة ٣١٩ هـ، وقد قيل إنه ألف تفسيرا يقع في اثنى عشر مجلدا، وأبو مسلم الأصفهاني المتوفي سنة ٣٢٢هـ، ويقال إنه ألف تفسيرا يقع في اثنى عشر مجلدا، وقيل في عشرين مجلدا. والروماني المتوفى سنة ٣٨٤هـ، وعبد السلام القزويني المتوفى سنة ٤٨٣هـ، قال عنه السيوطي في طبقات المفسرين: إنه جمع التفسير الكبير الذي لم يرد في التفاسير أكبر منه، ولا أجمع للفوائد، لولا أنه مزجه بكلام المعتزلة وبث فيه معتقده وهو في ثلاثمائة مجلد، منها سبع مجلدات في الفاتحة. أ. هـ.

وسنعرض لثلاثة كتب هي أشهر كتب المعتزلة التي وصلت إلينا، ونبين نبذة من

تأويلاتهم الاعتزالية لآيات القرآن، على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، لنصل من وراء ذلك إلى الحكم على تفسير المعتزلة.

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن (للقاضي عبد الجبار):

عاش قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار شيخ المعتزلة في القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس الهجري، وكانت وفاته سنة ٤١٥هـ.

ومن مؤلفاته كتاب الخلاف والوفاق، وكتاب المبسوط، وكتاب المحيط، وكلها في علم الكلام. وألف في الأصول: النهاية والعمدة، وفي المواعظ: نصيحة المتفقهة. قال ابن كثير: ومن أجل مصنفاته وأعظمها كتاب دلائل النبوة في مجلدين أ. هـ. أما كتابه «تنزيه القرآن عن المطاعن»، فإنه ليس على نمط كتب التفسير؛ إذ لم يعرض لتفسير القرآن آية آية، وإنما هو أشبه بالتفسير الموضوعي منه بالتفسير العام، إذ كان هدفه الفصل بين المحكم والمتشابه، وبيان معاني الآيات المتشابهات، فلم يتعرض لجميع آيات القرآن بالتفسير، وإنما تناول تفسير الآيات التي تعنيه، وتخص موضوع بحثه. ويقول في مقدمة كتابه:

إنه لا ينتفع بكتاب الله إلا بعد الوقوف على معاني ما فيه، وبعد الفصل بين محكمه ومتشابهه. . . . ثم قال: وقد أملينا في ذلك كتابا يفصل بين المحكم والمتشابه، عرضنا فيه سور القرآن على ترتيبها، وبينا معاني ما تشابه من آياتها مع بيان وجه خطإ فريق من الناس في تأويلها، ليكون النفع به أعظم.

أمثلة من تفسيره الاعتزالي:

الهداية والإضلال: سبق أن قلنا إن من عقائد المعتزلة أن الهداية والضلال من فعل العبد، ولذا فإنهم يؤولون الآيات التي تسند الهداية والإضلال لله تعالى بما يتفق وعقيدتهم. يقول القاضي عبد الجبار في تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ (البقرة: ٧). مسألة: قالوا: هذا يدل على أنه منعهم من الإيمان، ومذهبكم بخلافه، فكيف تأويل الآية؟

وجوابنا أن للعلماء في ذلك جوابين:

أحدهما: أنه شبه حالهم بحال الممنوع الذي على بصره غشاوة من حيث أزاح كل عللهم فلم يقبلوا، كما قد تعين للواحد الحق، فتوضحه، فإذا لم يقبل صح أن تقول: إنه حمار قد طبع الله على قلبه، وربما تقول: إنه ميت، وقد قال تعالى للرسول: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ (النمل: ٨٠)، وكانوا أحياء، فلما يقبلوا شبههم بالموتى، وهو كقول الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي

ويبين ذلك أنه تعالى ذمهم، ولو كان هو المانع لهم لما ذمهم، وأنه ذكر في جملة ذلك الغشاوة على سمعهم وبصرهم، وذلك لو كان ثابتا لم يؤثر في كونهم عقلاء مكلفين.

والجواب الثاني: أن الختم علامة يفعلها تعالى في قلبهم، لتعرف الملائكة كفرهم، وأنهم لا يؤمنون، فتجمع على ذمهم، ويكون ذلك لطفا لهم، ولطفا لمن يعرف ذلك من الكفار أو يظنه، فيكون أقرب إلى أن يقلع عن الكفر.

رؤية الله تعالى: ومن عقائد المعتزلة أيضا أن رؤية الله تعالى بالأبصار مستحيلة في الدنيا والآخرة، ولهذا يقول القاضي عبد الجبار في تفسير قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٣). مسألة: وربما قيل: إنه أقوى دليل على أن الله تعالى يُرى في الآخرة.

وجوابنا أن من تعلق بذلك، إن كان ممن يقول بأن الله تعالى جسم، فإنا لا ننازعه في أن الله يرى، بله في أنه يصافح ويعنق ويلمس، تعالى الله عن ذلك؛ وإنما نكلمه في أنه ليس بجسم، وإن كان ممن ينفي التشبيه عن الله فلابد من أن يعترف بأن النظر إلى الله تعالى لا يصح، لأن النظر هو تقلب العين الصحيحة نحو الشيء طلبا لرؤيته، وذلك لا يصح إلا في الأجسام، فيجب أن يتأول على ما يصح النظر إليه وهو الثواب، كقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ (يوسف: ٨٢). فإنا تأولناه على أهل القرية لصحة المسألة منهم. ويبين ذلك أن الله ذكر ذلك ترغيبا في الثواب، كما ذكر قوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٤، ٢٥) زجرا عن العقاب، فيجب حمله على ما ذكرناه. أ. هـ.

أفعال العباد: ومن عقائد المعتزلة أيضا أن الله لا يخلق أفعال العباد الاختيارية. وتأييدا لهذه العقيدة، يقول القاضي عبد الجبار في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ (الأنفال: ١٧). يقول: مسألة: وربما قيل: كيف يصح ذلك مع القول بأن الله تعالى لا يخلق أفعال العباد؟

وجوابنا أنه ﷺ كان يرمي يوم بدر والله تعالى بلغ برميته المقاتل، فلذلك أضافه تعالى إلى نفسه، كما أضاف الرمية أولا إليه بقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ والكلام متفق والحمد لله.

المنزلة بين المنزلتين: ومن عقائد المعتزلة أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن وليس بكافر، بل هو في منزلة بين المنزلتين. ودفاعا عن هذه العقيدة يقول القاضي عبدالجبار في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا....﴾ (الأنفال (٢ ـ ٤). يقول: كل ذلك يدل على أن الإيمان قول وعمل، ويدخل فيه كل هذه الطاعات. وأن المؤمن لا يكون مؤمنا إلا أن يقوم بحق العبادات، ومتى وقعت منه كبيرة خرج عن أن يكون مؤمنا. أ. هـ.

هذا، وكتاب القاضي عبد الجبار مطبوع في مجلد ومتداول بين أهل العلم.

(٢) غرر الفوائد ودرر القلائد (لعليّ بن الطاهر):

عاش المؤلف على بن الطاهر المنتسب لعلي بن أبي طالب في القرنين الرابع والخامس الهجريين. إذ ولد سنة ٣٥٥هـ، وتوفى سنة ٤٣٦ هـ.

وهو شيخ الشيعة ورئيسهم بالعراق، وكان مع تشيعه معتزليا مبالغا في اعتزاله، وكتابه «غرر الفوائد ودرر القلائد» أودع فيه محاضرات أملاها في ثمانين مجلسا، وهو لا يفسر كل آيات القرآن، بل بعضها الذي يتعلق بالعقيدة.

فهو يقول بخصوص الإرادة والأمر: إن قال قائل: ما تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (يونس: ١٠٠).

فظاهر هذا الكلام يدل على أن الإيمان إنما كان لهم فعله بإذنه وأمره وليس هذا مذهبكم. وإن حمل الإذن على الإرادة، اقتضى أن من لم يقع منه الإيمان لم يرده الله منه، وهذا أيضا بخلاف قولكم، ثم جعل الرجس الذي هو العذاب على الذين لا يعقلون، ومن كان فاقدا لعقله لا يكون مكلفا، فكيف يستحق العذاب؟

الجواب: يقال له: في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وجوه.

منها: أن يكون الإذن الأمر، ويكون معنى الكلام أن الإيمان لا يقع إلا بعد أن يأذن الله فيه، ويأمر به، ولا يكون معناه ما ظنه السائل من أنه لا يكون للفاعل فعله إلا بإذنه. ويجري هذا مجرى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٤٥). ومعلوم أن معنى قوله «ليس لها» وهذه الآية هو ما ذكرناه، وإن كان الأشبه في هذه الآية التي ذكر فيها الموت أن يكون المراد بالإذن العلم.

ومنها: أن يكون الإذن هو التوفيق والتيسير والتسهيل، ولا شبهة في أن الله يوفق لفعل الإيمان، ويلطف فيه، ويسهل السبيل إليه.

ومنها: أن يكون الإذن العلم، من قولهم: أذنت لكذا وكذا إذا سمعته وعلمته، وأذنت فلانا بكذا إذا أعلمته، فتكون فائدة الآية الإخبار عن علمه تعالى بسائر الكائنات، فإنه ممن لا يخفى عليه الخفيات، أ. هـ.

هذا، وليس في الكتاب أثر للتشيع، وإنما فيه عزو أصول المعتزلة إلى الأئمة من آل البيت، حيث يقول:

اعلم أن أصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وخطبه. أ. هـ. ولا شك في أن هذه النسبة لا تطمئن إليها النفس، ولا ترتضيها. والله أعلم.

(٣) الكشاف (للزمخشري):

عاش الإمام محمود بن عمر الخوارزمي الحنفي المعتزلي في القرنين الخامس والسادس الهجريين فقد ولد سنة ٤٦٨هـ، وتوفى سنة ٥٣٨ هـ.

ويلقب بجار الله، لأنه سافر إلى مكة، وجاور بها زمانا، حتى اشتهر بهذا اللقب.

وكان ـ رحمه الله ـ إماما في النحو واللغة والأدب، ومن مصنفاته «المحاجاة في المسائل النحوية» و«الفرد والمركب في العربية» و«الفائق» في تفسير الحديث، و«أساس البلاغة» في اللغة، و«المفصل» في النحو، و«رءوس المسائل» في الفقه.

وأهم مؤلفاته كتابه في التفسير، المسمى بـ «الكشاف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل».

قال في مقدمته: ولقد رأيت إخوتنا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إلى تفسير آية، فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب، واستطيروا شوقا إلى مصنف بضم أطرافا من ذلك، حتى اجتمعوا إلى، مقترحين أن أملي عليهم الكشف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، فاستعفيت، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين، وعلماء العدل والتوحيد. والذي حداني إلى الاستعفاء ـ على علمي أنهم طلبوا ما الإجابة إليه على واجبة، لأن الخوض فيه كفرض العين ـ ما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله، وركاكة رجاله، وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم، فضلا عن أن ترقى إلى الكلام المؤسس على علمي البيان والمعاني، فأمليت عليهم مسألة في الفواتح، وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة. وكان كلاما مبسوطا، كثير السؤال والجواب، طويل الذيول والأذناب، وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم، وأن يكون لهم منارة ينتحونه، ومثالا يحتذونه.

فلما صمم العزم على معاودة جوار الله، والإناخة بحرم الله، فتوجهت تلقاءمكة، وجدت في مجتازي بكل بلد من فيه مسكة من أهلها ـ وقليل ما هم ـ عطش الأكباد إلى العثور على ذلك المملي، متطلعين إلى إيناسه، حرصا على اقتباسه، فهز ما رأيت من عطفي، وحرك الساكن من نشاطي. فلما حططت الرحل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية، من الدوحة الحسينية، الأمير الشريف، الإمام شرف آل رسول الله ﷺ أبي الحسن بن حمزة بن وهاس أعطش الناس كبدا، وألهمهم

حشى، وأوفاهم رغبة، حتى ذكر أنه كان يحدث نفسه في مدة غيبتي عن الحجاز مع تزاحم ما هو فيه المشادة، بقطع الفيافي، وطي المهامه، والإفادة علينابخوارزم، ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض؛ فقلت: قد ضاقت على المستعفي الحيل، وعييت به العلل، ورأيتني قد أخذت مني السن، وتقعقع الشن، وناهزت العشر التي سمتها العرب دقاقة الرقاب (وهي ما بين الستين والسبعين) فأخذت في طريقة أخصر من الأولى، مع حتمان التكثير من الفوائد، والفحص عن السرائر؛ ووفق الله وسدد، ففرغ منه في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه (وهي سنتان وأربعة أشهر) وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة، وما هي إلا آية من آيات البيت المحرم، وبركة أفيضت على من بركات هذا الحرم المعظم.

أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه سببا ينجيني، ونورا لي على الصراط يسعى بين يدي ويميني، ونعم المسئول. أ. هـ.

ومن هذه المقدمة نلمس مقدار اعتزاز الزمخشري بعلمه، ومدى ثقته بنفسه، ووضعه لها، فوق مستوى علماء عصره.

وإذا كنا لا نستسيغ مثل هذا الأسلوب في جيلنا الحاضر، فإنه كان الغالب على العلماء المؤلفين في عصرهم الغابر، ولا يعد تيها أو غرورا إلا ممن كان دون ما يقول.

أما الزمخشري فقد قال حقًا، ووصف الواقع صدقا، فإن تفسيره ـ برغم ما فيه من اعتزال ممقوت ـ بلغ ذروة التفاسير من حيث تجلية وجوه إعجاز القرآن الكريم، وما يتعلق به وبلغة العرب بلاغة وبيانا وإعرابا.

وأصدق تعليق على الكشاف ما كتبه الشيخ حيدر الهروي، إذ قال:

«وبعد» فإن كتاب الكشاف كتاب عليُّ القدر، رفيع الشأن، لم ير مثله في تصانيف الأولين، ولم يرد شبيهه في تآليف الآخرين. اتفقت على متانة تراكيبه الرشيقة كلمة المهرة المتقنين، واجتمعت على محاسن أساليبه الأنيقة ألسنة الكلمة المفلقين. ما قصر في قوانين التفسير، وتهذيب براهينه، وتمهيد قواعده، وتشييد معاقده؛ وكل كتاب بعده في التفسير، ولو فرض أنه لا يخلو عن النقير،

والقطمير، إذا قيس به لا تكون له تلك الطلاوة، ولا يوجد فيه شيء من الحلاوة؛ على أن مؤلفه يقتفى أثره، ويسأل خبره، وقلما غير تركيبا من تراكيبه إلا وقع في الخطإ والخطل، وسقط من مزالق الخبط والزلل، ومع ذلك كله إذا فتشت عن حقيقة الخبر، فلا عين منه ولا أثر.

ولذلك، قد تداولته أيدي النظار؛ فاشتهر في الأقطار، كالشمس في وسط النهار. إلا أنه لإخطائه سلوك الطريق الأدبية، وإغفاله عن إجمال أرباب الكمال، أصابته عين الكلالة فالتزم في كتابه أمورا أذهبت رونقه وماءه. وأبطلت منظره ورواءه، فتكدرت مشارعه الصافية، وتضيقت موارده الضافية وتزلزلت رتبه العالية.

منها: أنه كلما شرع في تفسير آية من الآي القرآنية، مضمونها لا يساعد هواه، ومدلولها لا يطاوع مشتهاه، صرفها عن ظاهرها بتكلفات باردة، وتعسفات جامدة. وصرف الآية بلا نكتة بلاغية لغير ضرورة عن الظاهر، فيه تحريف لكلام الله سبحانه وتعالى. وليته يكتفي بقدر الضرورة، بل يبالغ في الإطناب والتكثير، لئلا يتهم بالعجز والتقصير، فتراه مشحونا بالاعتزالات الظاهرة التي تتبادر إلى الأفهام، والخفية التي لا تتسارق إليها الأوهام بل لا يهتدي إلى حبائله إلا وارد بعد وارد، من الأذكياء الحذاق، ولا يتنبه لمكائده إلا واحد من فضلاء الآفاق، وهذه آفة عظيمة، ومصيبة جسيمة.

ومنها: أن يطعن في أولياء الله المرتضين من عباده، ويغفل عن هذا الصنيع لفرط عناده. ونعم ما قال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة: ٥٤): خاض صاحب الكشاف في هذا المقام في الطعن فى أولياء الله تعالى، وكتب فيها ما لا يليق بعاقل أن يكتب مثله في كتب الفحش. فهب أنه اجترأ على الطعن في أولياء الله تعالى، فكيف اجتراؤه على كتبه ذلك الكلام الفاحش في تفسير كلام الله المجيد.

ومنها: أنه يذكر أهل السنة والجماعة ـ وهم الفرقة الناجية ـ بعبارات فاحشة، فتارة يعبر عنهم بالمجبرة، وتارة ينسبهم على سبيل التعريض إلى الكفر والإلحاد. وهذه وظيفة السفهاء الشطار، لا طريقة العلماء الأبرار. أ. هـ.

ومثل هذا التقرير في صدقه وتحقيقه، تقرير السبكي حيث يقول:

واعلم أن الكشاف كتاب عظيم في بابه، ومصنفه إمام في فنه، إلا أنه رجل مبتدع، متجاهر ببدعته، يضع من قدر النبوة كثيرا، ويسيء أدبه على أهل السنة والجماعة. والواجب كشط ما في الكشاف من ذلك كله. ولقد كان الشيخ الإمام - يعني والده تقي الدين السبكي - يقرئه، فإذا انتهى إلى كلامه في قوله تعالى في سورة (التكوير: ١٩) ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أعرض عنه صفحا، وكتب ورقة حسنة، سماها: سبب الانكفاف عن إقراء الكشاف. وقال فيها: قد رأيت كلامه على قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ (التوبة: ٤٣)، وكلامه في سورة التحريم، وغير ذلك من الأماكن التي أساء أدبه فيها على سيد خلق الله تعالى، سيدنا رسول الله ﷺ، فأعرضت عن إقراء كتابه حياء من النبي ﷺ، مع ما في كتابه من الفوائد والنكت البديعة. أ. هـ.

هذا، وبقدر مهاجمة أهل السنة لاعتزال الزمخشري ترى مهاجمة الزمخشري لهم، وسخريته منهم، ورميه لهم بأوصاف مقذعة.

فهو مثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ (فصلت: ١٧) يقول: ولو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبيها ﷺ - وكفى به شاهدا - إلا هذه الآية لكفى بها من حجة. أ. هـ.

فهو يرمي أهل السنة بما رموه به، ويسميهم بالقدرية، وهو الاسم الذي أطلقه أهل السنة على المعتزلة، ليحمل عليهم ما حملوه عليه من أنه من مجوس هذه الأمة.

وهو كذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٩، ١٠). يقول: وأما من زعم أن الضمير في «زكى» و«دسي» لله تعالى، وأن تأنيث الراجع إلى «من» لأنه في معنى النفس، فمن تعكيس القدرية، الذين يوركون على الله قدرا هو بريء منه، ومتعال عنه، ويحيون لياليهم في تمحل الفاحشة ينسبونها إليه. أ. هـ.

«أما بعد»، فبرغم حملة أهل السنة على الزمخشري، وحملة الزمخشري على أهل السنة، فإن أثر الزمخشري في التفسير لا يجحد، وخدمته للغة القرآن لا تنكر، وكتابه حقا لا يكاد يدرك، والله الهادي إلى سواء السبيل.

الصوفية والتفسير

تفسير الصوفية هو التفسير الفيضي أو الإشاري، وطريقته تكمن في تأويل آيات القرآن على خلاف الظاهر، بناء على إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك، ويشترط في قبول التفسير الإشاري:

أولا: ألا يكون منافيا للظاهر.

ثانيا: أن يكون له شاهد شرعي يؤيده.

ثالثا: ألا يكون له معارض شرعي أو عقلي.

رابعا: ألا يدعي أن التفسير الإشاري هو المراد وحده دون الظاهر، بل لابد من الاعتراف بالمعنى الظاهر أولا. قال السيوطي: ومن ادعى فهم أسرار القرآن، ولم يحكم التفسير الظاهر، فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب. أ. هـ.

وعلى هذا، فما نقل عن بعضهم أنه فسر قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩). فجعل ﴿لَمَعَ﴾ فعلا ماضيا بمعنى أضاء، و﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ مفعوله. هذا التفسير وأمثاله إلحاد في آيات الله.

إذا تحققت هذه الشروط صح قبوله، لأنه من قبيل الوجدانيات، التي لا تقوم على دليل، فهي عند صاحبها، وأمرها بينه وبين ربه، ولا ينتقل أثرها إلى غيره ما لم يشعر بالشعور نفسه.

كتب التفسير الإشاري

من كتب التفسير ما خلا من التفسير الإشاري خلوا مطلقا، كتفسير البيضاوي وتفسير الزمخشري.

ومنها ما اشتمل على قدر قليل من التفسير الإشاري، وكان غالبه وأساسه التفسير الظاهر كتفسير النيسابوري وتفسير الآلوسي، ومثل هذين التفسيرين يعد من التفسير المحمود، ولا عبرة بالقدر الإشاري الوارد فيهما، لأن وروده على سبيل التبع لا على سبيل الأصالة مع أخذهما بالتفسير الظاهر.

وعلى ضوء ما سبق، يتحدد المراد من كتب التفسير الإشاري بأنها التي غلب عليها التفسير الإشاري، وكان هدفا أساسيا فيها، وإن تعرضت للتفسير بالظاهر، كتفسير التستري، أو كانت مقتصرة عليه دون التفسير بالظاهر، كتفسير السلمي، وتفسير الشيرازي، والتفسير المنسوب لابن عربي. ويكفينا في هذا المقام الإشارة الخفيفة لكل منها، نظرا لضعف أثرها وتداولها.

أما تفسير التستري، فقد ألف في القرن الثالث الهجري، وهو مطبوع في مجلد صغير.

وأما تفسير السلمي، فاسمه «حقائق التفسير»، وهو مؤلف في القرن الرابع الهجري، ويقع في مجلد واحد مخطوط.

أما تفسير الشيرازي، فاسمه «عرائس البيان في حقائق القرآن»، وقد ألف في القرن السادس الهجري، وهو مطبوع في جزأين يضمهما مجلد واحد كبير.

وأما التفسير المنسوب لابن عربي، فهو مطبوع في مجلدين، وطبع على هامش «عرائس البيان في حقائق القرآن» للشيرازي. والتحقيق أن نسبته لابن عربي قصد منها ترويج الكتاب بين الناس، لما كان لابن عربي من شهرة علمية واسعة. ومؤلفه الحقيقي هو القاشاني الباطني.

نماذج من التفسيير الإشاري غير المحمود

جاء في تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل: ١٧، ١٨)، قالوا:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي صفته الشيطانية. ﴿وَالإِنسِ﴾ أي صفته

النفسانية ﴿وَالطَّيْرِ﴾ أي صفته الملكية ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ عن طبيعتهم بالشريعة، ليسخروا لسليمان، القلب، وينقادوا له ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ وهو هوى النفس الحريصة على الدنيا وشهواتها ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ وهي النفس اللوامة ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ﴾ أي الصفات النفسانية ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ محالكم المختلفة، وهي الحواس الخمس، ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ لا يهلكنكم ﴿سُلَيْمَانُ﴾ القلب ﴿وَجُنُودُهُ﴾ المسخرة له ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ لأنهم الحق، وأنتم الباطل. فإذا جاء الحق زهق الباطل، كما أن الشمس إذا طلعت تبطل الظلمة وتنفيها، وهي لا تشعر بحال الظلمة وما أصابها. أ. هـ. من التأويلات النجمية لنجم الدين داية.

وجاء في تفسير الشيرازي عند قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۝٢٠ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (النمل: ٢٠، ٢١) ما نصه:

إن طير الحقيقة لسليمان طير قلبه، فتفقده ساعة، وكان قلبه غائبا في غيب الحق، مشغولا بالمذكور عن الذكر، فتفقده وما وجده، فتعجب من شأنه، أين قلبه إن لم يكن معه؟ فظن أنه غائب عن الحق، وكان في الحق غائبا، وهذا شأن غيبة أهل الحضور من العارفين ساعات لا يعرفون أين هم؟ وهذا من كمال استغراقهم في الله، فقال: ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ لأعذبنه بالصبر على دوام المراقبة والرعاية، وألقينه في بحر النكرة من المعرفة، ليفنى، ثم يفنى عن الفناء، أو لأذبحنه بسيف المحبة، أو بسيف العشق، أو ليأتيني من الغيب بسواطع أنوار أسرار الأزل. أ. هـ.

وجاء في التفسير المنسوب لابن عربي، عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ١٢٦). ما نصه:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا﴾ الصدر الذي هو حرم القلب ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ من استيلاء صفات النفس، واغتيال العدو اللعين، وتخطف جن القوى البدنية ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ ثمرات معارف الروح، أو حكمه، أو أنواره ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أي من وحد الله منهم، وعلم المعاد ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ أي ومن

احتجب أيضا من الذين سكنوا الصدر، ولا يجاوزون حده بالترقي إلى مقام العين، لاحتجابهم بالعمل، الذي وعاؤه الصدر ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾ من المعاني العقلية، والمعلومات الكلية، النازلة إليهم من عالم الروح على قدر ما تعيشوا به ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ نار الحرمان والحجاب ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ مصيرهم، لتعذبهم بنقصانهم، وتألمهم بحرمانهم. أ. هـ.

الخوارج والتفسير

ليس للخوارج من كتب التفسير المتداولة ما يحتاج إلى دراسة مستقلة، وكل ما انتشر بيينا من تفسيرهم هو ما جاء في جدلهم ومناظرتهم للفرق الكلامية الأخرى. نعم، يوجد في دار الكتب المصرية كتابان مطبوعان من تفسير الخوارج:

أحدهما: لمحمد بن يوسف إطفيش المتوفى سنة ١٣٢٢هـ، واسمه «هميان الزاد إلى دار المعاد» ويقع في ثلاثة عشر مجلدا.

وثانيهما: تيسير التفسير للمؤلف نفسه، وهو مطبوع في سبعة مجلدات ولعدم تداول هذين الكتابين في بلادنا، فإنه يكفينا أن نلقي نظرة عامة على منهج الخوارج في التفسير، بذكر نماذج منه في مواطن الخلاف، وأهمها:

الإيمان ومرتكب الكبيرة:

ومن المعلوم أن جمهور الخوارج على أن مرتكب الكبيرة كافر، وأن الإيمان عندهم يطلق على مجموع الاعتقاد والإقرار والعمل:

وعلى هذا الأساس، يحاول مفسرهم حمل آيات القرآن لتأييد مذهبهم؛ ففي «هميان الزاد إلى دار المعاد»، يقول المؤلف عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (البقرة: ٢، ٣). يقول: فمن أخل بالاعتقاد وحده، أو به وبالعمل، فهو مشرك من حيث الإنكار، منافق أيضا من حيث إظهار ما ليس في قلبه. ومن أخل بالإقرار وحده، أو بالإقرار والعمل، فهو مشرك عند جمهورنا وجمهور قومنا،

وقال القليل: إنه إذا أخل بالإقرار وحده فهو مسلم عند الله من أهل الجنة، وإن أخل به وبالعمل ففاسق كافر كفر نعمة، وإن أخل بالعمل فقط فمنافق عندنا فاسق ضال كافر كفرا دون شرك، غير مؤمن الإيمان التام. . . . و مذهب المحدثين أن انضمام العمل والإقرار إلى الاعتقاد على التكميل لا على أنه ركن، ونحن نقول: انضمامها إليه ركن، وهما جزء ماهيته.

ويقول عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ. . .﴾ (البقرة: ٢٥).

ترى الإنسان يقيد كلامه مرة واحدة بقيد، فيحمل سائر كلامه المطلق على هذا التقييد، فكيف يسوغ لقومنا أن يلغوا تقييد الله ـ عز وجل ـ الإيمان بالعمل الصالح. مع أنه لا يكاد يذكر الفعل من الإيمان إلا مقرونا بالعمل الصالح. بل الإيمان نفسه مفروض لعبادة من يجب الإيمان به وهو الله تعالى، إذ لا يخدم الإنسان مثلا سلطانا لا يعتقد بوجوده، وثبوت سلطته. فالعمل الصالح كالبناء النافع، المظلل المانع للحر والبرد والمضرات، والإيمان أس، ولا ينفع الأس بلا بناء عليه، ولو بنى الإنسان ألوفا من الأسس، ولم يبن عليها لهلك باللصوص والحر والبرد، وغير ذلك، فإذا ذكر الإيمان مفرداً قيد بالعمل الصالح، وإذا ذكر العمل الصالح، فما هو إلا فرع الإيمان، إذ لا نعمل لمن لا نقر بوجوده. وفي عطف الأعمال الصالحات على الإيمان دليل على أن كلا منهما غير الآخر، لأن الأصل في العطف المغايرة بين المتعاطفين، ففي عطف الأعمال الصالحات على الإيمان إيذان بأن البشارة بالجنات إنما يستحقها من جمع بين الأعمال الصالحات والإيمان.

ويقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٨١).

﴿سَيِّئَةً﴾ خصلة قبيحة، وهي الذنب الكبير، سواء كان نفاقا أو إشراكا. ومن الذنوب الكبيرة الإصرار، فإنه نفسه كبيرة. سواء كان على الصغيرة أو الكبيرة، والدليل على أن السيئة الكبيرة قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾. ويحتمل وجه آخر،

وهو أن السيئة الذنب، صغيرا أو كبيرا، ثم يختص الكلام بالكبيرة بقوله: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ .

وإن قلت: روى قومنا عن ابن عباس ﷺ أن السيئة هنا الشرك، قلت: ما ذكرته أولى، فإن لفظ السيئة عام، وحمله على العموم أولى، ولا سيما أن قومنا يعترفون بأن الكبيرة تدخل فاعلها النار، ولم يحصروا دخولها على الشرك، ومعترفون بأن لفظ الخلود يطلق على المكث الكبير، سواء كان أبديا أو غير أبدي، وادعاد أن الخلود في الموحدين بمعنى المكث الطويل، وفي الشرك بمعنى المكث الدائم، استعمال للكلمة في حقيقتها ومجازها وهو ضعيف. ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ ربطته ذنوبه، وأوجبت له دخول النار، فصار لا خلاص له منها، كمن أحاط به العدو، أو الحرق أو حائط السجن، وذلك بأنه مات غير تائب. أ. هـ.

ثم يندد بأهل السنة ويهاجمهم، لقولهم بأن صاحب الكبيرة من المؤمنين يعذب في النار على قدر معصيته ثم يدخل الجنة بعد ذلك، فيقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة: ٤). يقول: وترى أقواما ينتسبون إلى الملة الحنيفية يضاهئون اليهود في قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ (آل عمران: ٢٤).

ويحمل على الأشاعرة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ (آل عمران: ١٢٩). فيقول: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ الغفران له بأن يوفقه للتوبة ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ تعذيبه بأن لا يوفقه؛ وليس من الحكمة أن يعذب المطيع الموفي؛ وليس منها أن يرحم العاصي المصر، وقد انتفى الله من أن يكون ظالما؛ وعد من الظلم النقص من حسنات المحسن؛ والزيادة في سيئات المسيء وليس من الجائز عليه ذلك؛ خلافا للأشعرية في قولهم: يجوز أن يدخل الجنة جميع المشركين؛ والنار جميع الأبرار. وقد أخطئوا في ذلك أ. هـ.

ويقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (الزمر: ٥٣) يقول: بشرط التوبة منها، بدليل التقييد بها في مواضع من القرآن والسنة، والمطلق يحمل على المقيد، وقد ذكرت في القرآن مرارا شرطا للغفران، فذكرها فيما

ذكرت، ذكر لها فيما لم تذكر، وإنما تحذف لدليل، والقرآن في حكم كلام واحد لا يتناقض. . حاشاه.

وأيضا: لا يليق أن يذكر لهم أنه يغفر الكبائر بلا توبة، مع أنه ناه عنها، لأن ذلك يؤدي بهم إلى الاجتراء عليها. . . والمراد بالآية التنبيه على أنه لا يجوز لمن عصى الله - أي عصيان كان - أن يظن أنه لا يغفر له، ولا تقبل توبته، وذلك مذهبنا معشر الإباضية. وزعم القاضي (يعني البيضاوي) وغيره أن غير الشرك يغفر بلا توبة. ومشهور مذهب القوم أن الموحد إذا مات غير تائب يرجى له، وأنه إن شاء عذبه بقدر ذنبه وأدخله الجنة، وإن شاء غفر له، ومذهبنا: أن من مات على كبيرة غير تائب لا يرجى له. أ. هـ.

والخوارج يستدلون على مذهبهم هذا بكثير من آيات القرآن، منها:

(١) قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٧) قالوا: فجعل تارك الحج كافرا.

(٢)و قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤) قالوا: وكل مرتكب للذنوب قد حكم بغير ما أنزل الله.

(٣) وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٦) قالوا: والفاسق لا يجوز أن يكون ممن ابيضت وجوههم، فوجب أن يكون ممن اسودت وجوههم، ووجب أن يسمى كافرا، لقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

(٤) وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ (سبأ: ١٧) قالوا: والفاسق لابد أن يجازى، فوجب أن يكون كفورا.

(٥) وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (النحل: ١٠٠) قالوا: فجعل الغاوي الذي يتبعه مشركا.

هذا ولأهل السنة في كل ذلك توجيهات حسنة، محلها كتب العقيدة، وكتب التفسير.

الطعن في علي وعثمان وكثير من الصحابة رضي الله عنهم:

ومن مبادئ الخوارج تكفير علي وعثمان والحكمين وأصحاب الجمل. وكل من رضي بتحكيم الحكمين.

أما تكفير علي فلقبوله التحكيم، وأما عثمان فقد حكموا بصحة خلافته أولا، فلما غير وبدل، ولم يسر سيرة الشيخين ـ كما زعموا ـ وجب عزله.

وأما أصحاب الجمل فلخروجهم على الإمام الشرعي.

وعلى هذا المبدإ، يقول مؤلف «هميان الزاد إلى دار المعاد» عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ...﴾ (النور: ٥٥): قال المخالفون عن الضحاك: إن الذين آمنوا هم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وإن استخلافهم إمامتهم العظمى، وسيأتي ما يدل على بطلان دخول عثمان وعلي في ذلك. ثم قال: وفي أيام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وبعدهم كانت الفتوح العظيمة، وتمكين الدين لأهله، لكن لا دليل في ذلك على إصابة عثمان وعلي، فإنهما وإن كانت خلافتهما برضا الصحابة، لكن ما ماتا إلا وقد بدلا وغيرا، فسحقا، كما في أحاديث عنه ﷺ أنهما مفتونان».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور: ٥٥) يقول: أقول ـ والله أعلم بغيبه ـ إن أول من كفر بتلك النعمة عثمان بن عفان جعله المسلمون على أنفسهم وأموالهم، فخانهم في كل ذلك.

ونزل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ (الأنفال: ٢٥) بحضرة أبي بكر وعمر ﷺ وعثمان وعلي، فقال لعثمان: بك تفتتح، وبك تشب. وقال لعلي: أنت إمامها وزمامها وقائدها، تمشي فيها مشي البعير في قيده.... وقال: يثور دخانها تحت قدمي رجل يزعم أنه مني، وليس مني ألا إن أوليائي المتقون.

وهكذا يتجرأ الخوارج على الطعن في أصحاب رسول الله › طعنا لا يقبلونه في أنفسهم، ولا كثير من أتباعهم.

فجزاهم الله على افترائهم، ورضى الله عن الصحابة أجمعين.

الشيعة والتفسير

والشيعة هم الذين شايعوا عليا ـ كرم الله وجهه ـ ووالوه، وبالغوا في حبه وحب آل بيته. وهم فرق مختلفة، تبدأ بدعوى أحقية علي بالخلافة من الصاحبين، وتنتهي بدعوى نبوة علي، بل ألوهيته. والكلام عن هذه الفرق، ومذاهبها، مبسوط في كتب العقيدة والملل والنحل.

والذي يعنينا في هذا المقام هو موقف الشيعة من تفسير القرآن الكريم. ومن الطبيعي ـ والكل يدعي الإسلام ـ أن يلجأ كل منهم إلى القرآن يلتمس فيه تأييدا ـ لنحلته، أو معارضة لعقيدة مخالفيه. ومن الطبيعي لتحقيق هذا الهدف أن يتحملوا في التفسير، ويخرجوا الألفاظ عن معانيها التي وضعت لها.

وقد وصل الأمر ببعض السبئية أن يزعم أن عليا ـ كرم الله وجهه ـ في السحاب، ويفسرون الرعد في القرآن بأنه صوت علي، والبرق بأنه لمعان سوطه أو تبسمه، ولهذا فإن الواحد منهم كان إذا سمع صوت الرعد قال: عليك السلام يا أمير المؤمنين.

تفسير الإمامية الاثنى عشرية

قرر الإمامية الاثنى عشرية أن الإقرار بإمامة علي ومن بعده من الأئمة، والتزام حبهم وموالاتهم، وبغض مخالفيهم وأعدائهم، أصل من أصول الإيمان، بحيث لا يصح إيمان المرء إلا إذا حصل ذلك، مع الإقرار بباقي الأصول. كما قرروا وجوب طاعة الأئمة، واعتقاد أفضليتهم على الخلائق أجمعين.

ثم أخذوا ينزلون نصوص القرآن على ما قرروه. بل زادوا على ذلك، فقالوا: إن كل آيات المدح والثناء وردت في الأئمة ومن والاهم، وكل آيات الذم والتقريع وردت في مخالفيهم وأعدائهم.

وتقول أصول الكافي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (النساء: ١٣٧): إن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان، آمنوا بالنبي أولا، ثم كفروا حيث عرضت عليهم ولاية علي، ثم آمنوا بالبيعة لعلي، ثم كفروا بعد موت النبي، ثم ازدادوا كفرا بأخذ البيعة من كل الأمة.

أهم كتب تفسير الإمامية الاثنى عشرية:

للإمامية الاثنى عشرية كتب كثيرة في التفسير، منها المخطوط، ومنها المطبوع، ومنها الكامل، ومنها الناقص، وكلها تحرص على عقيدتهم. وتدافع عنها، وتحاول تأييدها بالقرآن، وإن اختلفت هذه الكتب في الغلو والاعتدال.

ومن هذه الكتب:

(١) تفسير الحسن العسكري المتوفي سنة ٢٥٤ هـ. وهو مطبوع في مجلد واحد.

(٢) تفسير محمد عياش السلمي، المعروف بالعياشي، من علماء القرن الثالث الهجري، وهو من أهم كتب الشيعة.

(٣) تفسير علي بن إبراهيم القمي، في أواخر القرن الثالث الهجري، وهو مطبوع في مجلد واحد.

(٤) التبيان لأبي جعفر الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠ هـ.

(٥) مجمع البيان لأبي الفضل الطبرسي المتوفى سنة ٥٣٨؛ وهو مطبوع في مجلدين.

(٦) الصافي لملا محسن الكاشي من علماء القرن الحادي عشر الهجري، وهو مطبوع في مجلد.

(٧) البرهان لهاشم البحراني المتوفى سنة ١١٠٧هـ؛ وهو مطبوع في مجلدين.

(٨) مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار، للمولى عبد اللطيف الكازراني.

(٩) المؤلف لمحمد مرتضى الحسيني المعروف بنور الدين من علماء القرن الثاني عشر الهجري، وهو مخطوط في مجلد صغير.

(١٠) تفسير القرآن للمولى السيد عبد الله رضا العلوي المتوفى سنة ١٢٤٢هـ، وهو مطبوع في مجلد كبير.

(١١) بيان السعادة في مقامات العبادة لسلطان بن محمد بن حيدر الخراساني من علماء القرن الرابع عشر الهجري، وهو مجلد كبير.

والجدير بالملاحظة أن كتب التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية كتب مختصرة صغيرة، وأنها عُدَّتْ أصولا في عقائد الشيعة، ذات قيمة كبرى عندهم.

ولسنا في حاجة إلى الكلام عن كل كتاب من هذه الكتب. ويكفينا دراسة نماذج من أقوالهم، لنقف على منهج الشيعة الإمامية في تفسيرهم، وحرصهم على حمل الألفاظ على غير وضعها لتأييد نحلتهم وعقيدتهم.

إمامة علي ﷺ:

يؤمن الطبرسي بإمامة على ﷺ ويرى أنه خليفة النبي ﷺ بلا فصل. وهو يحاول أن يؤيد هذه العقيدة من القرآن عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة: ٥٥).

فيقول: المولى هو الذي يلي النصرة والمعونة، والولي هو الذي يلي تدبير الأمر، يقال: فلان ولي أمر المرأة إذا كان يملك تدبير نكاحها؛ وولي الدم من كان إليه المطالبة بالقود، والسلطان ولي أمر الرعية، ويقال لمن يرشحه للخلافة عليهم بعده ولي عهد المسلمين، قال الكميت يمتدح عليا:

ونعم ولي الأمر بعد وليه ومنتجع التقوى ونعم المؤدب

وإنما أراد ولي الأمر القائم بتدبيره. قال المبرد في كتاب العبادة، عن صفات الله: أصل الولي الذي هو أولى، أي أحق، ومثله المولى.

ثم ذكر الطبرسي سبب نزول الآية، فقال بعد ذكر سند طويل.... بينا عبد الله ابن عباس جالس على شفير زمزم، يقول: قال رسول الله ﷺ، إذ أقبل رجل معتم بعمامة، فجعل ابن عباس لا يقول قال رسول الله ﷺ إلا قال الرجل: قال رسول الله، فقال ابن عباس: سألتك بالله، من أنت؟ فكشف العمامة عن وجهه وقال: يأيها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا جندب بن جنادة البدري، أبو ذر الغفاري. سمعت رسول الله ﷺ بهاتين (يشير إلى أذنيه) وإلا صمتا، ورأيته بهاتين (يشير إلى عينيه) وإلا عميتا، يقول «علي قائد البررة وقاتل الكفرة، ومنصور من نصره، ومخذول من خذله».

أما إني صليت مع رسول الله ﷺ يوما من الأيام صلاة الظهر، فسأل سائل في المسجد، فلم يعطه أحد شيئا، فرفع السائل يده إلى السماء، فقال: اللهم إني سألت في مسجد رسول الله فلم يعطني أحد شيئا. وكان علي راكعا فأوى بخنصره اليمنى إليه، وكان يتختم فيها، فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره، وذلك بعين رسول الله ﷺ. فلما فرغ النبي من صلاته، رفع رأسه إلى السماء، فقال: اللهم إن أخي موسى سألك، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ (طه: ٢٥ - ٣٢) فأنزلت عليه قرآنا ناطقا ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ (القصص: ٣٥). اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك، اللهم فاشرح لي صدري ويسر لي أمري، واجعل لي وزيرا من أهلي، عليا اشدد به ظهري».

قال أبو ذر: فو الله ما استتم رسول الله ﷺ الكلمة حتى نزل عليه جبريل من عند ربه، فقال: يا محمد، اقرأ. قال: وما أقرأ؟ قال: اقرأ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ (المائدة: ٥٥).

ثم أطال الطبرسي في ذكر الآثار التي تؤدي إلى سبب النزول السابق نفسه، ثم شرح المعنى، فقال: ثم بين تعالى من له الولاية على الخلق، والقيام بأمرهم، ويجب طاعته عليهم، فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي الذي يتولى مصالحكم، ويتحقق تدبيركم هو الله تعالى، ورسوله يفعله بأمره ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾. ثم وصف الذين آمنوا، فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ بشرائطها ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ أي يعطون ﴿الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ أي في حال الركوع.

وهذه الآية من أوضح الدلالة على صحة إمامة علي بعد النبي ﷺ، لا فصل. والوجه فيه: أنه إذا ثبت أن لفظة ﴿وَلِيُّكُمُ﴾ في الآية تفيد من هو أولى بتدبير أموركم، وتجب طاعته عليكم، وثبت أن المراد بالذين آمنوا على ثبت النص عليه بالإمامة ووضح. أ. هـ.

ثم أطال الكلام في ذلك وأطال، وأطال، باذلا وسعه في إثبات دعواه الفاسدة.

وهي محاولة منه فاشلة، لأن حديث تصدق علي بالخاتم في الصلاة، وهو الأساس الذي بنيت عليه الدعوى، حديث موضوع لا أصل له.

وقد أحسن وأفاض ابن تيمية في الرد على هذه الدعوى، في كتابه «منهاج السنة»، فليرجع إليه من أراد المزيد.

نكاح المتعة:

والطبرسي من الإمامية الاثنى عشرية الذين يقولون بجواز نكاح المتعة، ولا يعترفون بنسخه، ولهذا يحاول جاهدا أن يستدل على مذهبه بالقرآن، فيقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً....﴾ (النساء: ٢٤) الآية، يقول:

الاستمتاع هنا درك البغية، والمباشرة، وقضاء الوطر من اللذة. عن الحسن ومجاهد وابن زيد.

فمعناه على هذا: فما استمتعتم وتلذذتم من النساء بالنكاح فآتوهن مهورهن. وقيل: المراد نكاح المتعة وهو نكاح المنعقد بمهر معين إلى أجل معلوم. عن ابن عباس والسدي وابن سعيد وجماعة من التابعين. وهو مذهب أصحابنا الإمامية، وهو الواضح، لأن أصل الاستمتاع والتمتع وإن كان في الأصل واقعا على الانتفاع والالتذاذ، فقد صار بعرف الشرع مخصوصا بهذا العقد، ولا سيما إذا أضيف إلى النساء.

فعلى هذا يكون معناه: فمتى عقدتم عليهن هذا العقد المسمى متعة فآتوهن أجورهن. ويدل على ذلك أن الله علق وجوب إعطاء المهر بالاستمتاع، وذلك يقتضي أن يكون معناه هذا العقد المخصوص، دون الجماع والاستلذاذ، لأن المهر لا يجب إلا به. أ. هـ.

ثم ساق أحاديث وآثارا كثيرة في موضوعه.

مسح الرجلين في الوضوء:

والطبرسي ـ كغيره من علماء الشيعة الإمامية ـ يقول: إن المسح هو فرض الرجلين في الوضوء، ولهذا يجادل ويؤول قوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ (المائدة: ٦) ويقول: ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ اختلف في ذلك، فقال جمهور الفقهاء: إن فرضهما الغسل، وقالت الإمامية: فرضهما المسح دون غيره، وبه قال عكرمة. . . وإليه ذهب الطبري والجبائي، إلا أنهما قالا يجب مسح جميع القدمين، ولا يجوز الاقتصار على مسح ظاهر القدم. . . . وروى عن ابن عباس أنه وصف وضوء رسول الله ﷺ، فمسح، على رجليه، وروى عنه أنه قال: إن في كتاب الله المسح، ويأبى الناس إلا الغسل. . . قال: والخفض على الجوار لا يجوز في كتاب الله تعالى. . . أ. هـ.

وذكر كلاما طويلا في ذلك، فليرجع إليه من شاء المزيد.

ميراث الأنبياء:

ومذهب الطبرسي أن الأنبياء عليهم السلام يورثون، كما يورث سائر الناس. وتأييدا لمذهبه يقول في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ (مريم: ٥، ٦) يقول: اختلف في معناه، فقيل: معناه يرثني مالي، ويرث من آل يعقوب النبوة. عن أبي صالح.

وقيل: معناه: يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب. عن الحسن ومجاهد.

واستدل أصحابنا بالآية على أن الأنبياء يورثون المال، وأن المراد بالإرث المذكور فيها المال دون العلم والنبوة، بأن قالوا: إن لفظ الميراث في اللغة والشريعة لا يطلق إلا على ما ينقل من الموروث إلى الوارث كالأموال، ولا يستعمل في غير المال إلا عن طريق المجاز والتوسع، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز بغير دلالة.

وأيضا، فإن زكريا قال في دعائه ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾، أي اجعل يا رب ذلك

المولى الذي يرثني رضيا عندك، ممتثلا لأمرك. ومتى حملنا الإرث على النبوة لم يكن لذلك معنى، وكان لغوا وعبثا.

ألا ترى أنه لا يحسن أن يقول أحد: اللهم ابعث لنا نبيا، واجعله عاقلا رضيا في أخلاقه، لأنه إذا كان نبيا فقد دخل الرضا وما هو أعظم من الرضا في النبوة؟ ويقوى ما قلناه أن زكريا صرح بأنه يخاف بني عمه بعده، بقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي﴾(مريم: ٥).

وإنما يطلب وارثا لأجل خوفه، ولا يليق خوفه منهم إلا بالمال، دون النبوة والعلم، لأنه كان أعلم بالله تعالى من أن يخاف أن يبعث نبيا من ليس بأهل النبوة، وأن يورث علمه وحكمته من ليس لهما بأهل، ولأنه إنما بعث لإذاعة العلم ونشره في الناس، فكيف يخاف من الأمر الذي هو الغرض من بعثته؟ إلى آخر ما قاله استدلالا بالآية على مذهبه.

هذا، وتفسير الطبرسي مليء بالإسرائيليات والأحاديث الموضوعة، ولكنه ـ كما ظهر من تفاسيره السابقة ـ قوي الحجة، واضح البيان، ضليع في مختلف الفنون، له قيمة علمية طيبة برغم التعصب المذهبي القوي.

الطعن في صحابة رسول الله ﷺ:

ومما هو معلوم في مذهب الشيعة طعنهم في صحابة رسول الله ﷺ، وعلى الأخص أبو بكر وعمر وعثمان، ويحسن بنا أن نلتقط نبذا من تفسيرهم الذي يحاولون به تأييد نزعتهم الوضيعة، لنتبين مدى افترائهم على الله، وجرأتهم على تأويل القرآن الكريم بمقتضى الأهواء والشهوات.

فهذا ملا محسن الكاشي في تفسيره «الصافي»، يقول عند قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠) يقول: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ وهو أبو بكر ﴿لا تَحْزَنْ﴾ لا تخف ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بالعصمة والمعونة.

في الكافي عن الباقر أن رسول الله ﷺ أقبل يقول لأبي بكر في الغار: اسكن

فإن الله معنا. وقد أخذته الرعدة وهو لا يسكن. فلما رأى رسول الله ﷺ حاله. قال له: تريد أن أريك أصحابي من الأنصار في مجالسهم يتحدثون؟ وأريك جعفرا وأصحابه في البحر يغوصون؟ قال: نعم. فمسح رسول الله ﷺ بيده على وجهه، فنظر إلى الأنصار يتحدثون، وإلى جعفر وأصحابه في البحر يغوصون، فأضمر تلك الساعة أنه ساحر.

﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ (التوبة: ٤٠) أمنته التي تسكن إليها القلوب. ﴿عَلَيْهِ﴾ في الكافي عن الرضا: أنه قرأها «على رسوله» قيل له: هكذا؟ قال: هكذا نقرؤها، هكذا تنزيلها. والعياشي عنه: إنهم يحتجون علينا بقوله تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ وما لهم في ذلك من حجة، فوالله لقد قال الله «فأنزل سكينته على رسوله» وماذكره فيها بخير. قيل: هكذا تقرءونها؟ قال: هكذا قراءتها... أ. هـ.

وملا محسن الكاشي يقول عند تفسيره أول سورة التحريم:

عن القمي في سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ كان في بعض بيوت نسائه، وكانت مارية القبطية تكون معه تخدمه، وكانت ذات يوم في بيت حفصة فذهبت حفصة في حاجة لها، فتناول رسول الله ﷺ مارية، فعلمت حفصة بذلك، فغضبت، وأقبلت على رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله. في يومي؟ وفي داري؟ وعلى فراشي؟ فاستحيا رسول الله ﷺ منها، فقال: كفى، فقد حرمت مارية على نفسي، ولا أطؤها بعد هذا أبدا، وأنا أفضي إليك سرا، إن أنت أخبرت به فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فقالت: نعم، ما هو؟ فقال: إن أبا بكر يلي الخلافة بعدي، ثم بعده أبوك؛ فقالت: من أنبأك هذا؟ فقال: نبأني العليم الخبير. فأخبرت حفصة به عائشة من يومها ذلك، وأخبرت عائشة أبا بكر، فجاء أبو بكر إلى عمر فقال له: إن عائشة أخبرتني عن حفصة بشيء، ولا أثق بقولها، فاسأل أنت حفصة. فجاء عمر إلى حفصة، فقال لها: ما هذا الذي أخبرت عنك عائشة؟ فأنكرت ذلك، وقالت: ما قلت لها من ذلك شيئا. فقال لها عمر: إن هذا حق، فأخبرينا حتى نتقدم فيه. فقالت: نعم. قد قاله رسول الله ﷺ.

فاجتمعوا أربعة على أن يسُمُّوا رسول الله، فتنزل جبريل على رسول الله بهذه السورة، فقال: ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ (التحريم: ٣) يعني أظهره الله على ما أخبرت

به، وما هموا من قتله ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ﴾ (التحريم: ٣) أخبرها، وقال: لم أخبرت بما أخبرتك؟ ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ (التحريم: ٣) قال: لم يخبرهم بما يعلم بما هموا من قتله. أ. هـ.

فانظر إلى هذا الإفك المبين، الذي يتهم جلة الصحابة بالتآمر على قتل رسول الله ﷺ، ودس السم له، وهل يصدر مثل الاتهام من مؤمن بالله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه، الذي أمر بسد جميع الخوخات في المسجد إلا خوخة أبي بكر.

وهل يتصور عاقل أن تتهم عائشة بالاشتراك في هذه المؤامرة، ويعلم بها رسول الله ﷺ؛ ثم يستأذن أمهات المؤمنين أن يتمرض في بيتها؟

اللهم إن هذا جنون التعصب، وهذيان الهوى البغيض.

الباطنية والتفسير

يقصد هنا بالباطنية الإسماعيلية من الشيعة الإمامية، وإنما لقبوا بالباطنية لقولهم بباطن القرآن دون ظاهره.

وهذه الطائفة إنما هي في الأصل جماعة من المجوس، دخلوا الإسلام ظاهرا للدس فيه، والكيد له، باسم الدفاع عن الدين، واستغشوا ثياب التشيع والموالاة لآل البيت، وتظاهروا بالورع والتقوى.

ثم وضعوا قواعد مذهبهم الذي يهدف إلى الإباحة والإلحاد. وقد رأوا أن خير وسيلة توصل إلى هذا الهدف هي التشكيك في القرآن، وبأي شيء يشككون فيه؟ خير ما يشككون به أن يقولوا: إن للقرآن ظاهرا وباطنا، وأن المراد هو الباطن دون الظاهر.

ثم من وراء ذلك يؤولون الوضوء بموالاة الإمام.

والتيمم: هو الأخذ من المأذون عند غيبة الإمام الذي هو الحجة.

والصلاة: عبارة عن الناطق، الذي هو الرسول، بدليل قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥).

والغسل: تجدد العهد ممن أفشى سرا من أسرارهم من غير قصد. وإفشاء السر عندهم على هذا النحو هو معنى «الاحتلام».

والزكاة: عبارة عن تزكية النفس بمعرفة ما هم عليه من الدين.

والكعبة: النبي.

والباب: علي.

والصفا: النبي.

والمروة: علي.

والميقات: الإيناس.

والتلبية: إجابة الدعوة.

والطواف: بالبيت سبعا: موالاة الأئمة السبعة.

والجنة: راحة الأبدان من التكاليف.

والنار: مشقتها بمزاولة التكاليف.

ولما استمرءوا الضلال، واستهووا شياطين الإنس تبجحوا وأنكروا معجزات الأنبياء، فكلام عيسى في المهد اطلاعه في مهد القالب قبل التخلص منه على ما يطلع عليه كغيره بعد الوفاة والخلاص من القالب.

وإحياؤه الموتى: معناه الإحياء بحياة العلم عند موت الجهل بالباطن.

وإبراؤه الأعمى: من عمى الضلال.

والأبرص: من برص الكفر ببصيرة الحق المبين.

وإبليس وآدم: عبارة عن أبي بكر وعلي، إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلي والطاعة له، فأبى واستكبر.

والدجال: أبو بكر، وكان أعور، إذ لم يبصر إلا بعين الظاهر، دون عين الباطن.

ويأجوج ومأجوج: هم أهل الظاهر.

هذا. ومما زعمته الباطنية أن من عرف معنى العبادة سقط منه فرضها، وحملوا على هذا الضلال قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر: ٩٩).

الزيدية والتفسير

الزيدية طائفة من الشيعة، لكنهم غير مغالين في التشيع، فهم يعتقدون أن عليا أفضل من سائر الصحابة، وأولى بالخلافة بعد رسول الله ﷺ، ومع ذلك لا يبرءون من أبي بكر وعمر، ولا يكفرونهما، بل يجوزون إمامتهما لأنه تجوز عندهم إمامة المفضول مع وجود الفاضل، كما أنهم تأثروا بآراء المعتزلة، نظرا لأن إمامهم زيد بن علي قد تتلمذ على واصل بن عطاء.

وليس للزيدية تفسير يبرز كيان نحلتهم، وكل ما يستحق الذكر من كتبهم «الثمرات اليانعة» لشمس الدين يوسف بن أحمد، وقد تكلمنا عنه في تفسير الفقهاء، وتفسير الشوكاني المسمى بفتح القدير، وهذه نبذة عنه:

فتح القدير (للشوكاني):

الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني.

المؤلف هو محمد بن علي بن محمد الشوكاني، المولود سنة ١١٧٣ هـ والمتوفى سنة ١٢٥٠ هـ.

ومن مؤلفاته: نيل الأوطار وشرح منتقى الأخبار في الحديث، وإرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات. وأهم مؤلفاته كتابه في التفسير المسمى «فتح القدير» وهو يجمع بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، وقد اعتمد مؤلفه في تأليفه على تفسير الدر المنثور للسيوطي، وتفسير أبي جعفر النحاس، وابن عطية، والقرطبي، والزمخشري، كما ذكر في مقدمته.

وطريقته في التفسير تبدأ بذكر الآيات ثم يفسرها تفسيرا سهلا، ثم يذكر الروايات الواردة عن السلف، وأحيانا يذكر المناسبة بين الآيات، كما يعرض للمذاهب الفقهية في مناسباتها، وأدلة كل مذهب، ويرجح ويناقش، ويعطي نفسه حرية الاستنباط لأنه يرى نفسه من المجتهدين.

غير أنه ينقل الأحاديث الموضوعة والروايات الضعيفة دون تعليق أو تنبيه. ومع أن الشوكاني من الشيعة الزيدية فإنه لا يبدو في كتابه أثر للتشيع، بل يبدو كتابا سلفيا معتدلا، بعيدا عن التعصب والهوى.

حتى الآراء الاعتزالية، نراه لا يميل إليها، ولا يؤيدها، بل كثيرا ما يهاجمها ويعارضها، برغم ما عرف عن الزيدية من ميلهم إلى الآراء الاعتزالية.

وصفوة القول، وحقه يقال: إن لكتابه قيمة علمية طيبة، وهو مطبوع في خمسة مجلدات ومتداول بين أهل العلم.

تفسير العصر الحديث واتجاهاته

إن التفسير في العصر الحديث، مقتبس من التفسير في عصوره السابقة، فيما يختص بعلوم الشريعة وعلوم اللغة العربية، وليس فيه من جديد إلا من زاوية التنسيق، والاختيار، والترجيح في بعض الأحيان.

أما فيما يختص بالاتجاه العلمي، والاتجاه الأدبي، والاتجاه الإلحادي، فهو مجدد، وله تقدم ملموس يتجسم في النماذج الآتية:

الاتجاه العلمي والآراء فيه

إذا كان الاتجاه بالتفسير نحو العلوم الكونية، قد شهد تصارعا بين المؤيدين والمعارضين في العصور الأولى، وإذا كان العلماء المؤيدون لم يجدوا الميدان الفسيح لنشر دعواتهم ونزعاتهم في سابق الدهر، فإن أصحاب هذه النزعة قد اطمأنوا في هذه السنين إلى ضعف المقاومة، وإلى سهولة وصول ما يشتهون إلى جمهرة وكثرة، فخرجوا ينشرون وينتشون، بل راحوا يهاجمون التفسير القديم، والمفسرين الأولين.

أصبحنا اليوم نقرأ، ونتداول بين أيدينا كتاب «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» للشيخ طنطاوي جوهري المتوفى سنة ١٣٥٨هـ، وفيه يقول مؤلفه:

يا أمة الإسلام: آيات معدودات في الفرائض، اجتذبت فرعا من علم الرياضيات، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية، فيها عجائب الدنيا كلها.

هذا زمان العلوم، وهذا زمان ظهور نور الإسلام، هذا زمان رقيه، ياليت شعري لماذا نعمل في آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا في آيات الميراث ولكني أقول: الحمد لله. الحمد لله.

إنك تقرأ في هذا التفسير خلاصات من العلوم، ودراساتها أفضل من دراسة علم الفرائض، لأنه فرض كفاية، فأما هذه فإنها للازدياد في معرفة الله، وهي فرض عين على كل قادر.

إن هذه العلوم التي أدخلناها في تفسير القرآن، هي التي أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء في الإسلام.

فهذا زمان الانقلاب، وظهور الحقائق، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. . .

ويقول في موضع آخر:

لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب الإسلامية في علم الفقه، وعلم الفقه ليس له في القرآن إلا آيات قلائل، لا تصل مائة وخمسين آية؟ فلماذا كثر التأليف في علم الفقه، وقل جدا في علوم الكائنات التي لا تخلو منها سورة، بل هي تبلغ سبعمائة وخمسين آية صريحة، وهناك آيات أخرى دلالتها تقرب من الصراحة؟ فهل يجوز في عقل أو شرع أن يبرع المسلمون في علم آياته قليلة، ويجهلوا علما آياته كثيرة جدا؟

إن آباءنا برعوا في الفقه، فنبرع نحن الآن في علم الكائنات. لنقم به لترقى الأمة. أ. هـ.

وسار الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره على نفس الطريق الذي خطه، فلا يكاد يفسر آية القرآن تفسيرا مجملا حتى ينحرف بالقلم نحو بحوث مستفيضة، بعيدة عن معاني الآيات ومراميها كل البعد ويسميها لطائف أو جواهر.

وزاد تفسيره بعدا عن المألوف، بما أودعه فيه من صور النباتات والحيوانات ومناظر الطبيعة وتجارب العلوم.

وهكذا أصبح هذا التفسير كتابا جامعا لكل شيء إلا التفسير (كما يقولون). ولا أحسبني في حاجة إلى نقل بعض تفسيراته لسهولة الاطلاع عليها، بانتشار الكتاب وتداوله بين أيدي الناس. والله الهادي للصواب.

الاتجاه الأدبي الاجتماعي

يمثل هذا الاتجاه الإمام الشيخ محمد عبده، وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا ثم الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي.

أما الشيخ محمد عبده، فلم يخلف تفسيرا كاملا للقرآن بل كل ما تركه تفسير جزء «عم» وتفسير سورة العصر، وتفسير آيات متفرقة من القرآن.

وأما الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي، فإنه كذلك لم يترك سوى تفسير سورة الحجرات وسورة الملك، وسورة العصر، وتفسير آيات متفرقة من القرآن.

لكن أثر الشيخين لم يكن فيما خلفا من مطبوعات في التفسير، وإنما كان فيما غرساه في التلاميذ، وفي كل من قرأ أو سمع دروسهما، وبحوثهما التي نشرت في الصحف وأذيعت في البقاع، ففتحت على الناس لونا جديدا في التفسير، يعتمد على تجلية دلائل قدرة الله تعالى وعظمته، وإبراز مواطن العظة والعبرة، ومحاولة التوفيق بين قضايا العلم الحديث وبين آيات القرآن. ويعتمد على نبذ البدع والخرافات، والتحرر من أقوال المفسرين السابقين، والحملة على أمراض المجتمع.

أما الشيخ محمد رشيد رضا، فقد ترك لنا تفسير القرآن المحكم المشهور بتفسير المنار وهو يبدأ من أول القرآن إلى الربع الأخير من سورة يوسف، وهذا القدر مطبوع في اثنى عشر جزءا، وتتجلى في هذا التفسير روح الأستاذ الإمام محمد عبده.

وهو تفسير له قيمته العلمية الأدبية الاجتماعية، وإن كانت له آراء شاذة وعقائد غير مسلمة، وتهجمات على المفسرين السابقين، ذوي الفضل والعلم والإحسان.

هذا: وهناك تفاسير معاصرة إلحادية هدامة لا داعي للحديث عنها، لعدم تداولها وضعف قيمتها وآثارها.

ميزان مدح التفسير أو ذمه

قدمنا كتبا ونماذج للتفسير الممدوح، وكتبا ونماذج للتفسير المذموم، فكان لزاما علينا أن نضع الميزان الذي بينا عليه وصف المدح أو الذم، فإن أصحاب كل نحلة،

ومؤيدي كل مذهب يدعون أن تفسيرهم ممدوح، بل يدعون أن تفسيرهم هو الممدوح وأن ما عداه مذموم. فهل هناك قانون وقاعدة عامة يحتكم إليها؟ أو أن الأمر بالنسبة إلينا ـ كأهل السنة ـ هو الأمر نفسه بالنسبة للآخرين؟ وكل يدعي وصلا بليلى؟

إن الشريعة واضحة المعالم ظاهرة الأركان، وما توفى رسول الله ﷺ إلا وقد وضح الحلال، وبان الحرام، ودستور الإسلام هو القرآن، وليس يحل لكل أحد أن يفسر هذا الدستور، وإنما يشترط فيمن يتصدى لهذه المهمة السامية أن يكون أهلا لها، وأن يكون مسلحا بالصلاحية العلمية، والصلاحية الدينية، وأن يسير في طريق مرسوم، وعلى صراط مستقيم.

فمن كانت تلك حاله فتفسيره ممدوح، ومن كان بعكس ذلك فتفسيره مذموم. أما الصلاحية العلمية فهي بتحصيل العلوم التي يحتاج إليها المفسر.

العلوم التي يحتاج إليها المفسر

وقد عدها وشرحها السيوطي في الإتقان فقال:

العلوم التي يحتاج إليها المفسر خمسة عشر علما:

أحدها: اللغة لأن بها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع. قال مجاهد: لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب. وقال مالك: ولا يكفي في حقه معرفة اليسير منها، فقد يكون اللفظ مشتركا، وهو يعلم أحد المعنيين والمراد الآخر.

الثاني: النحو، لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، فلابد من اعتباره.

الثالث: التصريف، لأن به تعرف الأبنية والصيغ. قال ابن فارس: ومن فاته علمه فاته المعظم، لأن الكلمة قد تكون مبهمة، فإذا صرفناها اتضحت بمصادرها. وقال الزمخشري: من بدع التفاسير قول من قال: إن «الإمام» في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ (الإسراء: ٧١) جمع «أم»

وإن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم. قال: وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف، فإن «أما» لا يجمع على «إمام». أ. هـ.

الرابع: الاشتقاق، لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف باختلافهما، كالمسيح، هل هو من السياحة؟ أو المسح؟

الخامس: والسادس: والسابع: المعاني والبيان والبديع؛ لأنه يعرف بالأول خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، وبالثاني خواصها من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، وبالثالث وجوه تحسين الكلام؛ وهذه العلوم الثلاثة هي علوم البلاغة، وهي من أعظم أركان المفسر.

الثامن: علم القراءات، لأن به يعرف كيفية النطق بالقرآن، وبالقراءات يترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض.

التاسع: أصول الدين - أي علم التوحيد - ومعرفة ما يجب لله تعالى وما يجوز وما يستحيل.

العاشر: علم أصول الفقه، إذ به يعرف وجه الاستدلال على الأحكام، والاستنباط.

الحادي عشر: أسباب النزول، إذ بسبب النزول يعرف معنى الآية المنزلة فيه، بحسب ما أنزلت فيه.

الثاني عشر: الناسخ والمنسوخ، ليعلم المحكم من غيره.

الثالث عشر: الفقه.

الرابع عشر: الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم.

الخامس عشر: علم الموهبة، وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم، وإليه الإشارة بحديث «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم».

قال ابن أبي الدنيا: فهذه العلوم التي هي كالآلة للمفسر، لا يكون مفسرا إلا بتحصيلها، فمن فسر بدونها كان مفسرا بالرأي المنهي عنه، وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسرا بالرأي المنهي عنه. انتهى ببعض تصرف.

وأما الصلاحية الدينية: فيمكن أن يعد العلم الخامس عشر ـ الذي ذكره السيوطي ـ أساسا لها. وفي توضيحها يقول الزركشي في البرهان: اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي، ولا يظهر له أسراره، وفي قلبه بدعة، أو كبر، أو هوى، أو حب الدنيا، أو وهو مصر على ذنب، أو غير متحقق بالإيمان، أو ضعيف التحقيق، وهذه كلها حجب وموانع، بعضها آكد من بعض. أ. هـ. بتصرف ويقول السيوطي: وفي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (الأعراف: ١٤٦). قال سفيان في معناه: أنزع عنهم فهم القرآن.

وقال الإمام أبو طالب الطبري في أوائل تفسيره: اعلم أن من شرطه صحة الاعتقاد أولا، ولزوم سنة الدين، فإن من كان مغموصا عليه في دينه لا يؤتمن على الدنيا، فكيف على الدين؟ . . . ولأنه لا يؤمن إن كان متهما بالإلحاد أن يبغي الفتنة، ويغر الناس بلبه وخداعه، كدأب الباطنية، وغلاة الرافضة، وإن كان متهما بهوى لم يؤمن أن يحمله هواه كلما يوافق بدعته، كدأب القدرية. أ. هـ.

وأما طريق التفسير الصحيح المحمود: فقد رسمه العلماء على أساس الخطوات الآتية:

أولا: أن يطلب المعنى من القرآن، فإنه سبيكة ذهبية، يلقي بعضها الضوء على البعض، ويفسر بعضها بعضا.

ثانيا: إذا لم يجد المعني في القرآن، فليطلبه في السنة النبوية، وعليه أن يستوثق من صحة السند، ويحذر من الضعيف والموضوع، فإنه كثير كثرة قال فيها الإمام أحمد: ثلاث كتب لا أصل لها: المغازي، والملاحم، والتفسير.

قال المحققون من أصحابه: مراده أن الغالب أنه ليس لها أسانيد صحاح متصلة.

وقال السيوطي: الذي صح من ذلك قليل جدا، بل أصل المرفوع منه في غاية القلة. أ. هـ.

ثالثا: إذا لم يجد المعنى في حديث رسول الله ﷺ، فليطلبه في تفاسير الصحابة، فإنهم لقرب عهدهم بالوحي، وملازمتهم الرسول ﷺ يحتمل أن يكونوا قد سمعوه منه ﷺ. أو من بعض من سمعه منه.

وليحذر كذلك من الضعيف والموضوع، وليتأكد من صحة الإسناد، فآثار التفسير أكثر من أن تحصى.

رابعا: إذا لم يجد المعنى في المنقول من تفاسير الصحابة، فليطلبه في تفاسير التابعين. وقال الزركشي: وفي الرجوع إلى قول التابعين روايتان عن أحمد، واختار ابن عقيل المنع، لكن عمل المفسرين على خلافه، لأن غالب أقوالهم تلقوه من الصحابة. أ. هـ.

خامسا: إذا لم يجد المعنى في المنقول عن التابعين، فليعمل رأيه إذا كان من أهل الصلاحية العلمية والدينية بالشروط والآداب الآتية:

شروط وآداب المفسر

أولا: ألا يعتقد معنى، ويحاول حمل ألفاظ القرآن عليه، من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن، والمنزل عليه، والمخاطب به. وبعبارة أخرى: ألا يجعل المذهب أصلا والتفسير تابعا، إذ يترتب على ذلك غالبا سلب لفظ القرآن ما دل عليه، وأريد به، أو حمل اللفظ على ما لم يدل عليه، ولم يرد به وكلا الأمرين خطأ في التفسير. ومن الذين ينهجون هذا طوائف أهل البدع، اعتقدوا مذاهب باطلة، وعمدوا إلى القرآن، فتأولوه على رأيهم، وليس لهم سلف من الصحابة أو التابعين، لا في رأيهم، ولا في تفسيرهم. قال السيوطي: وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم، مثل تفسير عبد الرحمن ابن كيسان الأصم، والجبائي، وعبد الجبار، والروماني، والزمخشري، وأمثالهم، ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة يدس البدع في كلامه، وأكثر الناس لا يعلمون، كصاحب الكشاف، ونحوه. أ. هـ.

ثانيا: ألا يترك الألفاظ ومعانيها، وينحو نحو معان خفية بعيدة عن المراد، وإن كانت هذه المعاني حسنة في ذاتها، لكن القرآن لا يدل عليها، كما يفعل كثير من الصوفية والوعاظ والفقهاء.

ثالثا: أن يكون المفسر صحيح المقصد فيما يقول، ليلقى التسديد، فقد قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

رابعا: ألا يكون همه حشو التفسير وشحنه بالإعراب وعلل النحو، أو دلائل مسائل أصول الفقه، أو دلائل مسائل الفقه، أو دلائل مسائل أصول الدين، أو التيه في بيداء الكائنات وأسرارها، أو العلوم الحديثة وتفاصيها.

خامسا: ألا يغرب في التفسير.

سادسا: ألاّ يعتد بالأحاديث الموضوعة والإسرائيليات، ويغرق في تفاصيل القصص، وما لا فائدة فيه، ولا حاجة إلى معرفته كالاختلاف في لون كلب أصحاب الكهف، واسمه، وفي جزء البقرة الذي ضرب به القتيل، وفي قدر سفينة نوح، وخشبها، واسم الغلام الذي قتله الخضر، ونحو ذلك.

سابعا: أن يبدأ بالعلوم اللفظية، فيحقق الألفاظ المفردة، ويتكلم عليها من حيث اللغة والتصريف والمعاني والبيان والبديع. ثم يبين المعنى المراد، ثم الاستنباط، ويقدم على ذلك كله سبب النزول، إذا توقف عليه وجه مناسبة الآية.

ثامنا: أن يتجنب ادعاء التكرار، وادعاء زيادة الحروف ما استطاع إلى ذلك سبيلا. وأن يتجنب القول بالترادف ما أمكن، خصوصا في التراكيب. ولهذا منع كثير من الأصوليين وقوع أحد المترادفين موقع الآخر في التركيب. وإن اتفقوا على جوازه في الإفراد.

تاسعا: أن يكون محط نظره مراعاة نظم الكلام الذي سيق له، وإن خالف أصل الوضع اللغوي، لثبوت التجوز. قاله الزركشي في البرهان.

عاشرا: أن يتحرى في التفسير مطابقة المفسر، وأن يتحرز عن نقص ما يحتاج إليه في إيضاح المعنى، أو زيادا تليق بالغرض، وتشوش على المقصود. وصفوة الآداب وختامها، أن يقصد بعمله وجه الله، وخدمة القرآن، وثواب الدار الآخرة، والله أعلم.

أما بعد، فقد أتيت بما سنحت به الفرصة من اللآلئ الحسان في علوم القرآن، سائلا المولى أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه، وأن ينفع به.

إنه نعم المولى ونعم النصير.

دليل الكتاب

تعريف بالقرآن

تنزلات القرآن

سور القرآن

جمع القرآن وكتابته

نقط القرآن وشكله

القراءات والقراء

فضل قراءة القرآن

سبب النزول

المحكم والمتشابه في القرآن

النسخ

أمثال القرآن

إعجاز القرآن

القصص القرآني

ترجمة القرآن

التفسير والمفسرون